

قِصَّةُ الْحَضَارَةِ

وِل وَايرِيل ديورانت

عَصْرُ لُؤَيْسِ الرَّابِعِ عَشَرَ

تَارِيخُ الْحَضَارَةِ الْأُورُوبِيَّةِ
فِي عَصْرِ

بِسْكَالٍ وَمُولِييرٍ وَكِرْمُولٍ وَمِلْتَنِ
وَبَطْرِيسِ الْأَكْبَرِ وَنِيوْتَنِ وَسَبِينُزَا

١٦٤٨ - ١٧١٥

مُرَاجَعَةٌ
عَلِيٌّ أَدَهْم

تَرْجُمَةٌ
فُوَادُ أُنْدَرَاوِين



تُونِس

الجزء الأول من المجلد الثامن



بَيْرُوت

حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلکس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار هيلاب - بيروت - لبنان

إلى القارئ العزيز

هذا المجلد هو الجزء الثامن في تاريخ نسبت بدايته ، ولن ندرك نهايته أبدا . موضوعه الحضارة ، وتعريفنا لها أنها ذلك النظام الاجتماعى الذى يدعم الإبداع الثقافى ، فهو إذن ينظم أبواب الحكم ، والاقتصاد (أى الزراعة والصناعة والتجارة والمالية) ، والأخلاق ، وآداب السلوك ، والدين ، والفن ، والأدب ، والموسيقى ، والعلم ، والفلسفة . وهدفه التاريخ المتكامل - أى تغطية جميع نواحي النشاط البشرى فى منظور واحد ورواية موحدة . وقد حققنا هذا الهدف ولكن فى قصور شديد . ومسرحة أوروبا ، وزمانه يمتد من معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) إلى وفاة لويس الرابع عشر ، الذى غلب حكمه (١٦٤٣ - ١٧١٥) على العصر وسماه باسمه .

أما الموضوع الغالب على هذا الجزء فهو « المناظرة الكبرى » بين الإيمان والعقل . لقد كان الإيمان متربعا على العرش إبان هذه الحقبة ، ولكن العقل كان يجمد أصواتا جديدة تفصح عنه فى هوبز ، ولوك ، وليون ، وبيل ، وفونتنيل ، وسبينوزا ، و « كان هذا العصر الكلاسيكى من أوله إلى آخره ما أطلقه على ذاته فى ختامه ، أى عصر العقل » (١) وقد خصصنا ثلث الكتاب تقريبا لتلك المغامرة الفكرية التى انطلقت من الخرافة والظلامية والتعصب إلى الدرس والعلم والفلسفة . وقد بذل المؤلفان محاولة لرواية هذا النقاش فى إنصاف رغم انحيازهما الواضح إلى أحد الجانبين ، ومن ثم كان تناولهما المستفيض ، المتعاطف ، لنفر من المذاهبين الأكفاء عن الإيمان ، أمثال بسكال ، وبوسويه ، وفنيلون ، وباركلى ، ومالبرانش ، وليبنتر . وسوف يعيش أبنائنا فصلا جديدا فى صراع المثل هذا ، وهو صراع لا بد لكل انتصار فيه أن يكسب من جديد المرة بعد المرة .

وأملنا أن تقدم للقراء الجزء التاسع الذى يتناول « عصر فولتير »

في ١٩٦٥ ، والجزء العاشر « روسو والثورة » في ١٩٦٨ ، ولقد اعترضتنا عقبات ، بعضها نجم عن ضخامة المادة التي أتاحها لنا القرن الثامن عشر ، وكلها يتطلب الدرس والحيز الكافي . وإنا خلال ذلك راكسان إلى « القوى العظمى » في ألا تدمر موضوعنا هذا قبل أن تدمرنا .

ول وايريل ديورات

مايو ١٩٦٣

إقرار بالفضل

لقد لقي ربه أحد الناشرين المشاركين اللذين بدأنا معها « مشروع الكلام » هذا في ١٩٢٦ ، ولن ننسى أبدا روحه النيرة المتألقة . وما زال الثأني صديقا لنا ، وهو لا يفتأ متحمسا ، سمحا ، غفورا . إنه ناشر لم يطغ عمله على شاعريته .

وعسى ألا يفسر اتهازا هذه الفرصة — التي قد تكون الأخيرة — للإعراب عن عرفاننا بحمिल النقاد الكثرين الذين أتونا بقراء لهذه المجلدات — نقول عسى ألا يفسر هذا بأنه « إحساس قوى بأفضال قادمة » ، فما كنا بغير معوتهم إلا صوتين صارخين في البرية .

ونحن مدينان ديننا كبيرا لا بئتنا إيثلا لما بذلت من جهد مخلص في نسخ مسودتنا الثانية ، التي لم تسكن واضحة تمام الوضوح ، على الآلة الكاتبة نسخا قارب السكال ، ولما أدخلت عليها من تنقيحات صائبة ، ولاخواتنا وأخينا — ساره ، وفلورا ، وماري ، وهاري كأوفان — لما قاموا به من تصنيف صابر لنحو أربعين ألف جزازة تحت اثني عشر ألف عنوان ، وللسيدة آن روبرتس بمكتبة لوس أنجيليس العامة ، والآنسة داجني ولير بمكتبة هوليوود الإقليمية ، لما قدمتا من معونة قيمة في توفير الكتب النادرة لئلا نضيع أرجاء أمريكا ، فما كان لهذه المجلدات أن تكتب لولا مكتباتنا السخية العظيمة ، وللسيدة فيرا شنيدر ، عضو هيئة التحرير بمؤسسة سيمون وشوستر ، لما لقي هذا المجلد وسابقه على يدها من تحقيق علمي دقيق لم يظفر بمثله في أغلب الظن إلا القليل من المخطوطات .

الكتاب الأول فرنسا في أوج عظمتها

١٦٤٣ - ١٧١٥

الفصل الأول

الشمس تشرق

١٦٤٣ - ٨٤

١ - مازاران والفرونند : ١٦٤٣ - ٦١

ترى ما الذى أمان فرنسا على أن تقرض على أوروبا الغربية منذ ١٦٤٣ ،
سلطانا فيه ما يشبه قوة التنويم ، اتصل فى ميدان السياسة حتى ١٧٦٣ ،
وفى ميادين اللغة والأدب والفن حتى ١٨١٥ ؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أوغسطس ملكية إزدانت بمثل هذا
العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثاليين والمعماريين ، أو حظيت بمثل
الإعجاب والمحاكاة الواسعين ، سواء فى آداب المجتمع أو الأزياء أو الأفكار
أو الفنون ، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ إلى
١٧١٥ . لقد كان الأجانب يؤمّون باريس وكانهم يؤمّون مدرسة تهذيبية
تصقل كل ألوان الجمال فى الجسم والعقل . وكان الألوف من الايطاليين ،
والألمان ، وحتى الإنجليز ، يؤثرون باريس على أوطانهم .

أن من أسباب هيمنة فرنسا آنئذ ضخامة قواها البشرية . فقد بلغ
سكانها عشرين مليوناً من الأنفس فى ١٦٦٠ ، فى حين لم يزد سكان كل من
أسبانيا والمجتراتا على خمسة ملايين ، وإيطاليا على ستة ، والجمهورية الهولندية
على مليونين . أما الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى شملت ألمانيا ،
والنمسا ، وبوهيميا ، والمجر ، فقد سكنها واحد وعشرون مليوناً تقريباً ،
ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب
الثلاثين ، وانقسمت إلى نيف وأربعمائة دويلة ، شديدة الحرص على «سيادتها» ،

جلها صغير مستضعف ، ولكل منها حاكمها ، وجيشها ، وعملتها ، وقوانينها ، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين - وعلى نقيض هذا كانت فرنسا بعد ١٦٦٠ أمة متاسكة جغرافياً ، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة ، وهكذا تمخضت جهود ريشليو الأليمة عن مولد « القرن العظيم » .

ولقد فاز البوربون حيث أخفق الفالوا في ذلك الصراع الطويل الذي نشب بين الهابسبورج والملوك الفرنسيين . وأخذت أجزاء من الإمبراطورية ، عقداً بعد عقد ، تقع في قبضة فرنسا ، ثم زالت أسبابها الهابسبورجية عن كبرياتها وزعامتها في روكروا (١٦٤٣) و صلح البرانس (١٦٥٩) . وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية في العالم المسيحي ، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية ، ومهارات شعبها وولائه ، وخطط قادتها العسكريين ، ومصير ملكها . كذلك كان من الأهمية بـمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن ، مضيفاً بذلك وحدة الحكومة والسياسة إلى وحدة العرق والأرض ، وهكذا سنرى فرنسا طوال خمسين عاماً تـرعى وتستقدم عباقرة العلم والأدب ، تشيد القصور الشاغخة ، وتجهز الجيوش الضخمة ، وترهب نصف الدنيا وتلهبها . لقد قدر لهذه الصورة أن تكون صورة عظمة لم تسكد تضارعها من قبل عظمة ، ترسم بكل ضروب الفن وألوانه ، وبدم الرجال أيضاً .

لم تكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة (١٦٤٣) ، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذي بدأه سلفه ريشليو . ذلك هو جول مازارن الذي كان يسمى في إيطاليا جوليو مازاريني ، وقد ولد في « الأبروتزي » لأبوين صقليين فقيرين ، وتولى اليسوعيون تعليمه في روما ، وخدم البابوات موظفاً دبلوماسياً ، ثم لفت أنظار أوروبا فجأة يوم أنهى الحرب المائتوية (١٦٣٠) بالمفاوضة . لحظة حرجة . فلما أوفده البابا معوثاله في باريس ، ربط مصيره بعبقرية

ريشليو المسيطرة ، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة الكرد ينالية . وحين حضرت المنية ريشليو ، « أ كبد للملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلا كفؤا للملء مكانه » (١) . واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة .

فلما مات هذا الملك المطيع (١٦٤٣) ظل مازاران متواريا بينما اضطلمت المملكة الأم ، آن النمساوية ، بالوصاية على ولدها ، واحتال لوى دكونديه وجاستون دورليان ، الأميران الملكيان ، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يغتفرا للملكة قط أنها تخطئهما واستوزرت ذلك الإيطالي الوسيم ، الذي بلغ الآن الحادية والأربعين . وفي غداة تقلده الوزارة هشت باريس لنبا انتصار روكروا الحاسم ، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون ، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء في الدبلوماسية والحرب . وقد تبين ذكاؤه في حسن تخسيره للسياسات ، والقواد العسكريين ، والمفاوضين . وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا (١٦٤٨) تفوق فرنسا الذي أكسبته إياها الحرب .

على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيتهما ريشليو ، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره . وقام أصله الأجنبي عقبة في طريقه . ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرانسى وإن كان لسانه إيطاليا ، إلا أن تأكيداته لم تحظ قط بالتصديق التام ، فلقد كان رأسه إيطاليا ، وقلبه ملكا . ولا علم لناكم من هذا القلب اختص به الملكة ، إنه خدمها وخدم أطعاه بغيرة ، واكتسب ودها ، وربما حبها . وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها في مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشراف الاقطاع . وفي سبيل الأثراء تحسباً للمستقبل إن سقط ، جمع المال بحرص الرجل الذي يذكر الفقر أو يخشاه ، فحكمت عليه فرنسا ، اتى بدأت تهجى بفضيلة الاعتدال ، بأنه محدث نعمة ، وساءتها لكونته الإيطالية ، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غاليا : لاسيما بنات أخيه ، اللاتى تطلب حسنن جهازا مبتزعا من الخدم أو الحشم . وقد احتقره الكرد ينال رتو ، مع أن رتو هذا لم

يسكن ركننا ركننا للفضيلة ، فزعم أنه « إنسان قذر ... ومحتال أصيل ... »
 وشرب لقيم^(٢) . على أن رتز - بعد أن هزمه مازاران - لم يكن في وضع
 يعينه على إنصاف غريمه . وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون اكثراث
 للكرامة ، فإنه أنفقه بذوق رفيع ، فلأ حجراته بالكتب والتحف التي
 أوصى بها بعد ذلك لفرنسا . وكان ذا أسلوب مريح مهذب يله السيدات .
 ويحير الرجال . وقد وصفته امرأة منصفه تدمى مدام دموثفيل ، بأنه :
 « يفيض رقة ، بعيد كل البعد عن صرامة » ريشليو^(٣) . وكان سريع العفو
 عن معارضيه ، سريع النسيان لفضل ذوى الفضل عليه . وأجمع السكل على
 أنه لم يدخر جهداً في حكم فرنسا ، ولكن حتى هذا التفاني كان يسيء إلى
 بعض الناس ، لأنه كان أحياناً يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في
 حجرات انتظاره . وكان كل إنسان في رأيه قابلاً للرشوة ، وكان عديم
 الإحساس بالزاهة . أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا خرينا صفحا
 عن الشائعات التي أُرجمت بأنه جعل من مليكته خلية له . وقد صدم الكثيرين
 في البلاط بدعواته الشكاكة عن الدين^(٤) ، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد
 فشت بعد في المجتمع الفرنسي ، ومن ثم عزوا تسامحه الديني إلى افتقاره
 للإيمان^(٥) . وكان من أول أعماله تأكيد مرسوم نانت ، فسمح للهييجونوت بأن
 يعقدوا مجامعهم في سلام . ولم يسكبد أي فرنسي الاضطهاد الديني من
 الحكومة المركزية في عهد وزارته .

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس
 له . لقد كرهه الفلاحون لما أثقل به كراهم من ضرائب يستعين بها على
 خوض غمار الحرب ، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة ،
 وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الاقطاع . وكرهته « البرلمانات »
 لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون . وزادت الملكة من كره الناس له
 بحظرها توجيه النقد لحكمه . وقد أيدته لأنها ألقت نفسها في وضع تتحداها
 فيه جامعتان رأيتان طفولة للملك ، وفي ضعف المرأة الموهوم ، منفذاً إلى

السلطة : الأشراف الذين عللوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية و « البرلمانات » التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليغاركية من المحامين . إزاء هاتين القوتين - « أرستقراطية السيف » العريقة ، و « أرستقراطية الرداء » الأحدث عهدا - التمسَت الملكية درهما لها في عناد مازاران المقترب بالمرونة ولدهاء . وقد بذل أعداؤه محاولات عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها ، والمحاولتان تؤولان حرب الفروند .

بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى (١٦٤٨ - ٤٩) محاولاً أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزي فوق الملك مصدراً للقانون وحكماً فيه . وكان برلمان باريس ، بعد الملك ، المحكمة العليا لفرنسا ، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانوناً أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريباً محامون) القانون أو الضريبة . وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها ، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها . وأحس أن قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية ، خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابي . ولكن برلمانات فرنسا الاثني عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبها الأمة كما كانت الحال في برلمان إنجلترا ، بل هيئات قضائية وإدارية ورثت أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائية عن آبائهم ، أو عينهم الملك فيها . ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستحوالت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين . وكان في الأمكان تطوير مجلس طبقات الأمة ، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث - النبلاء ورجال الدين وباقي الشعب - إلى مجلس نيابي يكبح جماح الملكية ، واسكن مجالس الطبقات لم يكن يملك دعوته للانعقاد إلا الملك ، ولم يدعه أي ملك منذ ١٦١٤ ، وإن يدعوه حتى ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية .

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئة نيابية بصورة غير مباشرة ، وثقافة يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة . فترى أومير تالون ، في

أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التي أقرت الشعب على عهد ريفليو ومازاران إذ يقول :

« لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام . فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاء للضرائب . وتمسكينا لنفر من الناس من أن ينعموا في باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار . . فاقده كل شيء إلا نفوسها - وهذه لم تترك لها إلا لان أحدا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع (٦) .

وفي ١٢ يوليو، انعقد البرلمان في قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لا بد أنها بدت لها ثورية . فقد طالبوا بخفض ربح الضرائب الشخصية كلها ، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر ، وبطرد النظار الملكيين *intendants* الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاة المحليين ، وبألا يحبس شخص أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين . ولو أن هذه المطالب اجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية ، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع إنجلترا في تطورها السيامي .

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضي جذور أقوى من النصر بالمستقبل ، إذ لم يكن لها عهد قط بأى شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة ، وقد أحست أن التخلي عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مفض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها في صرح الحكومة الوطيد ، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكلوجية التي يستمد منها من التقاليد والعرف ، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة . ثم يالها من سبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التي تتمتع بها أبوه (أو ريشيليو) ذلك نقاعس عن واجها سوف يوقعها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ . ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه في هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المتطعين . ومن ثم أمر في ٢٦ أغسطس بالقبض على بيير بروسيل وغيره

من زعماء البرلمان : بيد أن بروسيل المعجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذي أذاعه : « لا ضرائب » فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام البالية — رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه . وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم ، كما أطلق اسم « الفروند » على هذا التمرد . على أن جان فرانسوا بول دجورندى — الملقب درتز فيما بعد — مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر ، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل . فلما أبت انسحب غاضبا ، وطاون على استعداد الشعب على الحكومة ، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية في محاولة للظفر بقبعة الكردينالية ، ويعاشر ثلاث خليات .

وفي ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكي مخترقين الحشود والمتاريس ، تشد أزرهم هتافات تصيح « يحى الملك ! إلى الموت يا مازاران ! » ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة ، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل ، فوافقت ، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتكفت هى والملك الصبي فى ضاحية روبل وأجاب ما زاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا ، ولكنه طاولة فى تنفيذها . وظلت المتاريس فى الشوارع . فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء ، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بما زاران . ثم عاودت الهروب من المدينة فى ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة فى هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان ، حيث توسد الحرير القش ، ورهنت الملكة جواهرها لشترى الطعام . أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته ، ولم يحب عاصمة ملكه قط .

وفي ٨ يناير أصدر البرلمان فى أوج تمرد مرسوم طرده ما زاران من حماية القانون واستعدي عالية كل الفرنسيين الصالحين ليطارذوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما . وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال

الملكية واستعمالها في أغراض الدفاع العام . ورأى كثيرون من النبلاء في هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم — قضية استردادهم امتيازات الاقطاع ، ولعلمهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة . وانضم إليها كبار الاقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل ، وبوفور ، وبويون ، وحتى أمير كوتى البوربونى الدم ، وأمدوها بالجند وللحال سحرارة العاطفة . فأقبلت دوقه بويون ودوقه لونجفيل — الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدرى — مع أطفالهما للعيش في الأوتيل دفيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب . وبينما كانت باريس تنقلب إلى معسكر مسلح ، كانت حاملات الألقاب يرقصن في قاعة المدينة ، وواصلت دوقه لونجفيل غرامها بأمر ماركسيك ، الذى لم يكن قد أصبح بعد الدوق دلاروشموكو ، ولا اعتنق بعد فلسفته السكبية . وفي ٢٨ يناير رفعت الدوقه من معنوية المتمردين إذ ولدت ابناً لمارسيك (١٧) ، وارتبط كثير من القروانيين بكرائم النبيلات فرساناً تابعين لهن ، فكان يشترين دماءهم بابتسامه متلطفة من نفورهن .

ثم حالف الحظ الملكة فأنتقد الموقف عداء بين أمير كوتى وأخيه الأكبر لويس الثانى البوربونى ، أمير كونديه — وهو « كونديه العظيم » ذاته الذى قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر في روكروا ولنز . وإذا شجع بأنفه القوى على تمرد المحامين والقوغاء ، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك . فوكلت إليه في ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمرده — أى ضد أخيه ، وضد أخته دوقه لونجفيل — والعودة بالأسرة المالكة في أمان إلى الباليه — رويال . وجمع كونديه الجند ، وحاصر باريس ، واستولى على شارنتون ، المخفر الآمى الحصين . أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية . وكان الطلب غلطة ، ذلك أن طائفه الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقي . وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشليو وانتصاراته باعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا ،

وبدأوا يتبينون أنهم إنما يستعملون يبادق أفي محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى ، مستضعفة جماعة . وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفدا إلى الملكة المقترية ، وعرضوا الخضوع لها ، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكنون لها الحب . أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفوا تاما ، شريطة أن يضعوا السلاح . وسرح البرلمان جنوده ، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة . وأزيلت المتاريس . ومادت آن ، ولويس ، ومازاران إلى قصبة الملك (٢٨ أغسطس ١٦٤٩) ، والتأم شمل البلاط من جديد ، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأني شيئا لم يقع ، اللهم إلا سحابة قد انقضت . واغتفر كل شيء ، ولم ينس شيء . ووضعت حرب الفروند الأولى أوزارها .

ولكن حربا ثانية مالمبت أن نشبت . ذلك أن كونديه أحس أن خدماته تحول له التروس على مازاران . فتشاجر الاثنان ، واتصل كونديه بالنبلاء المتمردين بحس نبضهم ، أما مازاران ففي أجراً لحظات حياته أمر بحبس كونديه وكوتى ولونجفيل في فالسين (١٨ يناير ١٦٥٠) . وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا ، وأثارت حركة تمرد فيها ، ثم مضت منها إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية ، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش . خوفاً القائد العظيم على أن يقود جيشا أسبانيا ضد مازاران . يقول فولتير : « واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض ، وأبرموا المعاهدات ، ثم خان كل منهم الآخر واحداً إثر واحد ... ومامن رجل لم يغير ولاءه غير مرة » (٨) وقال ريتز ذاكر تلك الفترة « كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح » (٩) . وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشفوكو . على أن الكل أعلنوا ولاءهم للملك ، الذي لا بد قد ساهل نفسه : أي نوع من الملكية ذاك الذي استحال هسيا بين يديه ؟

وقامت قوة ملكية بمنورة في بوردو انتهت باستسلامها ، وقاد مازاران جيشا إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس ، وهناك هزم تورين

الذي لا يقهر . أما ريتز ، التواق إلى الحلول محل وزير الملكة وعشيقتها ، فقد أقنع البرلمان بأن يحدد مطلبه بنق مازاران . ولقد الكردينال جرأته ، فأمر بالإفراج عن الأمراء للسجونيين (١٣ فبراير ١٦٥١) ، ودفعه الخوف على حياته إلى الحرب إلى برول القريبة من كولونيا . أما كونديه المتحرق للنار من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كوتش ، وأخته لونيغيل ، ودوق نامور ولا روشفوكو ، في حلف جديد . وفي سبتمبر أعلنوا الحرب ، واستولوا على بوردو ، وأحالوها معقلا لثورة من جديد . ووقع كونديه تحالفا مع أسبانيا ، وتفاوض مع كرومويل ، ووعد بأن يقيم جمهورية في فرنسا .

وفي ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وآخذ مة العيد الحسك في يده . وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة . ورغبة في تهدئة البرلمان أيد بنى مازاران ، ولكنه استجمع شجاعته في نوفمبر ، فاستدعى الوزير ثمانية ، وطاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش . أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد ، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك . وفي مارس ١٦٥٢ أوفد لويس حامل أختامه موليه ليطلب بولاء مدينة أورليان . فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك ما لم يمد هو أو ابنته ليستنقروا أهلها .

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات ، وما أكثرهن ، وكأني بها « جان دارك » ثانية أقبلت لتنقذ أورليان . هذه المرأة — آن ماري لويز دورليان — كانت قد رفعت راية العصيان في طفولتها حين بنى ريشليو أباه . وكان جاستون يلقب رسميا — « اللسيو » — باعتباره شقيق لويس الثالث عشر ، أما زوجته ماري بوربون ، دوقة موبانسييه ، فهي « مدام » ذلك العهد ، وابتها إذن هي « المدعو وازيل » ، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارعة القوام فقد سميت « الجراند مدعو وازيل » . وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء للال

والنسب، وكانت تقول « اننى أتمنى إلى بيت لا يفعل إلا ما هو جليل نبيل » (١٠). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن عمها، فلما لم تلق تشجيعاً احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأى أباهما يسكره أن يخوض المعركة، حصلت على رضا بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانخراط في سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست الآن درما وخوذة، وجمعت من حولها لفيفا من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها في مروح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها المدينة خشية إغضب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسلكت وبرفقتها كونتستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها النارية. وهكذا رد موليه عن المدينة خاوى الوفاض، وأقسمت أورليان عين الولاء لـ « عذارى » الجديدة.

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليها من الجنوب، وهزم جيشاً ملكياً، وأوشك أن يأمر الملك، والملكة، والكردينال، ولو فعل لـ « مات الشاه » حقيقة لا مجازاً. وبينما كان جيشه يدن من باريس، حملت الجماهير — وم « الفرونديون » هنا أيضاً، رفات القديسة جنيفيف راعية المدينة وطافت الشوارع في موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويسقط مازاران. أما الجراند مدموازيل فقد هرعت من أورليان إلى قصر لوكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذبه، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه أبى. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقى بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الياستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت ٢ - قصة الحضارة

مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك . ثم أمرت القوم داخل الأسوار ، بأمر أيها الغائب ، أن يفتحوا الأبواب رهة ريثما يدخل جيش كورديه ، ثم يغلقوها في وجه جيش الملك (٢ يوليو ١٦٥٢) . وهكذا كانت المدموازيل بطلا الساعة .

وغدا كورديه سيد باريس ، ولكن الروس المثرنة أخذت تنقلب عليه . ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده ، فبدأوا يهجروه ، وأفلت زمام الجماهير . وفي ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدي مازاران ، وإظهارا لسخطهم اشعلوا النار في المبني ، وقتلوا ثلاثين من المواطنين . وتعطلت العمليات الاقتصادية ، وسمت القوضى إمداد المدينة بالطعام ، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا ، وتساءلت الطبقات المالكة : أليست الأوتقراطية الملكية . بل أليس حكم مازاران ، أهون من حكم الرعاع . وأعان مازاراني الموقف حين ارتضى لنفسه النفي طوعا ، تاركا الفرونديين بغير قضية توحد بين صفوفهم . أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبعة الكردينالية الحمراء التي طالما اشتهاها ، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك .

وفي ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يحسبها سوء . وافتنن الباريسيون بمنظر الملك الصغير ، البالغ من العمر آنئذ أربعة عشر ربيعا ، وسحرهم حسنه وشجاعته ، ورددت الشوارع هتاف الجماهير « يحى الملك » وما لبث هياج الشعب أن هدأ بين عشية وضحاها ، وأعيد النظام لا بفضل القوة ، بل بهالة الملكية ، وهيبة الشرعية ، وإيمان الشعب — الإيمان نصف اللاشموري — بحق الملوك الإلهي . وما وا في ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس في نفسه من القوة ما شجعه على دعوة مازاران للعودة . وتثبيتته مرة أخرى في جميع سلطاته السابقة . ووضعت حرب الفروند الثانية أوزارها .

وفر كورديه إلى بوردو ، وخضع البرلمان في بطاء ووقار ، واعتسكف

النبلاء المتمردون في قصورهم الريفية . والتمست مدام لونجفيل العزاء بين راهبات البور - رويال بعد أن ذهب رواء حسنهما . ونفيت الجرائد مدموازيل إلى إحدى ضياعها ، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهي تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران ، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها - أي قضى على أملها في الزواج من الملك . وفي عامها الأربعين أحببت أنطوان كومون ، كونت لوزان ، وكان أصغر وأقصر منها كثيراً ، ولكن الملك رفض أن يأذن لهذا الزواج ، فلما عزم عليه يرغم هذا الحظر سجنه لويس عشر سنوات (١٦٧٠ - ٨٠) . وظلت المدموازيل وفية له في شجاعة طوال سجنه ، ولما أفرج عنه تزوجته ، وعاشت معه عيشة مضطربة صاخبة حتى ماتت (١٦٩٣) . وأما ريتز فقد قبض عليه ، ولكنه فر ، ثم نال العفو ، وخدم الملك مبعوثاً دبلوماسياً في روما ، واعتسكف في ركن باللورين ، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعي للخلق ، بما في ذلك خلقه هو يقول فيها :

« لم ألعب دور الناذر نفسه للدين ، لأنني لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور للزيف ، وحين أعجزني العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بـ مدام بومرو ، وكانت شابة لعوبا ، لها العدد الكبير من العشاق ، لا في بيتها فحسب ، بل في مكان عبادتها أيضاً ، بحيث كانت صلات غيري للكشوفة معها ستارا لصلتى بها . . . واستقر رأيي على التهادي في خطاياي . . . ولكني كنت مصمماً كل التصميم على القيام بواجبات مهنتي (الدينية) بأمانة ، وعلى بذل قصارى في تخليص نفوس غيري وإن لم أكثر لخلاص نفسي » (١١) .

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار ، وعاد سيداً على للملكة ، وغادما للملك ما زال راغبا في التعلم . وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستنتية وكرومويل قاتل ملكها (١٦٥٧) ، الذي أمان على محاربة كونديه والأسيان بـرسالة ستة آلاف جندي .

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر في « معركة الكشبان » (١٣ يونيو ١٦٥٨) . وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنكرك ، فدخلها لويس في احتفال رسمي مهيب ، ثم نزل عنها الانجلترة طبقا للمعاهدة ، وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس (٧ نوفمبر ١٦٥٩) بعد أن استنزف القتال ماله ورجاله ، فأنتهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من حرب واحدة ، وأرست أساس حرب أخرى . ونزلت أسبانيا عن روسيون ، وأرتوا ، وجرافلين ، وتيونفيل ، لفرنسا ، وتخلت عن جميع مطالبها في الأناضول ، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر ، بشروط ورطت فيها بعد غرب أوروبا كله في حرب الوراثة الأسبانية . ذلك أنه تعهد بأن يبعث إليها ، خلال ثمانية عشر شهرا ، بصدقات قدره ٥٠٠.٠٠٠ كراون ، ولكنه اتزع منها ومن لويس تنازلا عن حقوقها في ولاية العرش الأسباني . وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كوندية شرطاً من شروط الصلح ، فلم يكتب لويس بالصفح عن الأمير العنيف ، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه ، ورحب به في بلاطه .

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو — وخلاصته كسر شوكة الهابسبورج ، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة في أوروبا . واعترف الفرنسيون بفضل مازاران في الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظاهر ، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم ، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء في تاريخ فرنسا . ولكن فرنسا التي سرعان ما نسيت خيانة كوندية ، لم تغتفر قط لما زاران جفعه وحرصه ، في وسط المأزق التي كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتي مليون من الفرنكات (١٢) . وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية ، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ، ويقرض الملك بالربا ، وقد أهدي إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أغلى الحلى في العالم (١٣) .

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول ، وألا يتدخل في مسائل السياسة العليا لأي من مساعديه إطلاقا (١٤) . وبعد موته (٩ مارس

(١٦٦١) كشف كولبير للملك عن الخبأ الذى أخفى فيه ثروته . فصادرهما لويس ، وأتلعج بذلك صدر شعبه ، وقد أغني ملوك زمانه . وهتف ظرفاء باريس لجينو ، طبيب مازاران ، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله ، وقالوا « أفسحو الطريق لنباته . إنه الطبيب الطيب الذى قتل السكردينال » (٢٥) .

٢ - الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا برع دمه . فقد كان نصف أسباني من ناحية أمه آن النمساوية ، ورابع إيطالى من ناحية جدته مارى مديتشى . وقد أولع بالفرن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين ، وفى أخريات عمره كان أكثر شها بمجده لأمه ، فيليب الثالث ملك أسبانيا ، منه بمجده لأبيه ، هنرى الرابع ملك فرنسا ،

سمى عند ولادته (٥ سبتمبر ١٦٣٨) ديودونيه Diudonné أى « عطية الله » ، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبوته فعلا دون عون من الله . وقد أضر بنمو الصبي وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر ، وموت أبيه الباكر ، واضطرابات القروند الطويلة الأمد . وكثيراً ما لقي الإهمال وسط اضال آن ومازاران المرة بعد المرة للاحتفاظ بالسلطة . وفى تلك الأيام التى لم تكن ظروفها مواتية لآى ملك ، ذاق مرارة الفقر أحياناً فى اللبس الرث والطعام القليل . وببدو أن أحدا لم يهتم بتعليمه ، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان همهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذى سيحكمه بالحق الإلهى ، ولا يسأل عنه إلا أمام الله . ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكييتين ، اللتين سترتدان إليه فى قوة بعد أن أنهكت فيه الشهوات وتضائل سناء المجد . ويؤكد لنا سان - سيمون أن لويس « لم يكده يعله أحد القراءة أو الكتابة ، وأنه ظل جاهلاً كل

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق . ولكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة . وما من شك في أن لويس لم يظهر ميلا يذكر للكتب ، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصداقته لمولير وبوالوراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب . وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً ، وكتب يقول « إن الإلمام بالأحداث العظيمة التي وقعت في العالم على مدى القرون الكثيرة ، والتي هضمتها العقول القوية النشيطة ، هذا الإلمام يفيد في دعم الحجة في جميع المداورات الهامة » (١٧) وقد جهدت أمه لترى فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك ، وبقي الكثير من هذا فيه وإن لوثته إرادة طائشة للقوة . كان فتي جاداً ممتثلاً ، يبدو أطيّب من أن يصلح للحكم ، ولكن مازاران صرح بأن في لويس « من الأصلة والسكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلاً شريفاً » (١٨) .

في ٧ سبتمبر ١٦٥١ أطل جون إيفلين من مسكن توماس هوبز في باريس على الموكب الذي رافق الملك الصبي ، البالغ الثالثة عشرة ، متجهاً إلى الحفل المقام بمناسبة إنهاء سن قصوره . وقال هذا الإنجليزى في وصفه « مضى أبوللو الصغير هذا أكثر الطريق وقبعتة في يده يحى السيدات والمعجبات اللاتي ازدات النوافذ بهائن وملاً الجوهتافن « يحى الملك » (١٩) وكان في إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران ، لولا أنه كان يحترم ذلك الدهاء المهنّب الذي طبع عليه وزيره ، نسمح له بأن يحتفظ بالمقام تسع سنوات أخرى . ومع ذلك فقد اعترف بمد موت السكودينال قائلاً « لست أدري ماذا كنت صانعاً لو عمر طويلاً » (٢٠) فلما مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس سائلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم ، فأجاب ببساطة قاطعة « إلى » (٢١) ومنذ ذلك التاريخ (٩ مارس ١٦٦١) حتى أول سبتمبر ١٧١٥ تولى حكم فرنسا بنفسه . وبكى الشعب فرحاً إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة في نصف قرن .

ولقد تهللوا فرحاً وتبها بحسنه . قال جان دلافوتين حين رآه في ١٦٦٠ ، ولم يكن بالرجل الذى يخدع بسهولة ، « أتظنون أن فى الدنيا ملوكاً كثيرين وهبوا هذا الوجه المليح وهذا السميت الرائع ؟ لا أظن ، ويخيل إلى حين أراه أننى أرى العظمة مجسمة » (٢٢) لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات ، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول . وإذا كان قوى البدن ، متين البنية ، فارساً وراقصاً ماهراً ، ومثاقفاً بارعاً وراوية خلاب العبارة . فقد ملك جماع الصفات التى تفتن المرأة وتفتح مغاليق قلبها . كتب سان - سيمون وكان يكرهه ، « لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته » (٢٣) . على أن هذا الدوق (الذى لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدواق من سلطة الحكم) اعترف بكياسته وآدابه الملوكية التى أصبحت الآن مدرسة للبلاط ، ولفرنسا عن طريق البلاط ، ولأوروبا عن طريق فرنسا . قال :

« لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطى لويس الرابع عشر ، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس . . . لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط ، فإذا اضطر أن يلوم ، أو يوبخ ، أو يقوم ، وهو أمر نادر ، فى لطف دائماً تقربياً ، لا فى غضب أو صرامة قط . . . إلا فى مناسبة واحدة . وما عرف الناس رجلاً طبع على مثل هذا الأدب الجلم . . . أما مع النساء فلم يكن لتأدبه نظير . ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع لها قبعته ، حتى الخادومات اللاتى يعرف أنهن خادومات . فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يغط رأسه إلا بعد أن يفارقهن » (٢٤) .

على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه . لقد كاد يضارع نابليون فى حكمه الثاقب على الرجال ، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء فيعصر الفلاسفة ، أو سياسة أو غسطنس الإنسانية البعيدة النظر . وفى هذا يقول سانت - بوف « لم يؤت أكثر من الإدراك السليم ، ولكن حفظه منه كان موفوراً » (٢٥) ولعله خير من الذكاء . ولتستمع إلى سان - سيمون ثابته « كان بطبعه حصيفاً ،

معتدلاً، حذراً ، سيداً على حركاته ولسانه» (٢٦). ويقول مونتسكيو « كانت
نفسه أعظم من ذهنه » (٢٧) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عوضاً بأن عزه عن
قصور أفكاره . أما علمنا بعبوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص
(١٦٨٣ — ١٧١٥) ، حين ضيق التعصب أفاقه ، وأفسده النجاح والتخلق .
هنا نجد مغروراً غرور الممثلين متسكباً كبرياء الآثار الضخمة . وإن
كان بعض كبريائه ربما أضناه عليه الرسامون من صوروه ، وبعضه راجعاً
إلى فكرته عن منصبه . فإذا كان قد مثل دور « الملك العظيم » لجعل عذره
أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام ، إذ لا بد
من وجود مركز للسلطة ، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه
السلطة . قال لولده مرة « يبدو لي أن من واجبتنا أن نكون متواضعين
من أجل ذواتنا ، متكبرين من أجل المركز الذي نشغله » (٢٨) ولكنه قل
أن تواضع — ربما مرة واحدة ، حين لم يجد غضاضة في أن يصحح بواله
خلطه في أمر يتصل بالذوق الأدبي . وتقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله في
اتزان كثير . وعنده أن خير سجايه حبه للمجد . قال إنه « يؤثر الصيت
البعيد على كل الأشياء ، بل على الحياة نفسها » (٢٩) ولكن ولعله هذا بالمجد
خدم أعداءه لأنه غالى فيه . كتب يقول « أن تحمسننا للمجد la gloire
ليس شهوة من هذه الشهوات الهزيلة التي تنطفيء بمجرد تملك النفس لما
تشتهي ، فإن عطايه التي لا تنال إلا بالجهد لا تورث السأم أبداً ، ومن
كف عن اشتهاؤ المزيد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاء » (٣٠) .

يبد أنه أوتي حظاً من الفضائل الجنيلة ، إلى أن جر ولعه بالعظمة
والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده . فلقد أعجب بلاطه بعدائه ، وتسامحه ،
وكرمه ، وضبطه لنفسه . قالت مدام مونتفيل التي كانت تراه كل يوم تقريباً
خلال هذه الفترة « في هذا يجب أن تعترف كل المهود الملكية السابقة . .
هذه الهدى بتقدمه عليها في استهلاله السعيد » (٣١) وقد لاحظ القريبون منه
ذلك الوفاء الذي كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

شواغله ، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه ، وحرصه على محبتهم وتربيتهم — أياً كانت أمهم . كان أكثر عطفا على الأفراد منه على الأمم ، في وسعه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه ، وأن يأمر بتدمير البالاتينات ، ولكنه يحزن لموت روبرت أمير البحر الهولندي ، الذي أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية ؛ وقد كلفته الشفقة على المملوكة المخلوعة ، زوج - عيمس الثاني ، وعلى ولده ، حربا كانت أسوأ حروبه .

ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا ، ولحكمها بسلطان مطلق . وكان في استطاعته بالطبع أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا ، وأسعد بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهي . وقد أخبر ولده في مذكراته (*) التي أعدها لإرشاده أن : « الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيد للصالح العام » وأنهم « خلفاء الله على هذه الأرض » . ولا بد لهم ، لكي يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح ، من سلطة لا حدود لها ، ومن ثم وجب أن يكون لهم « الحرية الكاملة المطلقة في التصرف في جميع الممتلكات سواء بممتلكات رجال الدين أو العلمانيين » (١٣٢) . أنه لم يقل (أنا الذوله) *L'état, c'est moi* ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة . أما الشعب فيلوح أنه لم تسوّه هذه الدعاوى ، التي حببها هنري الرابع إليه انتقاضاً على الفوضى الاجتماعية ، لا بل إن أفراداً تطلعوا إلى هذا الملك الفتى في ولاء ديني ، واستشعروا عزة الجماعة في أبنائه وجبروته ، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الاقطاع من تفتت وغلطية . وبعد طغيان ريشليو ، وفوضى الفروند ، واختلاسات

(*) واصل لويس على فترات كتابة « ملاحظات يستعان بها في المذكرات » التي بدأها في ١٦٦١ و حتى ١٦٧٩ حين أضاف إليها « تأملات في حرفة الملك » وفيها الكثير مما يقسم بسلامة الادراك على الرغم من إيمانها بنظرية الحكم المطلق ، وقد تبدو أمامها بحوث الفلاسفة في هذا الموضوع قاصرة . والظاهر أنه أملاها على سكرتيرين كسوها ثوباً أدبيا قشيباً . وهي لا تقل بحدارة بالقراءة عن أي أدب في العصر الذي نحن بصددده .

مازاران ، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة الممركزتين .
في حاكم « شرعى » بدا لهم واعدأ بالنظام ، والأمن ، والسلام .

وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ أن يناقش بعض مراسيمه . ركب من فالنسين في ثياب الصيد ، ودخل قاعة البرلمان في حذائه العالى وسوطه بيده ، ثم قال : « إن الكوارث التى جرتها مجالسكم معروفة مشهورة . لذلك آمركم بأن تقضوا هذا المجلس الذى اجتمع ليناقد مراسيمى . سيدى الرئيس الأول ، إنى أمنعك من السماح بهذه الاجتماعات ، وأمنع أى فرد منكم بالمطالبة بها . » ثم نقات وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عاليا إلى « مجلس خاص » ملكى ، خاضع للملك على الدوام .

وأدخل لويس على مركز النبلاء فى الحكومة تغييرا جذريا . لقد زدودوا البلاط والجيش بأهبة المظهر وبريقه ، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية . ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم معظم العام والإقامة فى البلاط - أ أكثرهم فى « أوتيلانهم » أو قصورهم الباريسية ، وعظماؤهم فى القصور الملكية ضيوفا على الملك ، ومن هنا هذه الأجندة الشاسعة التى خصصت لهم فى فرساي . فإذا رفضوا قبول الدعوة فليس لهم أن يتوقعوا أى فضل يؤثرهم به الملك . وأعفى النبلاء من الضرائب ، ولكن فرض عليهم فى الأزمات أن يهرعوا إلى قصورهم الريفية ، وينظموا ويجهزوا أتباعهم ، ويقودوهم للاضمام إلى الجيش . وقد استطابوا الحرب تخففا من سأم الحياة فى البلاط . حقا كانوا حاملين كثيرى النفقة ، ولكن بسالتهم فى ساحة القتال أصبحت فرضا ملزما لطبقتهم . ومنعهم العرف والإتيكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشئون السال - وأن جبوا الرسوم على التجارة المارة بأملأكم ، واقترضوا فى غير تخرج من أصحاب البصارف . وكانت ضياعهم يزرعها محاصصون (métayers) يدفعون لهم جزءا من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمكوس الإقطاعية . ويفترض

في السيد الاقطاعي أن يحافظ في اقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر . وكان في بعض الأقاليم يؤدي هذه المهمة أداء لا بأس به ، فيسكون محل احترام الفلاحين ، وفي بعضها الآخر لا يبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء تافها ، فضلا عن أن فترات غيابه الطويلة في البلاط كانت تقوض تلك الألفة للمهذبة بين السيد وتابعه . وقد حظر لويس الحروب الخاصة التي كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية ، وأنهى — إلى أجل — عادة المبارزة التي انتعشت خلال حرب الفروند ، وتفاقم خطرهما لأن شهود المبارزين ، لا المبارزين الأصليين خصب ، كانوا يقتتلون ، ويقتلون ، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه . وقد أحصى جرامون عدد من أودت للمبارزات بهم في تسع سنوات (١٦٤٣-٥٢) فكانوا تسعمائة (٣٤) . ولعل احد أسباب الحروب المتكررة تلك الرغبة في ايجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال ، ولكبريائهم داخل وطنهم ، على حساب الأجانب .

أما الإدارة الفعلية لشئون الحكومة فقد آثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكزهم ومن كان في وسعه أن يركن إليهم في دعم سلطة الملك المطلقة (٣٥) . واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصرف شئون الحكم ، يجتمع كل منها برئاسة الملك ، ويعمل في إعداد المعلومات والتوصيات التي يبني عليها الملك قراراته . فكان « مجلس الدولة » المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات في الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة ، وكان « مجلس الرسائل » يصرف شئون الأقاليم ، و « مجلس المالية » ينظر في الضرائب والإيراد والمصروف . واضطلعت مجالس اضافية أخرى بشئون الحرب ، والتجارة ، والدين ، وانتزع الحكم المحلي من أيدي النبلاء المستهترين ونيط به النظار المسكينون ، وسخرت الانتخابات البلدية لتأتي بعمد يرضى عنهم الملك . ولو أننا سئلنا اليوم رأينا في حكومة شديدة التركز كهذه لقلنا إنها ظالمة ، وكذلك كانت ، ولكن أغلب الظن أنها أقل ظلما مما سبقتها من حكم الأوليغاركيات البلدية أو النبلاء .

الإقطاعيين . وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية إقليم أوفرن (١٦٦٥)
للتحقيق في استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية في الإقليم ، رحب الناس
بهذا الاستجواب العظيم Lesgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من
الظلم ، وأثلج صدورهم أن يروا « إقطاعيا كبيرا » يضرب عنقه لأنه قتل
فلاحا ، وأشرافا ، أقل منه شأنًا يلقون جزاءهم على ما اقترفوا من أفعال
محظورة أو قاسية (٣٦) . وبمثل هذه الاجراءات حل القانون الملكي محل
القانون الإقطاعي .

ثم نقحت القوانين لتبلغ من النظام والمسطق قصارى مايتفق
والارستقراطية ، فحكم « قانون لويس » الذي تكون على هذا النحو
(١٦٦٧-١٦٧٣) فرنسا إلى أن جاء « قانون نابليون » (١٨٠٤ ١٨١٠)
وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان ،
وقد « أسهم بقوة في تقدم الحضارة الفرنسية (٣٧) » وأنشئ جهاز شرطة
ليسكبح إجرام باريس وقذارتها . فتمرى مارك ريفيه ، مركز فوابيه
دارجنسون ، الذي خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائدا عاما للشرطة ،
يترك سجلا مشرطا من الأداء العادل الدؤوب لوظيفة عسيرة . ويأشرافه
رصف شوارع باريس ، ونظفت تنظيفا معتدلا ، وأضيفت بمئة ألف مصباح ،
وأمنت تأمينا لا بأس به للمواطنين ، وأصبحت باريس الآن في هذا كله
متقدمة جداً على أى مدينة أخرى في أوروبا . ولكن القانون أباح الكثير
من أعمال الطمعية والطمعانيان . ونشرت شبكة من الخبزين في أرجاء فرنسا ،
يتجسسون على السكالك كما يتجسسون على الأفعال . وأبيع اعتقال الأشخاص
اعتقالا تعسفيا بمقتضى الأوامر السرية Lettres de caches التى يصدرها
الملك أو وزراؤه ، وسجنهم سنين دون محاكمة ، ودون أن يحاطوا علما
بجريمتهم . وحظر القانون الاتهامات بالسحر ، وأبطل حكم الإعدام عقابا
للتجديف ، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لا تزاع الاعتراقات
من المتهمين . وأجاز القانون عقاب عدد كبير من الذنوب بالحكم

على مرتكبيها بتشغيلهم في سفن أسرى الحرب - وكانت سفنا كبيرة وطيفة يسيرها بالمجاذيف المذنبون موثقين بالسلاسل إلى المقاعد . وخصص ستة رجال لكل مجذاف طوله خمسة عشر قدما . وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التي يحددها ، وأجسادهم عارية إلا من وزرة ، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم مخلوقة ، وأحكامهم طويلة الأمد ، ومن الجائز مدها تعسفا إذا لم يذعنوا للأوامر إذعانا تاما ، فيفرض عليهم رقمهم أعواما بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم . ولم يخف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافة أو استجداء الصدقات وهم يسرون أزواجاً في أغلالهم .

أما لويس نفسه فوضع فوق القانون ، حراً في أن يأمر بأى عقوبة لأى ذنب . ففي ١٦٧٤ قضى بأن تجدد أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود في نطاق خمسة أميال من فرساي . وكثيراً ما كان رحيما والسكنه كثيراً ما كان صارما قال لولده : « إن مقداراً محدوداً من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبى ؛ ولو انى اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شروراً متعاقبة لا نهاية لها . ذلك أنه ما إن يضعف الملك في إنفاذ ما أمر به ، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام ... فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا ، التي يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلا من الملك الشرعى (٣٩) .

وكان دائم العكوف على ما سماه « حرفة الملك » *le métier de roi* . يطلب إلى وزرائه أن يوافوه بالتقارير الكثيرة المفصلة ، ولا يدانيه رجل في مملكته اطلاعا على أحوالها . ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه ، وقد نزل أحيانا على رأى مستشاريه . ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه ، شريطة ألا يغيب عنهم أنه الملك - قال مرة لفردينان : « ثابر على أن تكتب إلى بكل ما يعين لك ولا تفتر لك همة ولو لم أفعل دائما ما تشيره » (٤٠) . وكانت عينه على كل شئ - الجيش والبحرية ، والمحاكم ، وبيته ، والمالية ، والسكنيسة ، والدراما ، والأدب ، والفنون ، ومع أنه في

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أ كفاء مخلصون ، فإن السياسات والقرارات الخطيرة ، والجمع بين شتى نواحي الحكم المعقد في وحدة متسقة - كل هذا كان من صنعه هو . لقد كان ملصكا كل ساعة من ساعات يومه . ولقد كلفه هذا من أمره عنتا . كان هناك من يقوم على خدمته في كل خطوة بخطوها ، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغير له في كل حركة وسكينة فكانت مبارحته لقراشه وذهابه إليه (إذا كان منفردا) بعض وظائف الدولة . فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمي (lever) استمع إلى القداس ثم أفطر ، ثم مضى إلى قاعة المداولة ، وخرج منها حوالى الواحدة ، فتناول وجبة كبيرة ، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد ، تحيط به بطائنه وخدمه . فإذا فرغ من طعامه تمشى عادة في الحديقة ، أو خرج للصيد ، يرافقه أثرؤه في ذلك اليوم . فإذا عاد أنفق ثلاث ساعات أو أربعا في اجتماعات مجلسه ، ثم لحق بمحاشيته في ملاهيهم من الساعة إلى العاشرة - حيث الموسيقى ، ولعب الورق ، والبليارد ، والغزل ، والرقص ، والاستقبالات ، وحفلات الرقص ، وفي فترات من هذا الروتين اليومي « يتحدث إليه من شاء » (٤١) وإن لم يجرؤ على هذا إلا القليلون . « لقد أعطيت رعاياي كلهم ، دون تفرقة ، حرية مخاطبتي في جميع الساعات ، سواء بأشخاصهم أو بملتمساتهم » (٤٢) وحوالى الساعة العاشرة مساء ، كان الملك يتناول العشاء رسميا مع أبنائه وحفدته ، وأحيانا مع الملكة .

ولقد كان من أسباب التهذيب والتنقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ مليكها لمهام الحكم مواظبا عليها ساعات سبعا أو ثمانى طوال ستة أيام في الأسبوع . كتب السفير الهولندى يقول : (لا يصدق المرء أى سرعة ، وأى وضوح ، أى قدرة على التمييز ، وأى ذكاء يصرف به هذا الملك الشاب أعماله ويفرغ منها ، وذلك في تلفظ كثير مع جميع من يتعامل معهم ، وفي أطول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبه أن يقول ، الأمر الذى حُبب فيه كل القلوب) (٤٣) ولقد ثابر على هذا النفاذ في تصريف شئون

الحكم طوال أربعة وخمسين عاما ، لا يسكف عنه حتى وهو يلزم فراش المرض . وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعدادا وافيا . « فما كان ليحسم في أمر عفو الساعة ، ولا دون مشورة » (٤٥) تم أنه يختار مساعديه بفتنة عجيبة ، ولقد ورث بعضهم - ككولبير - من مازاران ، ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم ، حتى موتهم عادة . وكان يبذل لهم كل لطف ومجاملة ، وكل ثقة معقولة ، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم . كنت بعد أن اختار وزرائي لا يفوتني أن أدخل مكاتبهم على غير توقع منهم . وهكذا أحطت بالآلاف الأشياء التي أفادتني في تحديد طريقتي (٤٦) »

وحكمت فرنسا ، في أيام شمسها الصاعدة تلك ، خيرا مما حكمت في أي عهد مضى للميرغم تركيز السلطة والإدارة ، أو بفضل هذا التركيز ، وبرغم تحكم يد واحدة في حييوط الحكم كلها ، أو بفضل هذا التحكم .

٣ - نيقولا فوكيه : ١٦١٥ - ٨٠

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزفتها الاختلاسات في عهد مازاران . وكان نيقولا فوكيه ، الذي شغل منصب « ناظر المالية » منذ ١٦٥٣ ، يدير شئون الضرائب والمصروفات بأصابع حريصة ويد قديرة . فقد قلل من عوائق التجارة الداخلية ، وتشطت نمو التجارة الفرنسية فيما وراء البحار ، واقسم في احساس بالواجب غنائم منصبه مع ملتزمي الضرائب ومع مازاران . وكان هؤلاء الملتزمون العموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء تخويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغا محددًا . وقد جبوها بكثير من الجشع الفعّال الذي جعلهم أبغض الأشخاص إلى الناس في المملكة ، وقد أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزما خلال الثورة الفرنسية . وجمع فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين العموميين أضخم ثروة اقتناها فرد في جيله .

وفي سنة ١٦٥٧ كلف المماري لوى لفو ، والمصور شارل لبرون ،

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لنوتر ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الربى الفخم المتراعى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، وزينوها بالتمائيل . وقد استخدم للمشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل (٤٠) ، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتمائيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القامات الأنيقة كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسهن بضمن غال (٤١) . وبمثل هذا الذوق ، ولكن بضمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنبي ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة ولخامته الفانون في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب . ومنل مولير في حدائق القصر ملهاته (Les Fâcheux) (الثقل) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار (Quo non ascendam ?) (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة لللسة دلا فالير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعتته أمته بأن في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تسكثرت الأدلة على اختلاساته . وفي سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذه القائد

ورسام المناظر الطبيعية « اندريه لوتز » ، بأن يصمموا ، وبينوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الربى الفخم للترامى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل ، وكلف ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أبل الأسر ليؤنسهن بثمرن غال » . ويمثل هذا الذوق ، ولكن بثمرن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كوربي ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه . ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الآلهة وخامرته الظنون في مصدرها . فطلب إلى كوليير أن يفحص أساليب ناظر للمالية وحساباته ، وأنهى كوليير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب ، ومثل مولير في حدائق القصر ملهاته « Les Facheux » (التقلد) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار « Quo non asconam ? » (إلام لا يجوز لي أن أرق ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للأنسة دلافالير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعت أمه بأن ذلك إفساداً لسهرة رائعة .

وتربص للملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفي ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد « mousquetaire » هو شارل دباتز ، السيد دارفنيان ، بطل قصة ديماس الأبدي) . وأصبحت

٣ - قصة المطارة

المحاكمة التي اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا في تاريخ المهد . وكأخت مدام دسفينيه ، ولافونتين ، وغيرهما من أصدقاء فوكيه ، وتوسلوا إلى الملك ليبري ساحت ، غير أن الأوراق التي عثر عليها في قصره الريني أدانته . فحكمت عليه المحكمة بالنفي ومصادرة أملاكه ، وعُـدِل الملك الحكم إلى السجن مدى الحياة . وظل الوزير الذي كان من قبل رجلا مرحا ، ستة عشر عاما ، يذوى في سجنه بقلعة بنيرول بييدمونت ، ولا يسرى عنه إلا صحبة زوجه الوفية . لقد كان حكما قاسيا ، ولكنه قلم أظفار الفساد السياسي ، وألنر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز لا يختص به غير الملك .

٤ - كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول : « لقد أشركت كولبير .. مفتشا مع فوكيه لكي أراقبه .. وهو رجل منحه ما استطعت من ثقة ، لأنني كنت عليا بذكائه وجده وأمانته (٥٠) » . وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تعقبه مدفوعا بالرغبة في الانتقام منه ، ولعل كولبير استشعر شيئا من الحسد للرجل ، ولكن فرنسا ذلك المهد لم تنجب ضرباً لـكولبير في تفانيه الدؤوب في خدمة الصالح العام . روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت « مولاي ، إني مدين لك بكل شيء ، ولكنني أدفع ديني .. بأعطائك كولبير (٥١) » .

كان جان باتيست كولبير ابن قماش في رامس ، وابن أخى تاجر غنى ، وإذ كان بوجوازيا بدمه ، اقتصاديا بحيطه ، فقد درب على كراهية الفوضى والعجز ، وأعد بمطرته وبطول المراتة لتغيير اقتصاد فرنسا من جهود الفلاحة والتفتت الاقطاعى إلى نظام موحد قومياً ، يشتمل الزراعة والصناعة والتجارة والمال ، يواكب ملكية مرمكة ، ويهيء لها الأساس المادى لعظمتها وسطوتها

دخل كولبير ديوان الحربية سكرتيراً صغيراً في العشرين (١٦٣٩) وما لبث أن شق طريقه بمجده إلى حيث استمرى نظر رؤسائه ، فنقل إلى خدمة مازاران ، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال . فلما سقط فوكيه ، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هي إعادة تنظيم مالية الأمة . وفي ١٦٦٤ أضيفت إليه مهمة الإشراف على اللباني ، والمصانع الملكية ، والتجارة ، والفنون الجميلة ، وفي ١٦٦٥ عين مراقباً عاماً للمالية ، وفي ١٦٦٩ عين وزيراً للبحرية ، ثم وزيراً للأخاسة الملكية . ولم يرق رجل آخر في عهد لويس الرابع عشر يمثل هذه السرعة ، ولا اشتغل بمثل هذه المهمة ، ولا حقق مثل ما حققه من أعمال . بيد أنه لوث أرتقاع بمحباته أقرباه ، إذ أغدق الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير ، وغالى في مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته . وكان نهبا للغرور ، يتشبث بأنحداره المزعوم من ملوك اسكتلنده ، وقد يصبث عبثاً منكرأ بالقوانين القائمة تعجلاً لقضاء المصالح ، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها في الجهات العليا . فلما استفحل سلطانه غدا مستبدأ ، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق . وقد استخدم في إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسي نفس الأساليب الدكتاتورية التي استخدمها ريشليو من قبل في إعادة تشكيل الدولة الفرنسية . وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة .

بدأ بفحص أساليب المالين الذين يحبون الضرائب ، ويزودون الجيش بالسلح ، والملابس ، والطعام ، ويقدمون القروض للاقطاعيين أو لخزانة الدولة . وكان بعض هؤلاء المصرفيين يعدلون الملك ثراء . فبلغت ثروة صموئيل برنار مثلاً ٣٣٠٠٠٠٠٠ ر جنيه (٥٢) . وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقتهم ، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها ، وبالعيش في ترف لا يقوى عليه من لا يملكون غير عراقة النسب . وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى ١٨٪ حسب درجة الشك في الوفاء بالقروض . وبناء على طلب كولبير شكل الملك « غرفة عدالة » للتحقيق

في جميع المخالفات المالية التي ارتكبت منذ ١٦٣٥، والتي اقترفها أي شخص أيا كانت صفته أو حالته (٥٣) ، وطلب إلى جميع موظفي الخزانة ، وجباة الضرائب ، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم ويبينوا شرعية مكاسبهم ، وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات . وبثت الغرفة موظفيها في طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين . وأودع السجن عدة رجال أغنياء ، وأرسل البعض إلى مراكز تشغيل الأسرى ، وشنق البعض الآخر . وصعقت الطبقات العليا لهذا « الأرهاب السكوليري » ، أما الطبقات الدنيا فصعقت له استحسانا . ونظم رجال المال في برجنديا حركة تمرد على الوزير ، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح في وجوههم ، ولقيت الحكومة عمثا في إنقاذهم من غضب الشعب . ورد للخزانة نحو ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ ر. من الفريكات ، وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلا كاملا (٥٤) .

ومضى كولبير يعمل من أجل الوفرة في خزانة الدولة . فرت نصف الموظفين في وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذي اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة الملكية التي تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدي أصحابها واجبات . فطرد عشرون من « سكرتيري الملك » ليكسبوا قوتهم بطريق آخر . وخفف تخفيضا قاسيا عدد المحامين العامين ، وضباط النظام ، والمستقبلين ، وغيرهم من صغار الموظفين في البلاط الملكي . وأمر كل موظفي الخزانة بأن يسكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص . وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل . ثم بسط جباية الضرائب . ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بالغاء كل الضرائب التي لم تسدد عن المدة ١٦٤٧ — ٥٨ . ثم خفض معدل الضريبة في ١٦٦١ ، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية في ١٦٦٧ لكي يمول « حرب الأيلولة » واسراف فرساي .

يبد أن أسوأ مامى به من إخفاق كان في احتفاله بنظام الضرائب

القديم . ولعله لوقلبه من أساسه لأحدث من الاخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيراد الدولة . ذلك أن الدولة كانت تمولها أساساً ضريبتان - التالى (الرهوس) والجابيل (الملح) . وكانت ضريبة التالى تقدر فى أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية ، وفى غيرها على أساس الدخل . وقد أهدى منها الإشراف والسكينة ، فوقمت كلها على كواهل « الطبقة الثالثة » - التالى تنظم باقى السكان وكان يطالب إلى كل إقليم أن يحى مبلغاً محدداً ، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر . أما الجابيل فضريبة على الملح . فقد احتكرت الدولة بيعه ، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دوريا كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة . وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة ، وعشر محصول الفلاح الذى يجب أدائه للكنيسة . على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير (٥٥) ، وكانت تراعى الرأفة فى جبايتها .

وكانت الزراعة أقل المرافق تأثراً باصلاحات كولبير . إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجزت عن إعاشة عشرين مليوناً من الأنفس يتسكثرون بغير حساب . وكان لكثير من الأزواج عشرون ولداً . ولولا الحرب ، والمجاعة ، والمرض ، وارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال ، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة (٥٦) . ومع ذلك منح كولبير الاعفاءات الضريبية للزواج المبكر ، والمكافآت للأسر الكبيرة (ألف جنيه فرنسى للاباء إذا كان لهم أبناء عشرة ، وألفين إذا كانوا اثنى عشر ولداً (٥٧)) . وذلك بدلا من أن يعمل على زيادة خصوة القرية . وقد احتج على تسكثر الأديان لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا (٥٨) . على أن نسبة المواليد فى فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس ، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر . ولم يكن حتى فى هذه الحال لم تقتل الحرب ما يكفى لحفظ التوازن بين المواليد والطعام ، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب . وكان نقص المحصول سنتين متعاقبتين كفيلا بإحداث المجاعة ، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع يكتمالية سد العجز فى إقليم من الإقليم فى آخر . نولم تتجلى استعصان مجاعة فى

مكان ما بفرنسا (٥٩) وكانت السنوات ١٦٤٨ - ٥١ ، ١٦٦٠ - ٦٢ ، ١٦٩٣ - ٩٤ ، و ١٧٠٩ - ١٠) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعا ، حين بلغت نسبة الموتى من السكان في بعض الأقاليم ثلاثين في المائة . وفي ١٦٦٢ استورد الملك القمح وباعه للمفقرات بثمان بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (٦٠) .

وخفف التفرع بعض مآسى الريف ، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وطاء للدين ولو كان ديننا للتاج . وأنشئت مزارع للاستيلاء تتعهد أنراس الفلاح مجانا ، ومنع الصيادون من اختراق الحقول للبذرة بالحلب ، وقدمت الاعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضي المهجورة ويزرعونها . ولكن هذه الملطفات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة — مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة اترربة ، والافتقار إلى الاختراعات الآلية . على أن فلاحى أوربا على بكرة أبيهم كانوا يلتقون مثل هذا العنت ، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالا من نظرائهم فى انجلترا أو ألمانيا (٦١) .

لقد ضحى كولبير بالزراعة قربانا للصناعة ولكنى يطعم سكان المدن المنكائرين ، وجيوش الملك المتماظمة ، حظر رفع سعر الغلال بما يقتاسب وغيرها من الخفامات . وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التى تبتغى الثروة أن تملك موارد كافية وجيشا من الجنء الأشداء المجهزين تجهيزا حسنا ؛ فطبة الفلاحين المتمرسه بالمهاق تزود البلاد بمشاة أقوياء ، والصناعة والتجارة الغاميتان لا بد أن توفرأ الثروة والأدوات . ومن هنا كان هدف كولبير الذى لم ينته دونه هو أن يشجع الصناعة ، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف ، فلا بد أن نحمى الصناعات الوطنية بالرسوم الجركية التى تبعد المنافسة الخطرة من خارج البلاد . وجريا على السياسات الاقتصادية التى اتبناها صلى وريشليو ، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية — إلا أقلها شأنا — لسيطرة الدولة النقاوية : فكانت كل صناعة ، بطوائفها ، ومالياتها

ومعلميها ، وصبيتها ، وعملها اليوميين ، تؤلف نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات ، والأسعار ، والأجور والبيوع . وأرسى المعايير الرفيعة لكل صناعة أملا في كسب الأسواق الأجنبية بمجودة التصميم والصقل في المنتجات الفرنسية . وقد آمن هو ولويس بأن التذوق الأرستقراطي للاناقة يدعم الحرف السكالية ويحسنها ، ومن ثم وجد الصاغة ، والنقاشون ، وتجارو الأثاث ، ونساجو الأقمشة المرسومة ، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد .

وأهم كولبير مصنع جوبلان في باريس تأميا تاما ، وجعله نموذجا في الأسلوب والتنظيم . وشجع المشروعات الجديدة بالاعفاء الضريبية ، والقروض التي تمنحها الدولة ، وخفض سعر الفائدة إلى ٠.٥٪ ، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها . وقدم الحوافز لمهرة الصناعات الأجنبي حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا ، فاستوطن صناع الزجاج البنادقة في سان - جوبان ، وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد ، وأنشأ بروتستانت هولندي في أبقيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفّل له حرية العبادة ورأس المال الذي اقترضته إياه الدولة . فما وافى عام ١٦٦٩ حتى بلغ عدد الأنوال في فرنسا ٤٤٠٠٠ ، وكان في تور وحدها ٢٠٠٠ نساج . وقد زرعت فرنسا أشجار توتها ، وكانت آتخذ مهبورة بأقمشتها الحريرية . وتضاعفت مصانع النسيج لتلبى حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة . وهكذا اتسمت الصناعات الفرنسية سريعا بفضل هذه الحوافز . وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية ، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية في الاستثمار ، والتجهيز ، والإدارة . وصادفت رسالة التصنيع التي آمن بها كولبير هوى في نفس الملك ، فتفقد الورش ، وسمح بأن تحتم المنتجات الفاخرة بخاتم السلاح الملكي ، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعى ، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين .

وشجعت الدولة التعليم العلمى والتقنى أو وفرتة للشعب . وغدت الورش

في الوفرة ، والتوفير ، ومصانع الجوبلان ، وأحواض سفن البحرية ، مدارس
تقتلح فيها الصببية من الصانع . وسبق كولبير موسوعة ديدرو ، إذ احتضن
موسوعة للفنون والحرف ، ووصفها مصورا لكل الآلات المعروفة (٦٢) . ونشرت
أكاديمية العلوم بحثا عن الآلات والفنون الميكانيكية ، وسجلت « صحيفة
العلماء » تقنيات صناعية جديدة . وقد أخذ العجب يبرو - وهو يبدى الواجهة
الشرقية للوفر - حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر وزن ١٠٠.٠٠٠ كيلو
(١٠٠ رطن) (٦٣) . على أن كولبير طارح إدخال الآلات التي ينجم عنها
تعمل العمال (٦٤) .

وإذ كان شديد الولع بالنظام والكفاية ، فقد أمم تنظيم الصناعة بوساطة
الكمونات أو الطوائف الصناعية . وتوسع في هذا التنظيم توسعا أو شاك
أن يكون خائفا . وراحت مئات من الأوامر تصف أساليب الصناعة ، وحجم
المنتجات ولونها ونوعها ، وساعات العمل وفروقه ، وأنشئت اللجان في جميع
قاعات المدن لفحص العيوب في إنتاج الحرف والمصانع المحلية . وعرضت ملائمة
عينات من الصنعة للمعينة وإلى جوارها اسم الصانع أو المدير . فإذا عارض المخالف
إلى مخالفته وبخ في اجتماع للطائفة فإن عاد ثالثة شد إلى عمود تشهيرا به
وتسكيلا (٦٥) . وشغل كل ذكر قادر على العمل ، وجند الإيتام من ملاجئهم
ليخدموا في المصانع ، وأخذ المتسولون من الشوارع إلى المصانع ، وقال
كولبير للملك في اغتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض
المال في المصانع .

وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكري . فالكسل وعدم
الكفاية ، والشم ، والأحاديث المايية ، والعصيان ، والسكر ، والاختلاف إلى
الحانات ، ومعاشره الخليلات ، وعدم الخشوع في الكنيسة - كل أولئك
يجب أن يعاقبه رب العمل ، وبالجلد أحيانا . أما ساعات العمل فطويلة -
وقد تبلغ اثنتى عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين أو أربعين دقيقة
لتناول الطعام . وأما الأجور فضئيلة ، يدفع جزء منها أحيانا سلفا يحدد

رب العمل أسماها . وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومي الذي يتقاضاه مهرة الصانع في المدن الكبيرة فكان اثني عشر سوا (ثلاثين سنتا) في اليوم ، ولكن السوا الواحد كان يشتري رطلا من الخبز (٦٦) . واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التي تعفى العمال من العمل ، وبقي من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوما ، فكان مجموع أيام الراحة في السنة تسعين (٦٧) . وحرمت الاضرابات ، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم ، وقد سجن بعض العمال في روشفور لأنهم شكوا ضالة أجورهم . ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال ، وارتفعت موارد الدولة ، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها في العصور الوسطى (٦٨) . لقد أخضعت فرنسا للنظام الصارم في الصناعة كما أخضعت في الحرب .

أما في مجال التجارة ، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة في جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغي أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتي داخل الأمة . وأنه ما دام الذهب والفضة عظيمي القيمة بوصفهما وسيطين في المبادلة ، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تسكفل للامة « توازنا تجاريا في صالحها » أي زيادة في الصادرات على الواردات ، ومن ثم تدفقا للفضة والذهب إلى البلاد . وهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا ، وأنجلترا ، والأقاليم المتحدة - وكلها لم تكن تربتها تحوى ذهباً ، أن تحصل على حاجتها ، وأن تمون جيوشها من الحرب . وهذه هي « المركنتلية » mercantilism . ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها ، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها في عصر كثير الحروب . ولقد طبقت على الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التي كانت في العصور الوسطى تطبق على السكوميون . ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل السكوميون وحدة الإنتاج والحكم . إذن فبمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمسكينا لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها في الأسواق الأجنبية . وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد ، ويجب أن يكون جزاء أرباب العمل وفيرا

حفزاً لهم على الاضطلاع بالمشروعات الصناعية لمنع السلع ، لاسباب السكاليات ،
التي لا تنفع لها في الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء طائد
كبير ، ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة لإغراء للمقاولين باقتراض
رأس المال . وهكذا نرى طبيعة التنافس التي قطر عليها الإنسان ، في تلك
الغابة التي لا تخضع لقانون والتي تصطرع فيها الدول ، قد كيفت اقتصادها
الوطني وفق فرص الحرب وحاجاتها . فالسلام ليس إلا حرباً بوسائل أخرى .
إذن فوظيفة التجارة في رأى كولبير (بل في رأى صلي وريليليو
وكر وموبل أيضاً) تصدير السلع المصنوعة نظير المعادن النفيس أو الخيامات .
ومن ثم نراه في ١٦٦٤ ، ثم في ١٦٦٧ ، يرفع الرسوم على الواردات التي
هددت بأن تنافس في فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية
في الحرب ، فلما استمر جلب هذه الواردات حظرها بقتا . وفرض رسوم
تصدير باهظة على المواد الضرورية ، ولكنه خفض الضريبة على تصدير
السكاليات .

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية . وقد وجد أن
التجارة الفرنسية تعترض سيرها المعوقات من الحواجز والتعريفات الإقليمية
والبلدية والعربية . من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش ، أو من
سويسرة إلى باريس ، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة ، ومن
أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين . وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس .
يوم كان كل إقليم يطمح إلى الاكتفاء الذاتي ويجاهد في حماية صناعاته ،
وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعي أو تنازع
الكومونات . أما وقد توحدت فرنسا سياسياً الآن ، فقد غدت هذه
المكوس الداخلية عقبة كثرودا في طريق الاقتصاد القومي وحاول كولبير
بمرسوم أسدره في ١٦٦٤ أن يلغى جميع المكوس الداخلية . ولكن للقائمة
كانت غنيمة ، ففي نصف فرنسا استمرت المكوس ، وظل بعضها إلى عهد
الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة . وكاد كولبير أن يقضى على

الجهد الذى بذله لتوسع التجارى بإصداره القوائم المعقدة التى استهدفت اصلاح مافسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحيانا . قال (هو أو أحد نقاده) « أن الحرية روح التجارة ، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم » .

(Il faut Laisser faire les hommes) (٦٩) ، هنا عبارة قدر لها أن

تصنع التاريخ .

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلى . فبدأ مجموعة من الطرق الرئيسية للملكية ، وكانت حرية فى هدفها الأول : ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة . كان السفر بالبر لا يزال شاقا بطيئا . مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام فى رحلة بالمركة من باريس إلى ضيعتها فى فيترى بريتانى . وبناء على اقتراح من بيربول دريكيه ، استخدم كولبير اثني عشر ألف رجل فى حفر قناة لا مجدوك الكبرى ، التى بلغ طولها ١٦٧ ميلا ، وارتفعت أحيانا إلى ٨٣٠ قدما فوق سطح البحر ، ولم يحل عام ١٦٨١ إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج بسكاي عن طريق الرون والقناة . والجارون ، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا .

وكان كولبير ينظر بين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الآلاف العشرين التى تخترع الباب ، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستائة . ومن ثم ببى شيئا فشيئا البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها ٢٧٠ بعد أن كانت لا تتجاوز العشرين ، وأصلح للرافى . وأحواض السفن ، وألزم الرجال فى غير هواة بالانخراط فى سلك البحرية ، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بجزر الهند الغربية ، والشرقية ، وبحر المشرق ، والبحار الشمالية . ومنح هذه الشركات امتيازات الحماية ، ولكن هنا أيضا عطلتها القوائم التى فرضها عليها تعطيلها مدمرا . ومع ذلك نمت التجارة الخارجية ، ونافست البضائع الفرنسية للمنتجات الهولندية أو الإنجليزية فى البحر الكاريبى ، والشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى . وغدت مارسيليا

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ما أصابها من اضطعلال لقلة السفن الفرنسية . وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير (١٦٨١) قانونا بحريا للسفن والتجارة الفرنسيةين ، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقتنه . ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار . وبارك اشتراك فرنسا في تجارة الرقيق ، ولكنه جاهد ليلاطف من قسوتها باللوائح الرحيمة (٧٠) .

وقد شجع الارتياد الجغرافى وإنشاء المستعمرات ، أملا فى أن يبيعها السلع المصنوعة نظير خاماتها ، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع فى الحرب . وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلا فى كندا ، وغرب أفريقيا ، وجزر الهند الغربية ، وفى طريقهم إلى داخل مدغشقر ، والهند ، وسيلان . وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى (١٦٧١ — ٧٣) . وأسس كاديلاك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت . واستكشف لاسال المسبى فى ١٦٧٢ (بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق فى الأقاليم التى يفتحها) ، وهبط فيه فى مركب هزيل ، فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات . واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك . فسيطرت فرنسا على وادى سانت لورنس والمسبى فى قلب أمريكا الشمالية .

جملة القول — ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير ، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده فى سبيل العلم والأدب والفن — أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم ماسجله التاريخ تفانيا فى العمل وسعة فى الإلتفات . فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهبا واحدا مثل ذهنه صنع من جديد على هذا النحو دولة بهذه العظيمة فى نواح هذه البكرة . صحيح أن هذه اللوائح والنظم كانت مزعجة ، وقد نفرت الناس من كولبير ، ولكنها شككت القالب الاقتصادى لفرنسا الحديثة . ولم يقل نابليون أكثر من بواجبة جهود

كولبير ومراجعتها سواء في الحكم أو القانون . وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء ما لم تعرفه من قبل . ثم انحسر هذا الثراء لميوب النظام وأخطاء الملك . وقد احتج كولبير على أسراف الملك والبلاط ، وعلى آفة الحرب التي كانت تنحرف في جسد فرنسا في شيخوخته ، ولكن التعاريف العالية التي فرضها ، شأنها في هذا شأن ولع لويس بالسطوة والمجد — هي التي التي أفضت إلى بعض هذه الحروب . وندد غرماء فرنسا البحريون بإفقال موانئها في وجه بضائهم . ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء إصلاحات كولبير ، بل أن رجال الأعمال الذين أنزتهم هذه الإصلاحات اتهموه بأن لوائهم عوقت التطور . قال أحدهم للوزير « لقد وجدت العربة مقلوبة على أحد جنبها ، فقلبتها على الآخر » (٧١) فلما مات (في سبتمبر ١٦٨٣) رجلا محطما مهزوما ، اضطر ذووه إلى دفن جثمانه ليلا مخافة أن يسبه الناس في الشوارع (٧٢) .

٥ - الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحطة . وكان اللباس شعيرة للركز الاجتماعي . فهو في أوساط القوم غاية في البساطة — سكرة سوداء تغطي في تواضع القميص والسراويل والسيقان . أما في الصفوة فهو بهي فاخر ، وهو في الرجال أبهى وأفخر منه في النساء . فكانت القبعات كبيرة لينة ، لها حاشية عريضة مزركشة بمجديلة من ذهب ، تمال إلى أعلى في جانب أو ثلاثة جوانب ، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدني . وحين ارتقى لويس العرش نبذ — ونبذ من بعده البلاط — تلك الباروكات التي أشاع زيها أبوه الأصلع ، فقد كانت تلافيف شعر الملك الشاب الكسستاني أروع وأبهى من أن تخبأ ، ولكن حين بدأ شعره ينجل بعد ١٦٧٠ ، اتخذ الشعر للستار ، وما لبث أن توج كل رأس — أيا كان طموح حامله — وسواء في فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا ، بمقوس مستعارة مبدرة تسدل

إلى السكتفين أو ما تحتهما، وتجعل كل الرجال يبدون سواسية إلا لضعائهم.
أما الأذى فحلفت ، وأما الفوارب فاحتفل بها ، ومدت القفازات إلى ما فوق
الرسغ وزينت ، وارتدى الجنسان فراء اليمين في الجو البارد . واستعيض
عن طوق الرقبة المكشكش المالى بلفاف حربرى يعقد هينا حول العنق .
وأخذ يحمل حمل الصدر ثوب طويل مزخرف ، وزين الفخذان بسرويل
« كيلوت » تمتد إلى الركبتين وتقل بمشابك أو تعقد بأشرطة عندهما ،
ثم تغطي هذه الثياب — إلا من أمام — بسترة ملتفة تنتهى أكامها
بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدتلا . واحتص القانون النبلاء
بتحلية ثيابهم بوشى من الذهب أو بالأحجار الكريمة ، ولكن ذوى
اليسار من أى طبقة نجاهلوا هذا القانون . أما الجوارب الطويلة فكانت مادة
من الحرير ، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى
لحافات الرقص .

أما النساء المهنات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتفق وفضائلهن .
وكانت صدارتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج في
كتاب رابليه ، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة . وأما التنورة
المطوقة والأكام المنفوخة فولت مع ريشليو . وحفقت الأرواب بالتطريز
والألوان المشرقة ، وكست الأحذية العالية المبهجة الأقدام المتعبة ، وربط
الشعر بالأشرطة ، ورصع ، وعطر ، وجعد ، فى تألق . . وظهرت أولى
مجلات الأزياء فى ١٦٧٢ .

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والنفخامة ، وأن بقيت جلافات
كثيرة تحت أبهة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار . فكان الرجال
يصبقون على أرض الحجر ، ويبولون على سلم الوفور^(٣٣) وقد ينقلب للأزاح
وحفيا أو بذيثا . ولكن الحديث كان زشيقا مهذبا ، وكوفاز حول
الفسولوجيا والجنس . وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

والحديث ، قيتكلمون في عبارة واضحة سليمة ، ويتنكبون الحشو والخذلة ، ويتناولون جميع الموضوعات مهما اشد عمقها بمرح خفيف روحا وعبارة . وكان الاحتداد في الجدل من سوء الأدب . وأما آداب المائدة فأخذت تتحسن . كان الملك يأكل بأصابه طوال حياته ، ولكن استعمال الشوك كان قد راج . وشاع استعمال نحو ١٦٦٠ فوطة للمائدة . ولم يعد من المستساغ أن يسمح الضيوف أصابعهم في غطاء المائدة .

أما الفضائل الإجتماعية فلم تكن ممتازة في هذا العصر — عصر الاتيكت والبروتوكول . وتضائل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا . وكانت الأخلاق أسلم ما تكون في الطبقات الوسطى حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك ، وحفزته الرغبة في الارتقاء . وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو L'honnête homme وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين ، بل الرجل الشريف ، الذي يجمع بين كرم النشأة والعادات وبين حسن السلوك . أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان . فقد استشرت الرشوة في المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسيه الملصكي ، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدرا من مصادر إيراد الدولة . وانبعث الجريمة من جشع الأغنياء ، وفقر الفقراء ، والتفجرات الغاضبة في جميع الطبقات . وآية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوازان أو المركيزة برانفلييه ، وكاتهما حذفتم تحضير السموم الطويلة المفعول ، وشاع القتل بالسم شيوعا اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل في قضاياها^(٧٤) . أما كاترين مونفوازان فقد مارست الطب ، والتوليد ، والسحر ، وساعدت كاهنا مرتدأ في توتيل « القداس الأسود » القماسة لمعونة الشيطان ، وكانت تدبر اجهاض النساء وتبيع السموم وأشرية الغرام . ومن زبائنها أوليمب مانتشيني ، ابنة أخت مازاران ، والسكونتيسة جرامون ، ومدام دمونتيسبان خلية الملك وفي ١٦٧٩ غصت لجنة نشاط «لافوازان» . ووجدت الأدلة على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد النخبة ، الأمر

الذى حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق (٧٥) . وأحرقت لانوازان حية (١٦٨٠) .

ويدخل في أخلاق الأفراد انحراقاتهم العادية . وقد نص القانون على عقاب اللواط بالإعدام ، وما كانت أمة تتخذ أهبثها للحرب ، وتدفع الإهانات على الأطفال ، لتسمح بانحراف الفرائز الجنسية عن جادة الإنسال ، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة في وقت كان فيه شقيق الملك لوطيا يشار إليه بالبنان ، يأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونا فوق القانون . أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف رومانسى من أعباء الزواج ، لامبر يدعو الزواج . وقد رأوا أن اقتناء الثروة . أو حمايتها ، أو نقلها ، أهم في الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر . ولما كانت معظم زيجات الطبقة الارستقراطية لا تعدو أن تكون ترتيبات لتنظيم الملكية ، فإن المجتمع الفرنسي أغضى عن التمسرى ، فكان لكل قادر تقريبا خلية ، وكاد الرجال يفاخرون بغرامياتهم مفاخرتهم بمعاركهم الحربية . أما المرأة فتشعر أنها مهجورة ، ونبوذة إذا لم يلاحقها من الرجال سوى زوجها ، وكان بعض الخائنين من الأزواج يفضون عن خيانات زوجاتهم . يقول شخص في مسرحية لموايير : « أفى الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه في هذا البلد (١٧٦) ؟ » في هذا المناخ السكبي نشأت أمثال لاروشفوكو . وكان القوم يحتمقون البغاء إذا تجرد من الكياسة ، ولكن امرأة كنيون دلاسلكو ، جملة بالأدب والظرف ، استطاعت أن تحظى بشهرة تدانى شهرة الملك .

كان أبوها نبلا حصر الفكر ، ومبارزا بارما . وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة ، ولكنها (إذا صدقنا ابنتها) « مجردة من مشاعر الحس وقد ولدت ثلاثة أطفال وهي لا تكاد تلحظ الأمر (٧٧) » . ومع أن ينون لم يتبع لها التعليم المنهجى ، فإنها التقطت من المصارف قدرا

لا يستهان به ، فتعلمت الكلام بالإيطالية والأسبانية ، ربما لتستعين بهما في هذه التجارة الدولية ، وقرأت مونتيني وشارون ، بل قرأت ديكرت ، وأخذت عن أبيها تشككه . وقد جعلت مناقشتها حول الدين في فترة لاحقة مدام دسفينيه ترتعد (٧٨) . قالت نينون « إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك في هذه الدنيا كما ينبغي ، فذلك علامة إما على ضيق عقله ، أو على فساد قلبه » (٧٩) . وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريباً ، ولكنها بدلا من هذا انزلت إلى البغاء وهي لا تتجاوز الخامسة عشرة (١٦٣٥) . وقالت في استهتار « إن الحب عاطفة لا تنطوي على أى التزام خلقى » (٨٠) ، فلما خلعت العذار وجبرت بفوضاها الجنسية ، أمرت آن المساوية بحبسها في دير للنساء . وروى أنها فتن راهبات الدير بظرفها وحيويتها ، واستمتعت بحبسها كأنها فرصة للاستجمام . وفي ١٦٥٧ أفرج عنها بأمر الملك .

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيراً من مجرد المحظية ، حتى إنها سرعان ما ضمت إلى لعيف المعجبين بها عدداً كبيراً من أبرز الرجال في فرنسا ، ومنهم نفر من الحاشية (٨١) ، من الملحن لولى إلى كونديه العظيم ذاته . وكانت تحميد العزف على الهاربسيكورد ، وتحسن الغناء ، يقصدها لولى ليحرب ألحانه الجديدة . وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل سفينيه - زوج كاتبة الرسائل اللطيفة ، وابنها ، وحفيدها (٨٢) . وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتمسون ودها . قالت « لم يتشاجر على عشاق قط ، فقد كانوا يشقون في قلبي ، وكان كل منهم ينتظر دوره » (٨٣) .

وفي ١٦٥٧ افتتحت صالونها ، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب ، وأحياناً زوجاتهم ، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقل عن ذكاء أى امرأة في جيلها أو ذكاء أكثر الرجال ، فلقد طالهم فيها عقل مينيرفا من خلف وجه فينوس . يقول فيها قاض صارم هو سيافى - سيغون :

٤ - قصة الحضارة

« كان من المفيد لإنسان أن تستقبله في جالونها نظراً إلى الاتصالات التي يكونها من هذا الطريق . ولم يدر في جالونها أى لعب للقمار ، ولا ضحك عال ، ولا مجادلات ، ولا حديث في الدين أو السياسة ، بل دار الكثير من الحديث الذكي الرشيق .. وأنباء الغرام ، والسكن دون فضح أو تشهير . كان كله حديثاً مهذباً خفيفاً محسباً ، وكانت هي نفسها تغذو الحديث بذكاها وعلها الغزير (٨٤) » .

وأخيراً أثارت فضول الملك نفسه ، فطلب إلى مدام دمانتينون أن تدعوها إلى القصر ، واستمع إليها من وراء ستار ، فافتتن بها ، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها . وكانت في هذه الفترة (١٦٧٧ ؟) قد كسبت ما يشبه الاحترام ، وخلصت عليها أمانتها البسيطة وأيادها الكثيرة سمحة أشرف ، فكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين ، واثقين دائماً من إمكان استردادها حين يشاءون ، ولاحظت باريس كيف كانت يبنون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريباً حين أقعده الشلل ، وكيف كانت تأتيه بأطياب الطعام التي يعجز عن دفع ثمنها .

ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً ، حتى سأت إفريمون التسعيني ، الذي كانت رسائله التي يبعث بها من إنجلترا عزاء لهيخوختها . كتبت له تقول : « أحياناً أضيّق بعمل نفس الأشياء دائماً ، ويمعجني السويسريون الذين يلقون بأنفسهم في النهر لهذا السبب (٨٥) » . وكانت تضيق بالتجاعيد . « إذا كان لزاماً أن يبتلى الله المرأة بالفضون ، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها (٨٦) » . فلما دنت منيتها ، تنافس اليسوعيون والجانسينيون على شرف هدايتها للإيمان ، فاستسلمت لهم في لطف ، وماتت في أحضان الكنيسة (١٧٠٥) (٨٧) . ولم تترك في وصيتها سوى عشرة إيكوات لجنازتها ، حتى تكون أبسط ما يستطاع ، ولكن « أطلب في تواضع إلى المسيو آرويه » — وهو وكيلها — « أن يسمح لي بأن أترك لابنه ، الذي

يتلقى العلم عند اليسوعيين ، ألف غرنك ليشتري بها كتيباً (٨٨) . واشترى الابن الكتب ، وقرأها ، وأصبح فولتير .

إن أروع السحر الذي توج هامة المجتمع الفرنسي هو أن حافظ الجنس امتد إلى الذهن ، وأن النساء تنهن ليضفن الذكاء إلى الجمال . وأن الرجال يروهن النساء على السلوك المؤدب ، والذوق السليم ، والحديث المهدب ، وفي هذا كان القرن (الممتد من ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠) في فرنسا أوج الحضارة . في ذلك المجتمع كثرت النساء الذكيات كثرة لم تعهد من قبل ، فإذا جعن إلى الذكاء فتنة الوجه أو الجسد ، أو سحر الاهتمام الناشئ عن الرقة واللفظ ، أصبحن قوة تهذيب عارمة . وكانت الصالونات تدرب الرجال على الحساسية لرقة الأنثى ، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر . وفي هذه اللقاءات طور فن الحديث حتى بلغ شأواً لم يبلغه من قبل ولا من بعد — فن تبادل الأفكار دون مغالاة أو خصومة ، بل في جمالة ، وتسامح ، ووضوح ، وخفة ، ورشاقة . ولعل هذا الفن كان أقرب إلى السكال في عهد لويس الرابع عشر منه في أيام فولتير — أقل ألمعية وظرفاً ، ولكن أكثر مادة ومودة . كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول « بعد الغداء مضينا إلى السمر في ألفة غابات الدنيا ، وظللنا هناك إلى السادسة ، مشغلين بمختلف ألوان الحديث ، البالغ العطف ، والرقة ، واللفظ ، والكرم ، بما مس شغاف قلبي (٨٩) » وقد عزا كثير من الرجال الفضل في تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا التبادل والاتصال الاجتماعي بين الجنسين (٩٠) .

وفي العرفة الزرقاء بالأوتيل درامبويه كان أول الصالونات يسطج بهائه الأخير . أمه كوندية وإن لم يلعب فيه ، وأمه كورنير ، ولاروشفوكو ، والسيدتان لافايت ودسفينيه ، ودوقة لونجفيل ، والجرائد مدموازيل . هناك أرست النساء للتحدث لقات *les femmes précieuses* قواعد السلوك الدقيق والحديث المصقول . ولكن حرب الغرور بد قطعت هذه الإقامات ، ورحلت مدام درامبويه إلى الريف ، ومع أن «أوتيلها» (قصرها) فتج بعد

ذلك أبوابه ثانية لمبقرى فرنسا (موليير) ، فإن باكورة تمثيلاته
Les Précieuses ridicules (للمتعضلات المضحكات) (١٦٥٩) كانت ضربة
قاسية عليه . وطوى أول الصالونات المشهورة بموت مؤسسته في ١٦٦٥ .

وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى ، في بيوت السيدات دلا
سابليير ، ودلامير ، ودسكوديرى — وآخرهن أشهر كتاب الرواية في
هذا العصر ، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء ،
والفلك ، والرياضة ، والفلسفة . في صالونات كهذه زكت النساء العالمات
femmes savantes اللاتي أثرن سخرية موليير في ١٦٧٢ . ولكن كل
هجاء ليس إلا نصف الحقيقة ، ولعل موليير في لحظاته الفلسفية كان يقرب بحق
النساء في أن يشاركن في حياة جيلهن الفكرية . ففساء فرنسا ، أكثر حتى .
من كتابها وفنائها ، هن تاج حضارتها ، والمفخرة العظمى لتاريخها .

٦ - بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا . وفي ١٦٦٤ كان البلاط يضم
نحو ستمائى شخص : الأسرة المالكة ، وكبار النبلاء ، والمبعوثين الأجانب ،
والخدم والحشم . وقد زاد العدد في أوج اكتمال فرساي إلى عشرة آلاف
من الأنفس (٩١) ، ولكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلغوا إلى القصر
بين الحين والحين ، وجميع المرفهين والأتباع ، والفنانين والمؤلفين الذين وقع
عليهم اختيار الملك ليكافئهم . وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تقوقها
غير شهوة الطعام والجنس ، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة .
لا تنسى ، جديرة بأن يبذل في سبيلها نصف مدخرات العمر .

وبعض السر في بهاء البلاط كان في الأثاث المترف التي ازدادت به الغرف ،
وبعضه في لباس الحاشية ، وبعضه في حفلات الترفيه البالغة الفخامة ، وبعضه
في جمال النساء وصيت الرجال الذين اجتذبهم مريق المال ، والشهرة ، والسلطان .
ومن النساء الشهيرات — كالسيدتين دسفينيه ودلافايت — من لم يختلفن

إلى البلاط إلا نادرا لانحيازهن إلى قضية الفروند ، ولكن بقي منهن عندد يكفى لإبهاج ملك بالغ الحساسية لمفاتن المرأة . وتبدو المرأة في اللوحات التي وصلت إلينا من هذا العصر على شيء من البداية ، يبرز لها من صدرها ، ولكن من الواضح أن الرجال كان يمعنهم دفء الشحم واللحم فيمن يعشقون من النساء .

أما أخلاقيات البلاط فكانت الزنا المحتشم ، والإسراف في اللباس والقمار ، والدسائس العنيفة جريا وراء الصيت والمنصب ، وهذا كله يخطو على إيقاع من السلوك الخارجى الدمى ، والآداب الرشيق ، والمرح الإلزامى . وضرب الملك المثل في بدعة اللباس الغالى ، لا سيما في استقبالات السفراء ، فخرا وهو يستقبل مبعوثى سيام يرتدى عباءة موشاة بالذهب ومرصعة الأطراف بالماس ، بلغت تكاليفها ١٢٠٠٠٠٠ ر. ١٢٠٠٠٠٠ جنيه فرنسى (٩٢) ، ومثل هذا المظهر كان جزءا من سيكولوجية الحكم . وأقننى الأشراف ونسائهم نصف دخل ضياعهم في الثياب والخدم والأثاث ، وكان على أقلهم شأن أن يستخدم أحد عشر خادما ومركبتين ، أما الأثرياء فكان لهم من الاتباع خمسة وسبعون في بيوتهم ، ومن الخليل أربعون في مراتبهم (٩٣) . وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظورا ، ففدا لعب الورق للمقامرة أم ضروب الترفيه في البلاط . وهنا أيضا كان لويس القدوة لحاشيته ، فقامر بمبالغ كبيرة ، تستعنه إلى ذلك خليلته مونتسبان ، التي خسرت وكسبت أربعة ملايين من الفرنكات في لعب ليلة واحدة (٩٤) . وسرى هذا الهوس من البلاط إلى الشعب . كتب لارويير يقول : « إن الألوف يخربون بيوتهم بالقمار ، وهو لعبة رهيبية ... ينوى لاعبا القضاء المبرم على غريمه ، وينتشئ بشهوة الكسب (٩٥) » .

وقد أفضى التنافس على الخطوة عند الملك ، أو على وظيفة مجزية ، أو على مكان في القراش الملكى ، إلى جسو من الشبهات ، والافتراءات ، وتبادل الخصومات الحادة . قال لوفيس : « في كل مرة أعين إنسانا في وظيفة

شافرة ، أسخط مائة شخص ، وأجمل شخصاً ما كرا للجميل (٩٦) . وكان القوم يتشاحنون على أمكنة الصدارة في المائدة ، أو على القيام على خدمة الملك ، وحتى سنان — سيمون أقلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لكسمبور خمس خطوات في أحد اللواكب ، وقد اضطر لويس إلى نفي ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أمراء أجانب . وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول ، وقد عيس مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة ماعلا من اللقب تتقدم دوقة في مجلسها (٩٧) . ولا ريب في أن ضرباً من الترتيب المقرر كان ضرورياً لمنسج ستمائة من الأنفس المغرورة المزهوة بأسباب التشريف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض ، وقد أثني الزوار على ذلك المظهر المتسق الذي بدت فيه الحاشية الضخمة . ومن قصور الملك ، واستقبالاته ، وحفلات ترفيهه ، سرى دستور الإتيكيت ، ومعايير السلوك والدوق ، إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وأصبحت هذه كلها جزءاً من التراث الأوربي .

وأراد الملك أن يمنع الملل من أن يتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات ، ذلك الملل الذي قد يحمل البعض على قتل الملك ، غناط الفنانين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه — من مباريات بين الفرسان ، وزحلات صيد ، ومباريات تنس و بلياردو ، وجماعات سباحة أو زهرة في الزوارق ، وحفلات غداء أو عشاء ، ورقص وحفلات راقصة ، وحفلات تنسكية ، ومراقص باليه ، وأوبرات ، وحفلات موسيقية ، وتمثيليات . وبدت فرسانى وكأنهاجنة الله في أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية في القناة ، والأصوات والآلات تصدو بالموسيقى ، والمشاغل تعين القمر والنجوم على إضاءة المشهد . وهل في الدنيا أفخم ولا أكرم للأنفاس من حفلات الرقص الرسمية ، حين تمكس قاعة المرايا في مراياها المائلة رشاقة الرجال والنساء وخفتهم وهم ينظرون في رقصات فخمة تحت آلاف الأضواء ؟ لقد أراد الملك أن يحتفل بمولد ابنه البكر ، الدوقان .

(١٦٦٢) فأقام حفلة باليه في الميدان المنبسط أمام التويلرى ، حضرها خمسة عشر ألف شخص . وقد دمر كومون ١٨٧١ القصر ، ولكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى قصر كاروزل Carrousel (أى ساحة الرقص الدائرى السريع) .

لقد أحب لويس الرقص ، وأشاد به ، واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم (١٩٨) ، وأسس في باريس (١٦٦١) الأكاديمية الملكية للرقص . وكان يشارك بشخصه في رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه . وشغل الملحنون في بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه ، وهناك تطورت المتتالية التى حذق استخدامها بيرسيل في إنجلتره وآل باخ في ألمانيا . ولم يبلغ الرقص صوراً رشيقة متسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية .

وفي ١٦٤٥ استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا في باريس . وقطع موت الكردينال هذا الاستهلال ، ولكن حين شب الملك أنشأ أكاديمية الأوبرا (١٦٦٩) ، وكلف بيير بيران بتقديم أوبرات في عدة مدن فرنسية ، ابتداء من باريس في ١٦٧١ . فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه المسرف على المناظر والآلات ، نقل لويس « امتياز أكاديميات الموسيقى » إلى جان باتيست لولى Lully ، فالبث هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه .

وكان هو أيضاً هبة من هبات إيطاليا . فقد أتى به الشغالييه جيز صيبيا فلاحاً في السابعة من فلورنسة إلى فرنسا في ١٦٤٦ ، « هدية » لابنة أخته ، الجراند مدموازيل ، التى استخدمته في مطبخها مساعداً صغيراً (Soumarmon) . وهناك ضايق زملاءه الخدم بالتحزين على السكمان ، ولكن المدموازيل تبينت موهبته وأتته بعلم . وما لبث أن عزف في فرقة الموسيقى الملكية ذات الأربع والعشرين كماناً . واستلطفه لويس ، فأعطاه

مجموعة صغيرة من الموسيقيين يقودها . وبفضل هذا الأوركسترا الوتري الصغير تعلم القيادة والتلحين — للموسيقى الرقص ، والأغاني ، والسكان المنفرد والكنتاتات ، والموسيقى الكنسية ، ولثلاثين لحنا أوركستريا للباليه ، وعشرين أوبرا . وقد صادق مولير ، وتعاون معه في عدة باليهات ، ولحن فواصل موسيقية قهيرة لبعض تمثيليات مولير .

وكان نجاحه رجل بلاط يضارع انتصاراته موسيقيا . ففي ١٦٧٢ ، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان في الحصول على احتكار الأوبرا في باريس . وقد وجد في فيليب كينو Outnault مؤلفا لسكلمات الأوبرا وشاعرا أيضا . فأخرجها معا سلسلة من الأوبرات كانت ثورة في الموسيقى الفرنسية . ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط في فرساي ، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذي بنى من قبل اللوى في شارع سانت — أونوريه ، واجتذبتهم في كثرة جعلت الشوارع تحتنق بالمركبات ، فاضطر الرواد في كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام ، وفي الوحل غالبا ، خشية أن يفوتهم الفصل الأول ، وقد استهجن بوالو الأوبرا زاعما أنها ضرب من التخفث المضعف (١٩) ، ولكن الملك منحه أكاديمية الموسيقى مرسوما (١٦٧٢) ، وأذن له « سادة والسيدات بالغناء في عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون في ذلك غض » من أقدارهم (١٠٠) . ورفع لويس لوى إلى مقام النبالة سكرتيراً للملك ، وشكرا سكرتيرون آخرون من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى ، ولكن لويس قال للوى ، « لقد شرفتهم لم لأنت بوضعي صقرياً بين زمرةم (١٠١) . » . وحالف التوفيق لوى في كل شيء حتى ١٦٨٧ ، حين ضرب قدمه صدقة — وهو يقود فرقته — بعضا القيادة ، وأساء طبيب دجال علاج جرحه ، فتمفن ، ومات المؤلف الفوار في الثامنة والأربعين . ومازالت الأوبرا الفرنسية تشعر بتأثيره إلى اليوم .

بقى اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهد الفخم ، وهو اسم أسرة كوبران ، التي كانت مثلاً آخر على الوراثة في الفن ، والتي أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان ، واحتسرت من ١٦٥٠ إلى ١٨٢٦ الأرغن العظيم في كنيسة سان جرفيه ، وقد شغل فرنسوا كوبران « الكبير » ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً ، كذلك كان « عازف أرغن الملك » في كنيسة الملك الصغيرة بفرساي ، وكان أشهر عازفي الهاربسيكورد في ذلك « القرن العظيم » . وقد درس يوهان سبستيان باخ ألحانه التي وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة ، وأثر البحث الذي وضعه باسم *L'art de toucher le clavecin* (وهو الاسم الفرنسي لمقابله الانجليزي Clavichord) في بحث ذلك الألماني العظيم المسمى « الكلافير المعتدل » ... ترى ، أكانت للوسيقى في دم آل كوبران ، أم في بيتهم فقط ، لعل الوراثة الاجتماعية ، لا البيولوجية ، هي التي تصنع الحضارة .

٧ — نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر ، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن في معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هذا ، أن العرف اقتضاهم أن يضعوا يمولهم الشخصية ليعقدوا زيجات تجلب منفعة سياسية للدولة ، ومن ثم كان المجتمع — والكنيسة أحياناً كثيرة — يفضيان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام بعيداً عن الرباط الزوجي . ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزواج حب ، فقد استمواه جمال ماري مانشيني ابنة أخت مازاران ، وظرفها ، فرجاً أمه والسكر، دهنال أن يسمح له بالزواج منها (١٦٥٨) ، ولكن آن النسائية وبخته لانه سمح للعاطفة بأن تتدخل في شئون السياسة ، أما مازاران فقد أبعد ماري آسفاً للزواج رجلاً من آل كولونا ، ثم راح الوزير الداخلي يستخدم نفوذه الخفي ليحصل على

عروس لويس هي ماريا تريزا ، ابنة فيليب الرابع . أفليس من الجائز ، إذله انقطع نسل الذكور في الملوك الأسبان ، أن تأتي هذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا ؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا في ١٦٦٠ ، وكلاهما في الثانية والعشرين ، في كل البهاء والبذخ الذي سحر دافعى الضرائب .

أما مارى تريز فكانت امرأة متكبرة ، ورعة فاضلة ، وقد أطاعت قدوتها ونفوذها على إصلاح أخلاقيات البلاط ، على الأقل بين حاشيتها ، ولكن النظام الصارم الذى نفذت عليه جعلها مكتئبة متبلدة ، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجماً في الوقت الذى ترمق فيه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أحجبت له ستة أطفال ، لم يتجاوز الطفولة منهم غير واحد هو الدوفن ، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس ، في نفس سنة زواجهما ، في زوجة أخيه هنرييتا آن ، جميع المفاتيح التى تجمل الأنوثة الغضة .

أما هنرييتا هذه فهى ابنة تشارلز الأول ملك إنجلترا ، وكانت أمها هنريتا ماريا « ابنة هنرى الرابع ملك فرنسا » قد قاسمت زوجها مأساة الحرب الأهلية ، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشارلز في أكسفورد ، فرت ملكة إنجلترا إلى أكستر ، وهناك ، حين اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت ، ولدت (١٦٤٤) « أميرة صغيرة جميلة » . وراح أعوان البرلمان يتمقبون الأم المريضة ، وفرت ثانیسة ، وتسالت إلى ساحل البحر ، حيث استقلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهد من المدافع الانجليزية . أما الطفلة التى تركتها أمها في رعاية الليدى آن دولسكيت ، فقد عاشت عامين في مخبئها بإنجلترا قبل أن تهرب هى أيضاً عبر المانش في

(١) روت مدام ديمونسيان . التى لم تخل من تحيز في مذكراتها ، كيف أهدى أمير أفريقى قزماً زنجياً للمارى ، وكيف ولدت مارى « بنتاً جميلة صبيحة الجسم ، سوداء من قرة رأسها إلى أخمص قدمها » وهزت الملكة هذا اللون إلى خوفها من القزم خلال جلها ، وأذاعت « غاريت » باريس أن الفتاة ماتت عقب ولادتها ، ولكن يبدو أنها عاشت ، وربتها أسرة ملونه ، وأصبحت راهبة . (١٠٧)

أمان ، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التي جاءت بها حرب الفروند . ففي يناير ١٦٤٠ شاركت أمها وآن النمساوية في هروبهما من باريس المملوءة بالمتاريس إلى سان — جرمان ، وفي ذلك الشهر جاء نبأ — أخفى عنها ولا ريب حيناً — بأن أباهما ضرب عنقه أنصار كرومويل « ذوو الرءوس المستديرة » المنتصرون فلما خفت خدة الفروند ، قامت أم الأميرة هنرييتا على تريبتها في جو من الدعة والتقوى ، وعاشت كلتاهما حتى رأتا تشارل الثاني يرد إلى العرش الإنجليزي (١٦٦٠) ، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة ، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر ، « مسيو » فيليب دوق أورليان ، وأصبحت تلقب بالـ « مدام » .

أما « المسيو » فكان رجلاً قصيراً مكور البطن ، يلبس حذاءً عالياً ، ولوعاً بحلى الأنثى ، وأجساد الذكور ، شجاعاً كأي فارس في ساحة الوغى . ولكنه مزوق ، معطر ، موشح ، مرصع بالجواهر كأشد النساء غروراً ، في هذا البلد الذي كان أكثر بلاد الله غروراً . وقد أحزن هنرييتا وأخجلها أن ترى زوجها يؤثر على محبتها صحبة شفالبيه اللورين ، وشفالبيه شاتيون . ووقع في غرامها كل إنسان تقريباً ، لا لجمالها المش فشب — مع أنها عدت أجمل مخلوق في البلاط (١٠٣) — ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لروحها الرقيقة اللطيفة ، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم . وللنسيم النضر المنعش الذي حملته أينما ذهبت ، وقد وصفها راسين بـ « الحكيم في كل جميل (١٠٤) » — وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة .

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تسيغها فتوته وذوقه ، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما في خلقها من « حلالة وضياء » (١٠٥) استشعر المتعة المتزايدة في وجودها ، وأبهجه أن يراقصها ويمارحها ، ويدبر الألعاب معها ، ويصاحبها في العشى في البستان في فونتنبلو.

أورسكوب الورق في القنائة ، حتى زعمت باريس كلها أنها غدت خليلته ، ورأت في هذا انتقاما عادلا من « ملك سدوم » (١٠٦) ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم . فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبها ، أما هي ، التي بذلت إخلاصها في الحب لأخويها تشارلز وجيمس ، فقد قبلت الملك أخا آخر ، واتخذت من ربط الثلاثة جميعا برباط التحالف أو المودة رسالة لها في الحياة .

ففي سنة ١٦٧٠ ، وببناء على طلب لويس ، عبرت المانش إلى إنجلترا لتقنع تشارلز بالانضمام إلى فرنسا ضد هولندية ، لا بل لتحضه على الجهر بكتلكته . وقد وعد بهذا في معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) ، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكحلة بالنصر ، ولسكن مامضت أيام على وصولها إلى قصرها في سان - كلو حتى أصابها مرض شديد ، فظنت أنها مميتة ، وكذلك اعتقدت باريس كلها ، وهرع الملك والملكة إلى فراشها . وكذلك فعل « المسيو » النادم ، وكوندية ، وتورين ، ومدام دي لا فاييت ، ومدموازيل دموبانسييه ، وآتى بوسويه ليصلي معها ، وأخيرا في ٣٠ يونيو ، انتهى عذابها ، وكشف خص جنتها عن أن موتها لم يكن بالدم بل بالالتهاب البريتوني^(١٠٧) ، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الرهوس المتوجة ، وآلى بوسويه فوق جنازتها في كنيسة سان - دني عظة جنازية رجعت أصداءها القرون .

وهنرييتا هي التي أعطت للملك أولى خليلاته الأكثر علانية . وقد ولدت هذه المرأة ، واسمها لويز دي لا فالير ، في مدينة تور عام ١٦٤٤ ، وتلقت في إيمان مستسلم ذلك التعليم الديني الذي قامت عليه أمها وخالها الكاهن ، الذي أصبح فيما بعد أسقفا لنان ، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها ، فتزوجت أمها من جديد ، وكان الزوج رئيسا لخدم جاستون دوق أورليان ، فحصل للويز على وظيفه وصيفة لبنات الدوق ، فلما

مات جاستون ، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب ، أخذ لويز معه وصيفة شرف هنرييتا (١٦٦١) . وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة . وبهرها بهاؤه وسلطانه وسحر شخصيته ، فوقعت في غرامه كأوقعت عشرات النساء ، ولكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً .

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد ، كانت رقيقة الصحة وبها عرج خفيف ، « وليس لها صدر يؤبه به » على حد قول أحد ناقدتها ، وكانت نحيفة إلى حد نحيف ، ولكن ضعفها هذا كان في ذاته فتنة ، لأنه أورتها تواضعاً ودماثة في الطبع أسر الجميع حتى النساء ، ولقنت هنرييتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التي أرجفت بأنها هي ذاتها خليلته ، وأفلحت المخطئة فوق ما أرادت ، فقد جذبت لويس هذه الفتاة الخجول ذات السبعة عشر ربيعاً ، التي كان البون شاسعاً بينها وبين النبيلات المتفطرسات العدوانييات اللاتي يحطن به في بلاطه . وذات يوم وجدها وحيدة في حدائق فونتنبلو ، فقدم نفسه إليها ، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً . وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه ، ولكنها قاومت إلحافه طويلاً ، وناشدته ألا يحملها على خيانة هنرييتا والملكة ، ولكن ما وافى شهر أغسطس ١٦٦١ حتى كانت قد غدت خليلته ، لقد كان كل شيء يبدو حسناً مادام يرضى مشيئة الملك .

ثم وقع الملك بدوره في غرامها ، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا القرخ الخجول ، وخرجاً في نزوات خلوية كالأطفال ، ورقصاً في المراقص ، وطفراً مرحاً في حفلات الباليه ، وكانت إذا خرجت إلى جواره في الصيد تنسى ما في طبعها من إحجام وتردد ، وتركب في تهور واندفاع « فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها » (١٠٨) على حد قول الدوق دالنجيان . على أنها لم تستغل انتصارها ، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك في الدسائس ، وظلت متواضعة رغم زناها ، وكانت تمجّل من وضعها ، وقد تمذبت حين

قدمها الملك إلى الملكة ، وولدت له عدة أطفال ، مات اثنان منهم في تاريخ مبكر ، أما الطفلة الثالثة والرابعة ، اللذان تقررته شرعيتهما بمرسوم ملكي ، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا ، والمدموازيل دبلوا الرائعة الجمال . وخلال أزمنة الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجمل من وجهها تجتذب الملك ، ولم تحمل سنة ١٦٦٧ حتى تعلق قلبه بدمام دمونتسبان ، وبدأت لويز تفسر في التكفير عن آثامها بقضاء ما بقي من عمرها في دير للراهبات .

وأنس لويس هذا الميل فيها ، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقي ، وفسر في الحفاظ عليها في دنياء بخلع لقب الدوقية عليها ، ولكنه بين اشتغاله بحب دمونتسبان ، واستغراقه في الحرب ، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته ، أما هي فلم تأبه في البلاط بإنسان غيره . وفي ١٦٧١ تخلت عن ثروتها ، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب ، وتسللت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء ، وهربت إلى دير القديسة ماري — د — شاير ، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه ، وإذ كانت لا تزال عذراء غريبة بعقلها ، فقد ارتفعت أن تعود إلى البلاط . وظلت هناك ثلاث سنين أخرى ، ممزقة بين حبه للملك وشوقها للتطهر والسلام الدينيين ، وكانت تمارس في القصر تقشف الحياة الديرية ، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها ، ودخلت ديراً للراهبات السكرمليات الحافيات في شارع دانفير (١٦٧٤) ، وتسمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد ، وعاشت هناك في توبة الزهاد ما بقي لها من عمر طوال ستة وثلاثين عاماً ، قالت : « إن نفسي شديدة الفناء ، بالغة السكينة ، لأنني أعبد جود الإله » (١٠٩) .

أما خليفتها في الخطوة لدى الملك فلا تنظر من الناس بمثل هذا الفقران العام . فقد قدمت فرنسواز أتيناييس روتشوار البلاط في ١٦٦١ ، وخدمت الملكة وصيفة شرف ، وتزوجت المركز دمونتسبان (١٦٦٣) . ويزعم

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا ، أما الآخرين فاختارها (١١٠) .
وكان لها غداثر مجمدة شقراء مرصعة باللاآء ، وعينان أبيتان ناعستان ،
وشفتان شهوانيتان ، وثغر ضاحك ، ويدان ملاطفتان ، وبشرة في لون
الزنبق ونسيجه — كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون ، وكذلك
صورها هنرى جاسكار فى لوحة مشهورة . وكانت تقيّة ، تحفظ أيام الصوم
دون تهاون ، وتختلف إلى الكنيسة فى تعبد وتكرار ، لها طبع حاد وذكاء
بتار ، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدى .

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة على اقتناص
للملك (١١١) . ولكن سان - سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد
من سرعة نبض الملك رجّت زوجها فى أن يعود بها فوراً إلى بواتو (١١٢) .
ولكنه أبى ، واثقا من سلطانه عليها ، متعلقاً بعبير البلاط . وذات ليلة فى
كومبيين ، ذهب لتنام فى حجرة مخصصة عادة للملك . وحاول برهة أن ينام
فى حجرة مجاورة ، ولكنه وجد فى هذا مشقة ، وأخيراً استولى على حجرته
وعليها (١٦٦٧) . أما المركز فحين بلغه الأمر لبس ثوب الترميل ، وجلل
مركبته بالسواد ، وزين أركانها بالقرون . وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق
بين المركز والمركبة ، وأرسل إليه ١٠٠.٠٠٠ ايكو ، وأمره بالرحيل عن
باريس ، وابتسم البلاط الذى تجرد تماماً من الخلق الكريم .

وظلت مدام دمونتسبان محظية للملك سبعة عشر عاماً . وقد أعطت
لويس ما لم تستطع لافالير - أعطته الحديث الذكى والحيوية اللثيرة . وكانت
تفاخر بأنها هى وتبلىد الحس لا يمكن أن يجتمعا فى مكان واحد وزمان
واحد ، وهو قول صحيح . وقد أنجبت للملك ستة أطفال - أحبهم
وشكر لها صنيعها ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم إفراء النوم من حين إلى حين
مع مدام دسوييز أو مع الأنسة الشابة دسكوراى دىروسيل ، التى خلع عليها
لقب دوقة فونتايج . وقد حدث هذه الانحرافات بـمدام دمونتسبان إلى

التماس نصيحة للشموذات في أمر الأشربة السحريه أو غيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك ، ولكن القصة التي زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هي في أغلب الظن أسطورة روجها أعداؤها (١١٣) .

وقد جني عليها أطفالها . ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم ، وزكى لها بمضهم مدام سكارون ، فاستخدمتها ، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤيه أطفاله . أما مدام سكارون هذه ، واسمها قبل الزواج فرنسواز دوينيه ، فسكانت حفيذة تيودور أجريبا دوينيه ، المساعد الهيجونوتي لهنري الرابع ، وقد ولدت بسجن بنيور في بواتو ، حيث كان أبوها يقضى فترة من فترات سجنه الكثيرة عقابا له على جرائم مختلفة ، وصدت كاثوليكية ، وربيت بين القوضى والفقير الخيمين على أسرة منقسمة . وعطف عليها بعض البروتستانت وأطعموها وثبتوها في العقيدة البروتستانتية تثميما جعلها تولى ظهرها للمذبح الكاثوليكي . فلما بلغت التاسعة أخذها أبوها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذي أدبته به أمها . ومات الأب بعد عام (١٦٤٥) ، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا . وفي ١٦٤٩ أودعت فرنسواز ديلا للراهبات بعد أن عادت إلى الكاثوليكية ، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنثذ ، وتسكسب قوتها بأداء الأعمال الحقيمة . ولعلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون .

وأما بول هذا فكان كاتباً مشهوراً ، وظيفته لأمعاء مشلولا شللا كاد يكون تاما ، مشوها تشويها بشما . وإذ كان ابنالحام نابه ، فقد توقع النجاح في حياته العملية ، ولكن أباه الأرملة تزوج ثانية ، وبذت الزوجة الجديدة بول ، فلم يظفر من أبيه إلا بمعاش ضئيل لا يكفيه إلا للترفيه ليله عن ماريون ديلورم وغيرها من التبيلات . ثم أصيب بالهرى ، وأسلم نفسه لأحد الدجالين ، وتماطى العقاقير القوية التي أطلت جهازه العصبي . وأخيرا اشتد به الفل حتى كاد يصجزه إلا عن تحريك يديه . وقد وصف نفسه في هذم

العبارات : « سأصف لك نفسى أيها القارىء على قدر استطاعى . لقد كان جسمى حسن التكوين رغم قصر قامتى . ولكن العلة قصرتنى بقدم كامل . ورأسى أكبر قليلا مما يناسب جسمى . ووجهى ممتلئ ، أما جسدى فهيكلى عظمى . وبصرى لا بأس به ، ولكن عيني بارزتان ، وإحداهما منخفضة عن الأخرى . وقد كونت ساقى وفخذى أول الأمر زاوية منفرجة ، ثم قائمة ، وأخيرا حادة ، وتكون فخذى وجسمى زاوية حادة أخرى ، وانحناء رأسى فوق معدتى يجعلنى أقرب إلى حرف Z . وقد انكش ذراعى كما انكش ساقى ، وكذلك فعلت أصابعى . جملة القول أئنى خلاصة للتعاسة البشرية (١٤٤) » .

وقد نعى عن تعاسته تلك بتأليفه « رواية مضحكة » من متشرد (١٦٤٩) لقيت نجاحا كبيرا ، وبعرضه هزليات ساخرة صاخبة الفكاهة ، فاضحة النكتة . وأكرمه باريس لأنه احتفظ بمرجه وسط آلامه ، وأجرى عليه مازاران وآن النمساوية معاشين فقد الحق فيهما لتأييده للفروند ، كسب كثيرا ، وأنفق أكثر ، وتورط غير مرة فى الدين . وكان — وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعه — يرأس فى حيوية وعلم غزير صالونا من أشهر صالونات باريس . فلما تكاثرت ديونه ، كان يتقاضى ضيوفه بمن طعامهم ، ومع ذلك كانوا يأتون .

ترى من يتزوج رجلا كهذا ؟ فى سنة ١٦٥٢ ، كانت فرنسواز دويينيه التى بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإئفاق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات . وقدم صديق هذه الفتاة إلى سكارون ، فاستقبلها فى كرم مؤلم ، وعرض أن يدفع نفقات طعامها وسكنها فى الدير ، لكنى يعقبا من نذر الرهبة ، ولكنها أبت . وأخيرا عرض أن يتزوجها ، وأوضح لها بجلاء أنه لا يستطيع أن يطالبها بحقوق الزوج . فقبلته ، وخدمته ممرضة وسكرتيرة ، وقامت بدور للضيافة

٥ — قصة الحضارة

في صالونه ، وتظاهرت بأنها لا تسمع توريات الضيوف . وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك في الحديث . وقد خلعت على اجتماعات سكارون درجة من الاحترام كلفت لجذب الأنسة دسكودري ، ومدام دسفينيه بين آن وآخر ، وكان من زوار الصالون قبل ذلك نينون ، وجرامون ، وسانت — إفرمون . وفي رسائل نينون الماع إلى أن مدام سكارون لطفت من عذاب هذا الزواج البريء من الجنس بعلاقة غرام ، ولكن نينون ذكرت أيضاً أنها « كانت فاضلة لضعف عقلها . لقد أردت شفائها ، ولكنها كانت تحاف الله أكثر مما يجب (١١٥) » . وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس ، المتعطشة دون وعى منها لأمثلة لسلوك الكريم . ولما اشتد عليه شلله تيبست حتى أصابه وامتنعت حركتها ، فعجز عن أن يقلب صفحة أو يسك قلماً . فسكات تقرأ له ، وتكتب ما يعلمه عليها ، وتقوم على كل حاجاته . وقبل أن يموت (١٦٦٠) كتب قبريته التي قال فيها :

« إن الراقد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد ، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة . فيا أيها العابر لا يتحدث ضجيجاً ، وإياك إياك أن توقظه ، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون للمسكين . »

ولم يخلف لزوجته غير الدائنين . وألقت « الأرملة سكارون » في خضم الفقر مرة أخرى وهي بعد شابه في الخامسة والعشرين . واتهمت من الملكة الأم أن تجدد معاشها الذي ألغى ، فرتبت لها آن ألف جنيه في العام . واتخذت فرانسواز حجرة في دير ، وتواضعت في عيشها وملبسها ، وارتضت القيام بشئى المهام الصغيرة في البيوت الميسورة (١١٧) . وفي ١٦٦٧ أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهي على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيته . ورفضت فرانسواز ، ولكنها قبلت حين أيد لويس الطلب . وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور .

وتعلمت أن تحبهم ، وكانوا يرون فيها أما لهم ؛ أما الملك الذى ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها ، فقد انتهى إلى الإعجاب بها ، وأثر فيه ما بدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حجبها للتصل عليه . وقال إنها تعرف كيف تحب ، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبها (١١٨) . وفى ١٦٧٣ قررت شرعية الأطفال ، ولم يعد فرضا على مدام سكارون أن تتستر ، فقبلت فى البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان . ووهبها الملك ٢٠٠.٠٠٠ جنيه دعما لمركزها الجديد . فاشترت بالمال ضيعة فى مانتون قرب شارتر . ولم تعيش فيها قط ، ولكن الضيعة أعطتها لقباً جديداً ، وهو المركيزة دمانتون .

وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً ، ولعلها أدارت رأسها حينئذ . وآلت على نفسها أن تنصح مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإنم التى تحياها . وساءت النصيحة مونتسبان ، وظنت أن مانتون تأكيد لها للحلول محلها ، والحق أن لويس كان آثماً ، فى ١٦٥٧ ، قد أخذ يضيق بغضبات مونتسبان ، ويجد لذة فى التحدث إلى المركيزة الجديدة . ولعل الأسقف بوسويه ، بالتواطؤ مع الملك ، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة ما لم يطرد محظيته . فأمرها بأن تبرح القصر ، ففعلت ، وتناول لويس القربان ، وتعفف حينئذ واستحسن مدام دمانتون مسلكه ، دون أن يسكون لها قصد أمانى فيما يبدو (١١٩) ، لأنها رحلت بعد قليل مع صبي عليل (من أبناء مونتسبان) هو الدوق دمين تلمس له الشفاء فى حمامات باريج الكبرى بقرية باقليم البرانس . وانطلق لويس إلى حروبه ، ثم عاد وقد اشتد به الجوع ، وضرب بإنذار بوسويه عرض الحائط ، ودعا مونتسبان ليعود إلى جناحها فى فرساي . وهناك ارتضى بين ذراعيها المشتاقتين ، فقبلت ثانية .

أما مانتون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذى شفى مما ألم به ، ولكن راعها أن تراه غارقاً فى عدة علاقات

آئمة في وقت واحد . وفي ١٦٧٩ اختتم آثامه مع مونتسبان بتعيينها مشرفة على بيت الملكة — وكانت تلك إحدى القطاعات الكثيرة التي جرح بها شعور ماري تيريز . وثار مونتسبان وبكت ، ولكنه عزاها بالهبات السخية . وبعد عام تسلمت مانتنون وظيفته مماثلة — هي الوصيفة لمخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه) ، وكان الوحيد الباقي على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين . وكثير تردد الملك الآن على الدوفينه لتتحدث إلى مانتنون . وما من شك في أنه أراد أن يجعل للركيزة خلية له ، وأنها ردت عن نفسها — لا بل إنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويعود نائباً إلى الملكة (١٢٠) . فأذن لها ولبوسويه ، وفي ١٦٨١ ، وبعد عشرين عاماً من مغازلة النساء ، أصبح زوجاً مثالياً . أما الملكة التي ولدت نفسها منذ أمد بعيد على تقبل خياناته ، بل على تقبل خليلاته ، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لأمين فقط ، لأنها ماتت عام ١٦٨٣ .

وطن لويس أن مانتنون سترضى الآن بأن تكون خليلته ، ولكنها قابلته بصد لبق ، فهو الزواج وإلا فلا (١٢١) . وفي تاريخ لا يعرف على التحديد ، ولكنه على الأرجح في ١٦٨٤ ، تزوجها ، وكان في السابعة والأربعين ، وهي في الحسین . وكان ارتباطاً غير متكافئ ، لا بصيب الطرف الأدنى فيه أي رتبة جديدة ولا حقوق وراثية . ولقي مستشارو الملك عنقا في ثليه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتوحيها ملكة ، وذكروا له ما سيكون من تدمر الأسرة للملكة والحاشية إذا وجدوا أنهم ينحنون احتراماً لمربية . وعليه لم يعلن نبأ الزواج ، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط . أما سان — سيمون ، للتثبت أبداً بالنظام الطبقي ، فرأى أنه زواج غفيف (١٢٢) ، ولكنه كان خير رباط وأسمده للملك ، والوحيد الذي رعى عهده فيما يبدو . ولقد اقتضاه نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن في حب المرأة زوجها ما يكفيه عن غيرها من النساء .

٨ - الملك يمضى إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة في أوروبا . فالإمبراطورية أوهنها ما أصاب المانيا من إعياء وانقسام فضلا عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين . وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها في ثمانين عاما من الحرب العقيم التي خاضتها في الأراضي المنخفضة . وانجلترا ، بعد ١٦٩٠ ، ربطتها بمجلة فرنسا المعونات السرية للملكها . كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً منقسماً أصابه الضعف ، ولكن ما أتت سنة ١٦٦٧ حتى كانت جراح الفروند قد برئت ، وغدت فرنسا أمة موحدة . وقام أثناء ذلك رجال أفذاذ اضطلموا بإعادة بناء الجيوش الفرنسية ، كوفوا ، عبقرى التنظيم والضبط العسكريين ، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار ، وكالفائدين للغوارين كونديه وتورين . وبدأ الملك الشاب الذى يتملقه رجاله أن قد آن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية — وهى الراين ، والآلب ، والبرانس ، والبحر .

فليبدأ بالراين إذن . لقد كان الهولنديون يتسلطون عليه ، فلا بد إذن من إخضاعهم ، ثم ردهم بعد قليسل إلى العقيدة التى كانت حليفا للملوك طوال ألف عام . فإذا بسطت فرنسا سلطاتها على مصاب النهر العظيم الكثيرة دانت لها كل أرض الراين ، وبسطة سلطاتها على نصف التجارة الألمانية . ولكن الأراضي المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) تقف عقبة فى الطريق ، فلا بد إذن من فتحها . وكان فيليب الرابع عند موته فى ١٦٦٥ قد خلف الأراضي المنخفضة الأسبانية لشارل الثانى ، ولده من زواجه الثانى . ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه . فاستند إلى عرف قديم أخذت به أبناؤه وبرايات ، يقضى بتفضيل أبناء الزوجة الأولى فى الميراث على أبناء الثانية . وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى ، وبمقتضى حق الأبلولة أو الوراثة هذا — *Ius devolutionis* — ترث ماري تريز الأراضي

للنخفضة الأسبانية. صحيح ان ماري نزلت عند زواجها عن حقها في الوراثة ، ولكن هذا التخلي كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقها لفرنسا ، وهو ٥٠٠.٠٠٠ ر. ٥٠٠.٠٠٠ كراون ذهبي (١٢٣). وهذا الصداق لم يؤد ، إذن . . . ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطقي ، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأيلولة (الوراثة الأسبانية) . فلنترك مذكرات الملك لأعب الشطرنج هذا يميظ اللثام عن دوافعه :

« لقد أتاح لي موت ملك أسبانيا وحرب الأنجلين مع الهولنديين (١٦٦٥) في وقت واحد فرصتين هامتين لخوض الحرب : محاربة أسبانيا رسمياً وراء حقوق آل آل الى ، ومحاربة إنجلترا دفاعاً عن الهولنديين . . . وسرني أن أرى في لحظة هاتين الحربين ميداناً فسيحاً قد يتيح لي فرصاً عظيمة لتفوق . وكان الكثيرون من الرجال البواسل ، الذين آنت فيهم التفاني في خدمتي ، يتوسلون إلى على الدوام أن أهني لهم الفرصة لإظهار بسالتهم . . . يضاف إلى هذا أنني مادمت مضطراً على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير ، فإنه انفع لي ان ألقى به في الأراضي المنخفضة من أن أطمعه على حسابي . . . وتحت ستار الحرب مع إنجلترا أستطيع ترتيب قواتي وهيئة مخبراتي (أي جهاز الجاسوسية) لأبدأ مغامرتي في هولندة بنجاح أعظم (١٢٤) . »

تلك هي النظرة الملصكية إلى الحرب ، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة أو أكثر أمناً أو أوفر دخلاً ، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة ، وقد تتيح منصرفات للفرايز للتصارعة ، وقد تيسر للجيش الغالي النفقة أن يطعم على غذاء بلد أجنبي ، وقد تحسن موقف الدولة في الحرب القادمة . أما عن أرواح البشر التي ستعصدها الحرب ، فإن الناس لا بد أن يموتوا على أيا حال وما أسخف أن يموت الرجل حثف أنفه ، ويقضى بعلقة بطيئة طويلاً ، وأى ميته أفضل للرجال من الموت في خدار المعركة على ساحة المجد ، وفي سبيل الوطن ؟

وعليه ففي ٢٤ مايو ١٦٦٧ عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية . فلم تصادف مقاومة فعالة ، وكان عدد الفرنسيين ٥٥.٠٠٠ ر .

مقاتل ، والأسبان ٨٠٠٠ . وما لبث الملك أن دخل شارلوا ، وتورنيه ، وكورتريه ، ودويه ، وليل ، وكأ أنه يدخلها في موكب نصر ، وحصن فوبان المدن المفتوحة ، أما لوفوا فقد جهز المؤن في كل خطوة ؛ حتى الصحف الفضية للضباط في معسكراتهم أو خنادقهم . وضمت إلى فرنسا أرتوا ، وإينو ، وفلاندر الولوية ، واستغاثت أسبانيا بالامبراطور ليوبولد الأول ، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الامبراطورية الأسبانية فيما بينهما ، ووافق ليوبولد ، فأمسك أى معاوية عن أسبانيا . وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرائش — كونتيه أيضاً ، وهو الإقليم الواقع حول بزاسون ، بين برجنديّة وسويسرا . وكان ولاية تتبع أسبانيا ، ولكنه شوكة في جنب فرنسا . وفي فبراير ١٦٦٨ هبط جيش فرنسي عدته عشرون ألف مقاتل على فرائش — كونتيه بقيادة كونديه ، وحالفه النصر في كل مكان ، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألأت القواد المحليين . وقاد لويس بنفسه حصار دول ، فسقطت بعد أربعة أيام . ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرائش .. كونتيه كلها . فقفل إلى باريس مكلا بالغار .

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحدود ، ذلك أن « الأقاليم المتحدة » أقنعت السويد وإنجلترا بالانضمام إليها في حلف ثلاثي ضد فرنسا (يوليو ١٦٦٨) وتبينت الدول الثلاث أن حريتها السياسية أو التجارية ستدوى إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين . ورأى لويس أنه تمجّل السير إلى هدفه ؛ ذلك أن الاتفاق السري الذي أبرمه مع ليوبولد كان ينص على أن تؤول إلى فرنسا كل الأراضي المنخفضة وفرائش — كونتيه عند موت شارل الثاني ملك أسبانيا ، وبدأ أنه لن ينتفضي طام أو نحوه حتى يموت شارل العليل ، فلعله كان خيراً لفرنسا أن تترث حتى تقع الفرقة في حجرها بهدوء . وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المنسكون إنجلترا والسويد ، فأنتهت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) وردت فرنسا فرائش — كونتيه إلى أسبانيا ، ولكنها احتفظت بشارلوا ، ودويه ، وتورنيه ،

وأودينارد ، و ليل ، وآرمانتيير ؛ وكورتريه . وهكذا استبقى لويس لنفسه نصف الغنيمة .

ولكنه في ١٦٧٢ طود زحفه على الراين ، وتكشف الآن هدفه الحقيقي — وهو هولندية لا فلاندر . وسنلقى بنظرة على هذه المسألة في فصل لاحق من زاوية الهولنديين ، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولاهاي قبل أن يقفه فتح سدود البحر . ولكن أوروبا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجديد لتوازن القوى . ففي أكتوبر ١٦٧٢ انضم الامبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج في « حلف عظيم » ، وانضمت إليه أسبانيا واللوين في ١٦٧٣ ، ثم الدنمرك والبالاتينات ودوقية برزويك — لويبورج في ١٦٧٤ ، وفي ذلك العام أكره البرلمان الانجليزي ملكه للمواي لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين .

وواجه لويس ببسالة هذا الانتقام الذي عوقبت به كبرياؤه . فجنح المزيد من الضرائب رغم شكاوى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا ، وبني أسطولا ، وزاد جيوشه إلى ١٨٠.٠٠٠ مقاتل . وفي يونيو ١٦٧٤ وجه قوة منها لمحاصرة بزانسون ثمانية ، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانك — كونتية من جديد . وخلال ذلك قاد تورين في حملة من أروع حملاته وأقساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الامبراطورية . ودمر البالاتينات واللوين وجزءاً من الإلثاس ليحول بين العدو وبين إعلمام جنده ، وتكرر على طوال الراين ذلك الخراب الذي أحدثته من قبل حرب الثلاثين . وفي ٢٧ يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولرباخ في بادن ، ودفن بأمر لويس في كنيسة سان — دني باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك ، وهو عليم بأن تلك الميثة الواحدة تعدل عشر هزائم . وحل « كوندية العظيم » محل تورين بعد ما حقق من انتصارات دامية في الأراضي المنخفضة ، فطرد جيوش الامبراطورية من الإلثاس ، ثم اعتكف ذلك « الأمير » بعد أن دوخته سنون من الشهوات والحرب ، مؤثراً حياة الفلسفة

والحكم في شانتى . واضطلع لويس الآن بالحملة في الأراضي المنخفضة ، فحاصر فالنسيين ، وكامبرى ، وسانتومير ، وغنت ، وإيبر ، واستولى عليها كلها (١٦٧٧ - ٧٨) . وهلت فرنسا لملكها قائداً مطفراً .

ولكن العبء الذى أثقل به كاهل شعبه لم يمدحتملاً . فنشبت الثورات في برردو وبرتى ، وكان الفلاحون في جنوب فرنسا يتضورون جوعاً ، والشعب في الدوفينية يقتات على الخبز المصنوع من ثمر البلوط والجذور (١٢٥) فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة (١١ أغسطس ١٦٧٨) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الأراضي التى استولت عليها فرنسا منها ، وخففت الرسوم التى أقصت المنتجات الهولندية عن فرنسا . وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا ، التى تفككت الآن أوصالها ، بأن تتخلى له عن فراش - كوثيه ، واثنى عشرة مدينة دفعت بمحدود فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الأراضي المنخفضة الأسبانية . واحتفظت فرنسا بمقتضى معاهدة مع الامبراطور بمدينةتين استراتيجيتين هما برايزاخ وفرايبورج - ايم - برايسجاو ، وبقيت الألزاس والورين في قبضتها . وكانت هاتان للمعاهدتان - نيميجن (١٦٧٨ - ٧٩) وسان - جرمان - آن - ليه (١٦٧٩) نصراً للأقاليم المتحدة ، ولكنهما لم تكونا هزيمة لـ لويس ، فلقد فاز على الامبراطورية وأسبانيا ، ووصل في أماكن - هنا وهناك - إلى الراين الذى طالما اشتهى الوصول إليه .

على أنه احتفظ بمجيئه الضخم رغم هذا الصلح ، موقناً أن الجيش القائم قوة تعزز الدبلوماسية . واستناداً إلى تلك القوة من ورأه ، واستغللاً مخزياً لانصراف الامبراطور إلى قتال العثمانيين الراحقين ، أنشأ في الألزاس ، وفراش - كوثيه ، وبرائيسجاو « غراً لإعادة الاتحاد » ، تطالب ببعض مناطق الحدود التى كانت تمتلكها فيما مضى ، واحتل الجنود الفرنسيون هذه المناطق ، وأغرقت مدينة ستراسبورج العظيمة ، التى لين موظفيها إغداق الرشا عليهم ، بأن تعترف بلويس ملكاً عليها (١٦٨١) . وفى نفس

العام ، وبوسائل مماثلة ، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازالى وحصنها ، وكانت تتحكم في الطريق بين سافوا وميلانو^(*) . فلما تلسكات أسبانيا في تسليم مدن الأراضى المنخفضة ، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر وبرابات ، وتطلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز ، وابتلع في طريقه دوقية لكسمبورج (يونيو ١٦٨٤) . واعترفت أسبانيا والامبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريجنسبورج (١٥ أغسطس) ، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آنئذ . وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس في الواقع سلطته إلى الراين . فتحتق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية .

ذلك كان الأوج الذي بلغه « الملك الشمس » فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع في الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان . وأقيمت للمهرجانات الضخمة العالية احتفالاً بانتصارات الملك . ولقبه مجلس باريس رسمياً بلويس العظيم . (١٦٨٠) ورسمه لبرون في صورة إله على أقبية فرساي ، وزعم لاهوتي أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله (١٢٧) . أما جماهير الشعب فقد عجبت حاكها وسط فقرها المدقع ، وتاهت فخرها بمنعمته الواضحة ، وأطراه حتى الأجانب ، لأنهم رأوا في حملاته شيئاً من للنطق الجغرافى ، وحياء الفيلسوف لايبنتز « ذلك الأمير العظيم الذى هو مفخرة زماننا غدير منازع ، والذى ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً (١٢٨) » ، وإلى الشمال من جبال الألب والبراس ، وإلى الغرب من القسثولا ، بدأت كل أوروبا للثقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه . لقد بلغت الشمس الأوج .

(*) لعل « الرجل ذا القناع الحديدى » هو السكونت ماتيولى الذى باع لأسبانيا (١٦٧٩) سر المفاوضات بين لويس ودوق ميلانو . وقد تكهن البعض بأنه هو ذاته ماركيزى ، السجين الفاض الذى أخفى وجهه خلف قناع من المخمل (لا الحديد) ، والذى مات في الباستيل في ١٧٠٣ (١٢٦)

الفصل الثاني

بوتقة الإيمان

١٦٤٣ - ١٧١٥

١ - الملك والكنيسة

ينزع المؤرخ - كما ينزع الصحفي - إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التي يرسمها ، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث . ولكن وراء حكام فرنسا ، ووزرائها ، وحاشيتها ، ومحظياتها ، ومقاتليها ، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء ، يزجرون أبناءهم ويحبونهم ، يأتمنون ويعترفون . يأتمنهم ، يلهون ويتشاجرون ، يذهبون إلى أفعالهم متشاقلين وإلى اللواخير متسترين ، وإلى الصلاة متواضعين متذللين . وكان طلب الخلاص الأبدى يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومي ، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذبلت شهوة الحياة ، وصحن الكنيسة الظليل يريح هنية من وطيس الصراع . وكانت أساطير المعجزات شعر الجماهير ، والقداس مسرحية خلاصهم المعزية ، وسمت الرسالة التي يحملها الكاهن بقلوب الفقراء المهزومين ولو كان هو ذاته رجلاً دنيوياً جشعاً . وظلت الكنيسة المناس لل دولة ركيزة للمجتمع والسلطة ، لأنه بالرجاء أذعن الناس في صبر للعمل الشاق ، والقانون ، والحرب .

وعرف كبار الأكليروس السكاوليك أهميتهم في معجزة النظام ، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمة وبهاء البسائط . وخالط الأساقفة ورؤساء الأساقفة في ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كوندية ، ومونبنييه ،

بوسمينيه ، وداعب المئات من الآباء — أنصاف المكرسين ، أنصاف
المتزوجين — داعبوا النساء والأفكار . على أنه يمكن القول بوجه عام أن
عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلاقهم كانت خيراً مما عهدناه خلال
قرون قبل ذلك ، ربما بحافز من منافسة القساوسة الهيجونوت^(١) .

لم تسكن أديار الراهبات « سرائع الرذيلة » التي صورها جنون خالق
الأساطير ، المنبعث من الكراهية للدين . فالكثير منها كان صوامع للورع
الصادق ، الزاهد أحياناً ، كدير الكرمليات الذي اعتكفت فيه
لويز دلا فالير ، وبعضها الآخر كان ملاذاً لشابات الأسر الكريمة اللاتي لم يجد
آباءهن لمن أزواجهن أو مهوراً ، أو اللاتي افتقرن إنماً ، أو أسأن إلى حاكم
أو ملك . في أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجاً في استقبال زائر من العالم
الخارجي ، أو في مراقبة بعضهن البعض ، أو في قراءة الأدب الديوي ،
أو في تخفيف سأمهن بلعب البليارد أو الورق . وبإصلاح دير من هذه
جعلت جاكين آرنو دير البور — رويال أشهر دير في تاريخ فرنسا .

على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المترفق عن الطرق الديرية ،
فالكثير منها أرخى نظمه ، وحاش حياة التبطل ، والعبادة الصورية ، والالحاف
في التسول . وقد أصلح « أرمان جان درانسيه » دير نوردام دلا تراب
بنورمنديا ، وأسس الطريقة الترايبية الصارمة التي مازالت حية في
صمت . ودخل اليسوعيون دخولاً أليش في حياة فرنسا وتاريخها . كانوا
في بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريرة باعتبارهم مدافعين عن قتل
الملك ، أما في نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك — ثم
أنهم كانوا خبراء في علم النفس . فحين أسست الراهبة مارجريت ماري ألاكوك
يوحي من رؤيا صوفية تراءت لها (١٦٧٥) جمعية منقطعة للعبادة العلنية
لـ « قلب يسوع المقدس » ، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منفذاً
وحافزاً لتقوى الجماهير . وفي الوقت نفسه يسروا الدين للخطاة إذسلموا بأن

الخطيئة في طبيعة البشر ، ووضعوا علم « الإفتاء » سبيلاً للتخفيف من عسر
الوصايا العشر وللتلطيف من عصاب تأنيب الضمير ، وما لبث أن اشتد الطلب
عليهم آباء اعتراف للخطاة ، واكتسبوا سلطة « مرشدي الضمائر » ، لاسيما
بين النساء اللاتي سدن المجتمع الفرنسي ، واللاتي أثرن أحياناً في السياسة
القومية للبلاد .

ولم يكن لكلمة « الافتاء » في القرن السابع عشر ذلك المدلول المبهين
الذي الصقته بها رسائل إسكال الأقليمية . فقد كان يفترض في كل قسيس ،
بوصفه أب اعتراف أو مرشداً روحياً ، أن يعرف بالضبط ما الذي يجب
أن يعتبر خطيئة مميتة ، أو خطيئة هينة ، أو لا خطيئة على الإطلاق ، وكان
عليه أن يستعد لتطبيق علمه ، والملاءمة بين حكمه ، ونصحه ، والعقوبة
الكفائية التي يشير بها ، وبين الحالة للمائلة أمامه (Causus) . وكان معلوم
الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن ، في التمييزات الخلقية ، بتفصيل
مستفيض في الأجزاء القانونية من التلمود ، وحذا حذوهم التشريع والطب
النفسى المصريان . وقبل أن تنشأ جماعة اليسوعيون بزمن مديد ، وضع
اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة في الافتاء لإرشاد السكاهن في أمر
للبدء الخلقى والتطبيق الاعترافى . ففى أى الحالات مثلاً يجوز أن يبدى على
حرية القانون الخلقى روحه أو قصده ؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو
يسرق أو يقتل ، أو يحنث بوعد حنثاً معقولاً ، أو ينتهك يميناً ، أو حتى
ينكر العقيدة ؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلقى تفسيراً صارماً ، ورأوا أن
الصرامة أجدى فى لدى الطويل من التساهل . ولكن غير هؤلاء —
ولا سيما اليسوعيين مولينا ، وإسكوبار ، وتوليدو ، وبوزبوم — حذبوا
دستوراً أخلاقياً متسامحاً ، وحضوا على ضرورة التماس العذر لطبيعة البشرية ،
ومؤثرات البيئة ، والجهل بالقانون ، والمشقة البالغة فى الامتثال الحرفى
للقانون ، وعنف سوراء العاطفة . عنفاً شبيهاً بالجنون ، وسائر الظروف

التي تعطل حرية الإرادة. وتيسيرا لهذه الأخلاقيات الدينية، وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح — ومؤداه أنه إذا استحسن حجة معروف في اللاهوت الخلقى رأيا بعينه، جاز لسكاهن الاعتراف أن يحكم طبقا لهذا الرأى إذا استصوب ذلك، ولو مارضته كثرة الخبراء. (وكانت كلمة *Probabilia* تعني فى ذلك الوقت للمستحسن، أو الذى يسمع بالاستحسنان^(٢)). يضاف إلى هذا، فى رأى بعض المفتين اليسوعيين، أنه من المباح أحيانا أن يكذب الإنسان، أو يمسك من قول الحق بـ «تحفظ عقلى»؛ مثال ذلك أن للمسيحى الأسير، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه. ثم إن أخلاقية ممل ما، فى رأى إسكوبار، ليست فى الفعل نفسه، الذى ليس فى ذاته أخلاقيا أولا أخلاقى، بل فى نية الفاعل الخلقية، فليس هناك خطيئة مالم يكن هناك خروج واع، مختار، عن القانون الخلقى.

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقا معقولا رحيا بين القواعد التي يغلب عليها زهد العصر الوسيط، وبين مجتمع اكتشف مشروعية اللذة. ولكن اليسوعيين فى فرنسا بصفة خاصة، وفى إيطاليا بدرجة أقل، طوروا الافتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية مبنا حمل رجالا جادين كبسكال فى باريس، وساربنى فى البندقية، وكثيرا من اللاهوتيين الكاثوليك، ومنهم عدة يسوعيين^(٣) — حمل هؤلاء جميعا على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاما من المسيحية لخطيئة. وصدى هذا التراخى اليسوعى مع العالم والجسد مشاهير هييجونوت فرنسا الذين ورثوا دستور كالفن الخلقى الصارم. وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها — وهى الجانسنية — فرفعت فى دير البور — رويال لواء أخلاقية شبه كالفنية، فى حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فرنسا والأدب الفرامى قرنا كاملا. وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى المعركة، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين وتطبيقه للدين لم ينكحن مترمنا. وفى ١٦٧٤ اضطلع الأب لاشيز بالأشراف

على ضمير الملك ، وقد وصفه فولثير بأنه « رجل هادئ الطبع يسهل عنده التوفيق دائما »^(٤) وقد شغل المركز اثنى وثلاثين سنة ، غفر خلالها كل شيء وحظى بحبة كل إنسان . وقد قال لويس عنه « بلغ من طيبته أنني كنت أحيانا ألومه عليها »^(٥) . ولكن بطريقته المهادنة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك ، وأعان على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر المطاف ، وإلى طاعة البابا .

ذلك أن لويس لم يكن دائما « بابويا » صادقا . كان متدينا على طريقته الرسمية ، ونذر أن قصر في حضور القداس اليومي^(٦) . قال لولده في مذكراته :

« . . . واصلت تدريبات التقوى التي نشأتني عليها أُمي ، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذي نلته ، ومن جهة لأكسب محبة شعبي . . . والحق يا بني أننا لا نفتقر إلى عرفان الجليل والأنصاف لحسب ، بل إلى الحكمة والفضيلة أيضا ، حين نقصر في عبادته تعالى ، الذي لسنا إلا نوابا له . وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذي يستحقه »^(٧) .

على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية . ذلك أن لويس ورث التقليد « العالي » بمقتضى تفويض بورج البرجاني (١٤٨٣) وكوركوردا فرسوا الأول (١٥١٦) — ذلك التقليد الذي أقر حق ملوك فرنسا في تعيين أساقفه فرنسا ورؤساء أديارها ، وتحديد دخولهم ، والتعيين في جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول في الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه . وقد آمن لويس أنه خليفة الله أو مثله في فرنسا ، وأن خضوعه للبابا (بوصفه هو أيضا خليفة الله) يجب أن يقصر على شئون العقيدة والأخلاق ، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يطيعوا الملك في كل أمر يتصل بالهولة الفرنسية .

واستندكر فريق من الأكليروس هذه الدهوى — وهم المناصرون لسيادة

البابوية المطلقة — وأيدوا سلطان البابوات المطلق على الملوك والمجامع وتميين الأساقفة ، ولكن الغالبية — وهم الحزب الغالى — دافعوا عن استقلال الملك الكامل فى الأمور الزمنية ، وأنسكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكونى ، ورأوا فى الروغان من سيطرة روما منفعة للكليروس الفرنسى . وصرح أمير كونديه أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستنتى لكان رجال الأكليروس الفرنسى أول من يتبعه (٨) . وفى ١٦٦٣ أصدرت السوربون — وهى كلية اللاهوت فى جامعة باريس — ست مواد تؤكد الموقف الغالى . واتخذت « البرلمانات » الفرنسية ذات الموقف ، وأيدت لويس فى دعواه بحقه فى أن يقرر أى المراسيم البابوية ينبغى نشره وقبوله فى فرنسا . وفى ١٦٧٨ احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية ، وحرم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفا قاوم هذه النزعة . ودعا الملك مجمعا من الأكليروس ، كلهم تقريبا من اختياره . وفى مارس ١٦٨٢ أعاد المجمع تأكيد مواد السوربون الست ، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة ، التى كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما :

١ — للبابا سلطان فى الأمور الروحية ، وليس له سلطان عزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم .

٢ — للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا .

٣ — الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها .

٤ — لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة .

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع ، ورفض التنصيب القانونى لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد . وإذا كان لويس لا يمين إلا أمثال هؤلاء المرشحين ، فقد شغرت فى ١٦٨٨ نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القانونيين . على أن الشيخوخة ومدام دمانتون كانا قد الانا جانب الملك ، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد . وفى ١٦٩٣ — مع لويس

لمرشحيه إن ينكروا المواد ، وأقر البابا أنوسنت الثاني عشر حق الملك في
العينات الأسقفية ، وأصبح لويس من جديد « الملك المسيحي جداً »
Rex Christianissimus .

٢ - البور - رويال : ١٢٠٤ - ١٦٢٦

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث
التي اضطرم بها حكم لويس . فقد فاقها صمًا ذلك الصراع الذي احتدم بين
الكاثوليكية السنية التي دانت بها الدولة والأكليروس ، وكاثوليكية
الجانسميين والبور - رويال القريبة من البروتستنتية ، وكان أعمق هزم
المسرحيات وأشدّها فجعية هو القضاء على الهيغونوت في فرنسا . ولكن
ما هو البور - رويال هذا ، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله في التاريخ
الفرنسي ؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة اليسوعية Cistercian على نحو
مئة عشر ميلاً من باريس وستة أميال من فرساي ، في مكان وطيء تسكنه
المستنقعات ، وصفته مدام دسفينيه بأنه « واد رهيب ، هو بالضبط
المكان الذي يجد فيه الإنسان خلاصاً » (٩) . أسس حوالي ١٢٠٤ ، ونجا
بشق النفس من الثقلبات الكثيرة التي تعرض لها في حرب مائة العام
والحروب الدينية . وقد اضطلع نظامه وتناقضت راهباته ، ولعل الدير كان
يختفي عن الأنظار لولا أنه خضع لرأسه جاكين آرنو ، وجرد للدفاع عنه
قلم بليز بسكال .

لقد صنع أنطوان آرنو الأول (١٥٦٠ - ١٦١٩) التاريخ ببلاغته
ووفرة ذريته . ففي ١٥٩٣ ، بعد أن حاول باربير اغتيال هنري الرابع ،
وجه آرنو إلى برلمان باريس خطاباً غاضباً طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا .
ولم يمتنعوا عنه بعدها ، وكانوا ينظرون بعين تقادة منذرة بالشر إلى مائة وم
به أسرته في البور - رويال . وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه -
البالغين نيفاً وعشرين - دور في قصة ذلك الدير . فقد عينت جاكين آرنو
٦ - قصة الحضارة

مساعدة لرئيسة دير البور — رويال وهى فى السابعة (١٥٩٨) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان ، البالغة ستة أعوام ، رئيسة لدير سان — سير . وكان التمييزان بأمر هنرى الرابع ، وثبتهما مرسومان بابويان أمسكن الحصول عليهما بتزيف صهر الفتاتين (١٠) . ولعل أباهما التمس لابنتيه هاتين الوظيفتين بدلا عن العثور على زوجين ومهرين لهما .

فلما أصبحت جاكلين ، بوصفها الأم آنجليك ، رئيسة إسمية لدير — رويال (١٦٠٢) لم تجد غير أرخى النظم بين راهباته الثلاث عشرة ، فقد كانت كل منهن تحتفظ بثروتها ، وتكشف شعرها ، وتستعمل مستحضرات التجميل ، وتتبع أحدث الأزياء . وقل أن تناولن الأسرار المقدسة ، ولم يستمعن لأكثر من سبع عظات خلال ثلاثين عاما (١١) . فلما ازداد وعى الرئيسة الشابة بالحياة التى ألزمها إياها أبوها ، سخطت ونوت الهروب (١٦٠٧) . « فكرت فى مغادرة البور — رويال والعودة إلى العالم — دون إحاطة أبى أو أمى بنيتى ، لأهرب من هذا النير الذى لا يطاق ، ولأتزوج » . (١٢) ومرضت ، لحملت إلى بيتها ، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى عادت إلى البور — رويال عقب إبلالها وهى مصممة على الوفاء بنذورها الديرية حبا فى أمها . على أنها أوصت بعشد من عظام الحوت لتحتفظ لقوامها نحافته (١٣) . وظلت تمنى نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت فى عيد القيامة عام ١٦٠٨ عظة ألقاها راهب كبوشى عن آلام المسيح ، وكانت يومها فى ميعة الصبا . قالت تروى الحدث فيما بعد « خلال هذه العظة لمسني الله لمسة جعلتني أحس منذ تلك اللحظة بأننى أسعد حالا فى حياة الرهبنة ٠٠٠ ولا أدرى أى شئ كنت أحجم من فعله لله إذا واصلتعالى هذه الحركة التى منحتنى إياها نعمته (١٤) » . ذلك ، فى لغتها ، كان « أول عمل للنعمة » (أى اللطف الإلهى) .

وفى أول نوفمبر من ذلك العام ملأها عظة أخرى — هى « نانى أعمال

النعمة ، شمعورا بالخزى من شدة تراخيها وتراخي راهباتها في الوفاء بما نذرن من فقر وعزلة . وإذ كانت ممزقة بين حبها للراهبات ورغبتها في فرض نظام الطريقة السترسية ، فقد رأت عليها السكابة ، ومارست ألوانا من التقشف لم يقو عليها جسدها ، فأصابها الحمى . ولا بد أنها كانت لطيفة محبة إلى النفوس ، وآية ذلك أنه حين سألتها الراهبات عن السر في حزنها ، وصارحتهن برغبتها في أن يرجعن إلى التزام نظام رهبتهن بمخاضه ، ارتضين حكمها ، وجمعن كل ممتلكاتهن الخاصة ، وأخذن العهد على أنفسهن بالفقر الدائم .

أما الخطوة الثانية ، وهي اعتزال العالم ، فسكان أشد إيلا ما . فقد حظرت الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير ، أو يستعلن الزوار — حتى أقرب الأقرباء — دون إذن صريح ، فإذا استقبلتهم في قاعة الاستقبال دون غيرها . وشكون مما سيكلفهن هذا من عناء شديد . ولكن تعطين القدوة الحسنة للشدة لعزائمهن صممت ألا ترى أبويها في زيارتهما التالية إلا من نافذة ذات شبك أو « شيش » في الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وحجرات الدير . فلما حضر أبواها راعهما أنها لا تريد التحدث إليهما إلا من خلال هذا الشباك . . وأصبح « يوم الشباك » *journee du guichet* (٢٥ سبتمبر ١٦٠٩) يوما مشهورا في الأدب الدائر حول البور — رويال .

وهذا غضب الأسرة المقصاة ، وتأثر أفرادها بورع الأم أنجليك (التي بلغت الآن الثامنة عشرة) تأثرا حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت آرنو على دخول البور — رويال . ففي ١٦١٨ ، أخذت شقيقتها آن أوجنى على نفسها عهد الرهبنة . ولحققتها شقيقات أخريات بمدفيل — كاترين ، ومارى ، ومادليز . وفي ١٦٢٩ ، جثت أمهن الأرملة عند قدمي الأم أنجليك ملتزمة قبورها مبتدئة في الرهبنة ثم أخذت العهد في الوقت المناسب ، وعاشت في تواضع وسعادة

تحت رئاسة ابنتها ، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم . وقد حمدت الله وهي تحتضر (١٦٤١) لأنها قدمت ستاً من بناتها للحياة الدينية . ودخلت خمس من حفيداتها البور — رويال في فترة لاحقة . وأصبح ابنها رويير وثلاثة من حفيدتها « متوحدين » هناك ، وأصبح ألبع أبنائها ، وهو الطوان آرنو الثاني ، عضو السوربون ، فيلسوف البور — رويال ولاهوتيه . وإنا ليأخذنا العجب لهذه الخصوبة ، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا العمق في التعبد والولاء والإيمان (*) .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة عسوداً إلى نظام الرهبنة السترسية الكامل . حفظت الراهبات ، اللاتي بلغ عددهن الآن ستاً وثلاثين ، جميع الأصوام بدقة تامة ، ومارسن الصمت فترات طويلة ، واستيقظن في الثانية صباحاً لترتيل تسبحة الصباح ، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران من مالهون المشترك . وسرت الإصلاحات من البور — رويال ، وأرسلت الراهبات اللاتي دربن فيه الأديار في جميع أرجاء فرنسا لحضما على العودة إلى سابق نظمها . من ذلك أن ديرافى موبويسون كان شديد الإنحلال ، وقد استعمله هنري الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابرييل دستريه ، وكانت رئيسته محاطة ببناتها غير الشرعيات ، وكان الراهبات يخادرن دبرهن دون قيد ليلقين ويراقصن رهبان دير مجاور (١٦) . وفي ١٦١٨ طلب رؤساء الأم أنجليك إليها أن تحمل محل رئيسة دير موبويسون ، ومكنت هناك خمس سنوات ، فلما عادت إلى البور — رويال تبعها اثنتان وثلاثون راهبة إلى الدير الأم الذي أبعث منه نور الإصلاح .

وفي ١٦٢٦ ظهر وباء الملاريا في البور — رويال ، وإذ نبه بعضهم أنجليك

(*) لاحظ سانت — بيث أن « مدة شابات ممن يبنين راهبات البور — رويال كن قد أسبن بالجدوى فتشوهن وجوههن في سن مبكرة » ، وأنشأ في غرب « لا أرهدان أقول أننا لا نهب الله إلا ما فقد قيمته في هذه الدنيا » (١٥) .

إلى مافى جوالدير الرطب من خطر ، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل «باريس» . وهناك ، وتحت تأثير الجاسنية ، دخلن معركتهن التاريخية مع اليسوعيين والملك . وسرعان ما احتل « المتوحدون » المباني المهجورة المتهدمة في البور — رويال — دى — شان ، وكانوا رجالا رغبوا في أن يحيو حياة أقرب إلى الحياة الديرية وإن لم يندروا أنفسهم المهرينة . ووفد على المسكان نفر من آل آرنو — أنطوان الثاني — وأخوه روبر آروداندي ، وأبنا أخته أنطوان لوميتير وسيمون لوميتير دسريكور ، وحفيده إسحاق لموى سامى ، وانضم إليهم بعض رجال الكنيسة ، أمثال بيير نيكول وأنطوان سانجلان ، لابل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون دبرنشانو . وراحوا يصرفون معاميات المستنقعات ، ويحفرون الخنادق ، ويرمون المباني ، ويعنون بالبساتين والحدائق . وكانوا — جماعة أوفرادى — يمارسون ألوانا من الفنون ، ويصومون ، ويرتلون ، ويصلون ، ويلبسون لباس الفلاحين ، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم في البرد القارس . وكانوا يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ، وقد ألفوا كتبها فيها تعبد وتفقه ، وأحد هذه الكتب ، واسمها « فن التفكير » ، وهو من تأليف نيكول وآرنو الصغير ، ظلل كتبيا محببا في المنطق حتى القرن العشرين .

وفي ١٦٣٨ افتتح المتوحدون « مدارس صغيرة » دعوا إليها أطفالا : اختاروهم من سن التاسعة أو العاشرة ، وعلموهم الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والنواحي السنية في فلسفة ديكارت . وطلب إليهم أن يجتنبوا الرقص والمسرح (وكلاهما وافق عليه اليسوعيون) ، وإن يصلوا كثيرا ، . ولكن ليس للقسيسين ، ولم تكن هناك صور دينية في الكنيسة الصغيرة التي يسمعون فيها القداس . وفي البور — رويال — دى — شان ، والبور — رويال — دى — بارى ، أصبح اعتراض تقوى آل آرنو على قساد البلاط ،

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسانية الصارمة على تيسير اليسوعيين للمسيحية حتى توائم الطبيعة البشرية .

٣ — الجانسون واليسوعيون

كان كورنيليس جانسن هولنديا ، ولد في ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكين ، ولكنه تأثر تأثراً صيقاً باللاهوت الأوغسطيني الذي دان به جيرانه الكالفينيون . فلما التحق بجامعة لوفان الكاثوليكية (١٦٠٢) وجدها مضطربة بمجدل عنيف بين الحزب اليسوعي أو السكولاستي ، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التي نادى بها ميخائيل بابوس في الجبرية والنعمة الإلهية . وانحاز جانسن إلى الأوغسطينيين . وفي الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذاً ، قبل جانسن دعوة وجهها إليه زميل يدهى جاف دوفرجييه دهوران ليعيش معه في بايون . وقد درسا القديس بولس والقديس أوغسطين ، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الكاثوليكية ضد الكالفينيين الهولنديين والهيجرونوت الفرنسيين هو الاقتداء بأوغسطين في تشديده على النعمة الإلهية والجبرية ، وتأصيل دستور أخلاق صارم بين الأكايروس والعلمانيين الكاثوليك ، يفضح الانحلال المنتشر في البلاط والأديار ، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة اللينة .

وفي ١٦١٦ ، بينما كان جانسن رئيساً لبית للطلاب الهولنديين في لوفان ، هاجم لاهوت اليسوعيين في حرية الإرادة ، وبشر ببيورتانية صوفية قريبة من التقوية التي كانت بسبيل التشكل في هولندا ، وانجلترا ، وألمانيا . ثم واصل الحرب أستاذاً لتفسير الكتاب المقدس بلوفان ، وأسما لآيبر . وترك عند موته (١٦٣٨) رسالة كبيرة — لم ينجزها تماماً — عنوانها « أوغسطينوس » ، ما لبثت بعد نشرها في ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج العقائدي

للبور — رويال ، ومثار الجدل في اللاهوت الكاثوليكي الفرنسي طوال قرن تقريباً .

ومع أن الكتاب اختتم بلفتة خضوع لكنيسة روما ، فإن كالفيني الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها (١٧) . فقد قبل جانسن الجبرية قبولاً تاماً كما قبلها أوغسطين ولوتر وكالفن من قبل . حتى قبل أن يخلق الله العالم ، اختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغي أن يخلصوا ، وقرر من ينبغي أن يهلكوا ؛ وأعمال البشر الصالحة ، وإن تكن ذات قيمة ، لا يمكن أن تكسبهم الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية ، وقليلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أنكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين ، ولكنها تركتها تتوارى في خلفية تعليمها ، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة ، التي بدا أنها شرط لاغنى عنه — منطقياً — للمسئولية الخلقية وفكرة الخطيئة . ولكن إرادة الإنسان في رأى جانسن ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم . وأصبحت طبيعته الإنسان الآن فاسدة فساداً يعجزه عن تخلص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التي اكتسبها بموت المسيح . أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يغالى في دور الأعمال الصالحة في نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ، ذلك الموت الذي افتدى الخطاة ، أمراً لا ضرورة له تقريباً . ثم به إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، فالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الواثق للسلم ، تماماً كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد وصلت هذه الأفكار إلى البور — رويال بطريق دوفرجيه ، الذي كان أثناء ذلك قد أصبح رئيساً لديرمان — سيران . وقد وفد مسيودسان — سيران ، كما مى الآن ، على باريس وهو يتقد غيرة وتحمسا

لإصلاح اللاهوت والأخلاق ، وليستبدل التقوى الباطنة بالندين الظاهر وسرعان ما قبل مرشدا روحيا للراهبات في البور — رويال — دباري ، وللمتوحدين في البور — رويال دي — شان (١٦٣٦) ، وغدت هذه المؤسسة المزروجة صوت الجانسية ونموذجها الأمثل في فرنسا . أما ريشليو فقد رأى في هذا المصلح رجلا متمصبا مثيرا للقلق ، فاعتقله في فانسين (١٦٣٨) . وفي ١٦٤٢ أفرج عن سان — سيران ، ولكنه مات بالفاالج بعد سنة .

وقد ظل يلهم السكثريين من آل آرنو حتى وهو في سجنه . فنشر آرنو الثاني « آرنو الكبير » في ١٦٤٣ رسالة في « كثرة تناول الأسرار المقدسة » واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين . ولم يذكر اسمهم صراحة ، ولكنه ندد بفكرة أحس بأن بعض الكهنة الاعتراف يتساحون فيها ، وهي أن في قدرة الخطي أن يكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف وتناول القربان . وشعر اليسوعيون بأنهم المفصودون بهذا الهجوم ، فشدوا النكير على آل آرنو . وتوقع أنطوان المتاعب ، فرحل عن باريس إلى البور — رويال — دي — شان . وفي ١٦٤٨ رحلت الراهبات أيضا عن العاصمة وقد روغنهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم . وأخلى المتوحدون المسكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج .

كان البابا أوربان الثامن قد أدان (١٦٤٢) العقيدة العامة التي انطوى عليها كتاب جانسن « أوغسطينوس » . وفي ١٦٤٩ طلب أستاذ في السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا في الكتاب رغم أنها تحظى برواج شديد . وأحيل الأمر إلى إوسنت العاشر ، وانتهر اليسوعيون الفرصة ليقنعوا البابا بما تنطوى عليه الجانسية من أخطار بوصفها لاهوتا كالفنيا يتخفى في غي ثوب كاثوليكي . وأخيرا حملوه على إصدار مرسوم Cum occasione (٣١ مايو ١٦٥٣) ، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من كتاب « أوغسطينوس » :

١ - هناك تعاليم الهية يمجز الصالحون عن طاعتها عجزا مطلقا رغم إرادتهم .

٢ - لا يستطيع إنسان أن يقاوم تأثير النعمة الإلهية .

٣ - لكي تكون أعمال البشر أهلا أو غير أهل للمكافأة والتقدير لا يشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة ، بل يكفي أن تكون بلا ضغط أو كبت .

٤ - هذه الهرطقة ، الشبهة بهرطقة بيلاجيوس ، مؤداها السماح لإرادة الإنسان بأن تمنح قوة مقاومة النعمة ، أو الامتنال لتأثيرها .

• - كل من زعم أن المسيح مات ، أو سفك دمه ، للبشر جميعا ، هو شبيهه ببيلاجيوس (١٨) .

هذه القضايا لم تؤخذ حرفيا من كتاب « أوغسطينوس » ، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تلخيصا لتعليم هذا الكتاب . وهي كخلاصة فيها قدر لا بأس به من الانصاف (١٩) ، ولكن الجانسينيين احتجوا بأن القضايا ، بهذا الوصف ، لا توجد عند جانسن - وإن كان آرنو قد ألمع في خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين . وفي غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيها يبدو .

وكان أنطوان آرنو مقاتلا بالنفط . فأقر بمصمة البابا في أمور الإيمان والأخلاق ، لافي الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة ؛ ومن الحقائق الواقعة أنه أنكر أن جانسن قرر هذه القضايا المحكوم بإدانتها . وفي ١٦٥٥ عاد إلى مقابلة اليسوعيين في عقر دارم بنشره « رسائل إلى دوق ونبيل » ، وقد هاجم فيها الأساليب التي زعم أنها أساليب اليسوعيين في كرمي الاعتراف ورحبت السور ؛ بن بافتراح بطرده . فأعد دفاعه ، وقرأه على أصحابه في البور - رويال فلم يقع من شرهم موقعا ذا بال ، وكان أحدهم

مريدا جديدا يدعى بلينز بسكال . فأتجه إليه آرنو وأهاب به قائلا : « أنت أيها الشاب ، لم لا تكتب شيئا (٢٠) ؟ » واعتكف بسكال في حجراته ، وكتب أول « رسائله الإفليمية » وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين . وينبغي أن نستمع إلى بسكال في شيء من الإسهاب ، لأنه لم يكن أعظم كتاب النثر الفرنسي لحسب ، بل ألمع المدافعين عن الدين في عصر العقل بأكماله .

٤ - بسكال : ١٦٢٣ - ٦٢

١ - بسكال الإنسان

كان أبوه إتيين بسكال رئيسا لمحكمة المعاوين بسكايرون - فيران في وسط فرنسا الجنوبي . وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين ، مخلفة فضلا عنه أخذاً أكبر منه تدعى جلينيرت وأخرى أصغر تدعى جاكين . وانتقلت الأسرة إلى باريس حين بلغ بلينز الثامنة . وكان إتيين يدرس الهندسة والفيزياء ، وقد اتاح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندي ، وميرسين ، وديسكارت . وكان بلينز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم ، فأصبح في الفترة الأولى من حياته عاشقا للعلم . فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام المتذبذبة . وخيل للأب أن ولع الصبي بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته الأخرى ، فحظر عليه حيناً أن يعرض في عكوفه على الرياضيات . ولكن حدث يوما - فيماروي - أن إتيين وجدده يكتتب على الحائط بقطعة من الفحم البرهان على أن زوايا الثلث الثلاث تساوي زاويتين قائمتين (٢١) ، وبعدها سمح للغلام أن يدرس أفقليدس . وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بحماسة في القطاعات المخروطية فقد أكثره ، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة في ذلك العلم ، وما زالت تحمل اسمه . وحين عرضت مخطوطة البحث على ديسكارت أبى أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب .

في ذلك العام (١٦٣٩) لعبت أخته الجميلة جاكلين دوراً مثيراً في حياة الأسرة ، وكانت آتخذ في الثالثة عشرة . ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال في السندات البلدية ، وخفض ريشليو نسبة الفائدة التي تؤدي عن هذه السندات ، فاستقدم إيتين ، وهدد الكردينال بالقبض عليه ، فاختبأ في أوغرن . ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات ، وقامت بعض الفتيات — ومنهن جاكلين — بتمثيل مسرحية سكوديرى « الحب الظالم » . أمامه ، فشرح تمثيلها صدره ، واغتنمت هي الفرصة وتوسلت إليه أن يصفح عن أبيها ، ففعل ، وعينه ناظراً ملكياً في روان عاصمة نورمندي ، وإليها انتقلت الأسرة في ١٦٤١ .

وهناك اخترع بليز أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن في كونسرفتوار الفنون والصنائع بباريس ، وكان يومها في التاسعة عشرة . أما المبدأ الذي قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفر ، ويحرك كل منها ليدور عشر دورة نظير كل دورة كاملة للترس الذي إلى يمينه ، ويظهر كل منها رقمه الأعلى في ثقب عند القمة . ولم تسكن الآلة تستطيع غير الجمع ، ولا كانت عملية من الناحية التجارية ، ولكنها قربت من بداية تطور يثير اليوم دهشة العالم ، وأهدى بسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد ، مشفوعة بخطاب اطراء بليغ جداً ، فدعته إلى قصرها ، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك للناخ الرهيب .

وكان العالم الشاب المتحمس شديد الاهتمام بالتجارب التي نشرها تورتشيللي عن وزن الهواء ، وطرأت على خاطر بسكال فكرة كان فيها مستقلاً عن تورتشيللي ، ولكن ربما استوحاها من اقتراح لديسكارت (٢٢) ، ومؤداها أن الزئبق في أبوبة تورتشيللي يرتفع إلى مستويات مختلفة في أماكن مختلفة ، حسب اختلاف الضغط الجوي . فطلب إلى زوج أخته في أوغرن أن يحمل أبوبة زئبق إلى قمة جبل ، وبلاحظ أي فرق — على مختلف

المستويات — في ارتفاع الزئبق في الجزء المقفل من أنبوبة فتح طرفها الآخر لضغط الهواء . وفعل فلوران بيريه كما طلب إليه ، في ١٩ سبتمبر ١٦٤٨ ارتقى مع بعض أصحابه « بوى ددوم » ، الذي يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون — فيران ، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة في الأنبوبة ، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين ، وهلمت أوربا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمه .

وتلقى بسكال بفضل شهرته عالمياً (١٦٤٨) نداءً مشيراً من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً رياضيات الخطأ والصدفة ، فقبل التحدي ، واشترك مع غيره في وضع حساب الاحتمالات ، الذي ينتفع به الآن كثيراً في جداول التأمين من المرض والموت . ولم تبد عليه في هذه المرحلة من نموه أي بادرة بأنه سينقل يوماً ما ولاه من العلم إلى الدين ، أو يفقد إيمانه في المنطق والتجريب ، وواصل العمل عشر سنين في المعضلات العلمية لاسيما الرياضية منها ، وفي تاريخ متأخر (١٦٥٨) عرض جائزة من مجهول في تربية الدويرى — وهو الخط المنحني الذي تمحده نقطة على دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو . وتقدم بالحلول واليس ، وهو بجنز ، ورن ، وغيرهم ، ونشر بسكال بعد ذلك حله ، تحت اسم مستعار ، وأهقب ذلك جدل سلك فيه المتنافسون ، ومنهم بسكال ، مسكالم يقيم بالكثير من الفلسفة .

وتسلط على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان ، المرض والجانسية . ذلك أنه منذ كان فتى في الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بغير ألم . وفي ١٦٤٧ أقعدته إصابة بالشلل لم يستطع بسببها المشي إلا إذا توكأ على عكازين . كان رأسه يصدع ، وأمعاؤه تلتهب ، وساقاه وقدماه داغة البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنفيذ دورته الدموية ، وكان يلبس الجوارب الطويلة المنقوعة في البراندى الفاسك لدفء قدميه .

وكان مما جعله على الانتقال إلى باريس مع جاكلين أن يجد علاجاً طبياً أفضل ، وتحسنت صحته ، ولكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم . فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد صحتها على الأيام حتى أثرت في خلقه وفلسفته ، فبات سريع الإفعال ، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر العائى ، وقل أن أشرق وجهه بابتسامة (٢٢) .

وكان أبوه طيله حياته كاثوليكياً تقياً بل صار مأو وسط شواغله العلمية ، وقد علم أبنائه أن الإيمان الديني أئمن ما يملكون ، وأنه شئ بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التمسكير الضعيفة التى يملكها البشر . وفي روان أصيب الأب بحرج خطير فعالج به طبيب جانسى بنجاح ، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسانية ، فلما انتقل بليز وجاكلين إلى العاصمة كثرت اختلافهما إلى القداس فى البور — رويال — د — بارى ، ورغبت جاكلين فى دخول الدير راهبة ، ولكن أباهما لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية ، ولكنه مات عام ١٦٥١ ، وما لبثت جاكلين أن تهربت فى البور — رويال — دى — شان ، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنىها عن عزمها .

وتنازعا حينئذ على تقسيم ميراثهما ، فلما سوى النزاع وجد بليز نفسه رجلاً غنياً حراً . وتلك حال مجافية لحياة التقوى ، فاتخذ لنفسه بيتاً فاخراً الأثاث ، واستكثر من الخدم ، وجاب باريس فى مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة (٢٤) . وأعطاه شفاؤه المؤقت شعوراً خداعاً بالنشاط والخفة حرفة من التقوى إلى اللذة . وعلينا ألا ننفسه على تلك السنوات القليلة التى قضاهـا « فى العالم » (١٦٤٨ — ٥٤) ، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعاها وحسانها ، ويطارد فى برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة ، وصفها بر — « سافو الريف » (٢٥) . وحوالى هذه الفترة كتب « أحاديث فى آلام الحب » ويلوح أنه فسكر فى الزواج — الذى سيصفه فى تاريخ لاحق بأنه « أحط ظروف الحياة المباحة لمسيحي » (٢٦) . وكان بعض أصحابه

شجرة جمعوا بين الحريتين ، حرية الأخلاق وحرية الفكر ، ولعلمهم هم الدين
أثاروا اهتمام بسكال بمونتييني ، الذي تغلغلت الآن « مقالاته » في حياته .
وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الديني .

ووبخته جاكلين حين نعى إليها أباً عبثه الجديد ، وصلت لأجل صلاح حاله .
وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له .
ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البون دى بوى جسر تيللى ، جمعت
الطويل واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين . وكادت العربدة أن تتبع الطويل ،
ولسكن العنان انقطع لحسن الحظ ، وتملقت المركبة بنصفها فوق الحافة .
وخرج منها بسكال وأصحابه ، ولسكن الفيلسوف للرهف الحس أغمى عليه
لفرط خوفه من الموت الدائم ، وظل برهة ظائباً عن رشده . فلما أفاق شعر
بأنه رأى الله فى رؤيا . وفى نشوة من الخوف والندم وعرفان الجليل سجل رؤياه
على رق راح بحمله منذ تلك اللحظة مخيطاً فى بطانة سترته : « السنة ١٦٥٤
بعد الميلاد ، الاثنين ٩٣ نوفمبر ٠٠٠ من نحو السادسة والنصف مساء إلى
النصف بمد منتصف الليل . أن الاله القديم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله
يعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء . اليقين ، اليقين ، الوجدان ، الفرح ،
السلام . إله يسوع المسيح . . . لن يحمده الإنسان إلا بالطرق التى يعلمها
الإنجيل . يسمو النفس الإنسانية ، أبها الأب العادل ، أن العالم لم يعرفك
قط ، ولسكنى عرفتك . إنه الفرح ، الفرح ، دموع الفرح . . . يا إلهى ،
هل أنت تاركى ؟ يسوع المسيح . . . لقد فصلت عنه ، وهربت منه ، وتخلّيت
عنه ، وصلبته . ليتنى لا أفارقة أبداً ، إنها المصالحاة الحلوة الكاملة (٢٧) » .

وطاود زيارته للبور — رويال ولجاكلين ، وشرح صدرها بحالته
النفسية الجديدة ، حالة التواضع والتوبة . واستمع إلى عظات أنطوان
سانجلان . وفى ديسمبر ١٦٥٤ أصبح عضواً فى جماعة البور — رويال (٢٨) .
وفى يناير كان له هناك حديث طويل مع سامى ، الذى آلى على نفسه أن

يقنعه بسطحية العلم وعقم الفلذفة . وآنس آرنو ويكول من العضو الجديد حماسة في الاهتداء وبراعة في التعبير الأدبي تبدوان وكأنهما أداة وضعتها العناية في أيدي الجماعة للدفاع عن البور — رويال ضد أعدائه . فطلبوا إليه أن يخص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصوير الجانسية على أنها خطيئة . وأستجاب للطلب في ذكاء وقوة بلغا مبلغا جعل جماعة اليسوعيين تشكوا إلى اليوم من وخز بسكال الأليم .

ب - الرسائل الإقليمية

في ٢٣ و ٢٦ يناير ١٩٥٦ نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه « رسائل كتبها لوى دمونتالت » (وهو اسم مستعار) « إلى صديق في الأقاليم » ، وإلى الآباء اليسوعيين المبججين ، عن أخلاقياتهم وسياساتهم . وكان إطارها ذكيا ، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق في الأقاليم عن المسائل الخلقية واللاهوتية التي كانت يومئذ تثير الأوساط العسكرية والدينية في العاصمة . وقد زود آرنو ويكول بسكال بالحقائق والمراجع . أما هو فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبي الذي استشرف مستوى جديداً في النثر الفرنسي ، فقد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل الدنيا وتهذيبه .

أما الرسائل الأولى فقد التمس التأييد العام لآراء الجانسينيين في النعمة الإلهية والخلاص ، وهي الآراء التي دافع عنها آرنو من قبل ، وقد قصد بها أن تؤثر في السوربون لتعارض الاقتراح بطرد آرنو . وقد فشلت في هذا ، إذ جرد آرنو رسميا من لقبه وطرد (٣١ يناير) . وحفز الفشل بسكال وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء اعرافهم من تحلل ، وما يشوب فتاوام من ثغرات . وقد نقبا في مؤلفات ليسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا بمبادئ « الاحتمالية » و « التوجيه بالنية » و « التحفظ العقلي » ، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

اللاهوت المسيحي وعباده الصينيين لأسلافهم (٢٩) - وإن لم يتهما اليسوعيين. صراحة بتبرير الوسائط لبلوغ الغايات . وكان هذا المهدي يزداد حماسة كلما قوت الرسائل وكشف له آرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار . وبعد الرسالة العاشرة أطلع عن أ كذوبة الباريسي كاتب الرسائل للإفليمي ، وأماط اللثام عن شخصه ، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً في بلاغة تضطرم سخطا ، وذكاء يفيض تهكما . وكان ينفق أحياناً عشرين يوماً في تحرير رسالة واحدة ، ثم يهرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور . وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بعذر فريد في بابه ، إذ قال « لم يتسع لي الوقت لاختصارها (٣٠) » . وفي الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة (٢٤ مارس ١٦٥٧) تمحدي البابا نفسه . ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) تنديداً آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة للخطأ ، كما أخطأ في حالة جاليليو (٣١) (وذلك شعور بسكال) . وأدان البابا الرسائل (٦ سبتمبر ١٦٥٧) ولسكن فرنسا المثقفة كلها قراءتها .

أكانت الرسائل منصفة لليسوعيين ؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقلاً أميناً ؟ قال عقلاني مشقف « صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحياناً دون موجب ، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة ، وأن ضغط الفقرات الطويلة في جمل قصيرة يشعرك في بعض الحالات بأن في هذا إجحافاً بالمؤلف » ثم يقول « ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبياً » (٣٢) وهناك لأن إجماع على أن المختارات دقيقة في جوهرها (٣٣) على أنه لا بد من التسليم بأن بسكال اتزع أشد فقرات بعض المفتين إزواجاً وشبهة من شياقها ، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأي قبيح غلب كثير ، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتآمرون على هدم أخلاق العالم المسيحي . وقد أطرى فولتير براعة الرسائل بوصفها أدبا ، ولسكنة رأي أن « السكتاب كله مبني على أساس زائف . فقد نسب للمؤلف في حذق إلى الجماعة اليسوعية

كلها الآراء المتطرفة التي قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك (٣٤) ، الذين خالفهم كثير من اليسوعيين . وأسف دليلير لأن بسكال لم يتهكم بالجانسينيين أيضا ، لأن « تعاليم جانسن وسان سيران المروعة كانت تتيح على الأقل مجالا للسخرية لا يقل عما أتاحته التعاليم الطيبة التي نادى بها موليا وتامبوران وفاسكوز (٣٥) » .

وكان تأثير « الرسائل » هائلا . صحيح أنها لم تخضع لتوها شوكة اليسوعيين — ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك — ولكنها فضحت شطط المفتين فضحا حمل الاسكندر السابع نفسه على إدانة « التحلل » ، رغم مواصلته معارضة الجانسية ، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى (١٦٦٥ - ٦٦) (٣٦) . و « الرسائل » هي التي أضفت على كلمة الافتاء الدينى « Casuistry » مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التي تدافع عن الأفعال أو الأفسكار الخاطئة . ثم إنها أضافت آية من آيات الأسلوب إلى ذخيرة الأدب الفرنسى . وكان فولتير قد طاش قرنا قبل فولتير . فهنا ذكاء فولتير المرح ، وتهكمه البتار ، وفسكاهته الشكاكية ، وقدره العنيف ، وفي الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم ، الذى أنقذ فولتير من أن يكون موسوعة سخرية وتهكم . وقد وصف فولتير نفسه الكتاب بأنه « خير ما كتب وظهر فى فرنسا إلى الآن » ، وكان رأى أنفذ النقد قاطبة وأكثرهم رهافة وتمييزا أن بسكال « ابتكر النثر الرائع فى فرنسا (٣٨) » . وحين سئل بوسويه أى كتاب كان يؤثر أن يؤلف لو لم يؤلف كتابه قال ، إنه رسائل بسكال الإقليمية (٣٩) .

ح — فى الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس فى ١٩٥٦ ليشرف على نشر « الرسائل » ، وطاش هناك طوال السنوات الست الباقية من عمره . على أنه لم يهجر العالم ، وفى سنة ٧ - قصة الحضارة

موته ذاتها شارك في تنظيم خدمة منتظمة بالمركبات في العاصمة - وهي البذرة لشبكة الأمانوييسات الحالية . ولكن حدثين وقمالة جددا تقواه ، وحمله على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به في الأدب والدين . ذلك أنه في ١٥ مارس ١٦٥٧ حصل اليسوعيون من الملكة الأم على أمر بإغلاق مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء في البور - رويال . وأطيع الأمر في هدوء ، وأرسل الأطفال - وكان من بينهم راسين - إلى بيوت الأصدقاء ، وتفرق المعلمون عزوين . وبعد تسعة أيام (وهو تاريخ صدور آخر الرسائل الإقليمية) وقع مابدا معجزة في كنيسة دير الراهبات الذي تذكر صفوه . ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات ، واسمها مارجريت بيريه ، كانت تشكو من ناسور دمعي مؤلم يرشح صديدا كريها من العينين والأنف . وأهدى أحد أقرباء الأم أنجليك للبور - رويال شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذي عذب به المسيح . وفي ٢٤ مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن في احتفال مهيب وسط ترتيب المزامير . ولثمت كل منهن الأثر المقدس بدورها ، ولما رأت إحداهن مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحه الفتاة . وروى أن مارجريت أعربت ذلك للمساء عن دهشتها لأن عينها لم تعد تؤلمها ، وأدهش أمها ألا ترى أثرا للناسور ، وقرر طبيب دعى لفحص الفتاة أن الصديد والورم قد اختفيا . وأذاع هو ، لا الراهبات ، نبأ هذا الذي سماه شفاه معجزة . ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على علم سابق بناسور مارجريت بيانا قرروا فيه أن معجزة - في رأيهم - قد حدثت . وبحيث موظفو الاسقفية الأمر ، وانتهوا إلى نفس النتيجة ، وأذنوا بإقامة قداس شكر لله في البور - رويال . وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة ويقبلوها ، وهلت باريس الكاثوليكية كلها للمعجزة ، وأمرت الملكة الأم بالكف عن كل اضطهاد للراهبات . وماد المتوحدون إلى ليجراج (في عام ١٧٢٨ أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

على أن عصر المعجزات لم ينته) . أما بسكال فقد صنع لنفسه شعار نبالة كان عبارة من عين يحيط بها إكاييل من الشوك ، وقد كتب عليه Selo cui credidi — « أعرف من صدقت (٤٠) » .

وعكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني بكون بمثابة وصيته الأخيرة . ولسكن قصارى ما وجد في نفسه القدرة عليه : هو أن يدون في إيجاز خواطر منفصلة يجمع بينها في ترتيب اجتهدى ولكنه قوى . ثم عاودته أوجاعه القديمة (١٦٥٨) ، في شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضيف على هذه المذكرات تسلسلا متماسكا أو شكلا بنائيا . فلما مات قام صديقه الدوق دروانيه وعلماء البور — رويال بتحرير ونشر هذه المادة ومحوها « خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل (١٦٧٠) » . وقد خشوا أن تفضى هذه « الخواطر » المبتورة التي خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى ، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشككة ، وأدخلوا تعديلا على بعض ما بقي مخافة أن يسيء إلى الملك أو الكنيسة لأن اضطهاد البور — رويال كان قد توقف في تلك الفترة ، وكره المحررون تجديد الجدل . ولم تنشر « خواطر » بسكال Ponsées في نصها الكامل الموثوق إلا في القرن التاسع عشر .

ولو شئنا أن نغامر بفرض ترتيب عليها لجعلنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيك . ونحن نشعر ثانياً — إذ نصفي إلى بسكال — باللطمة الهائلة التي كان فلك كوبرنيك وجاليليو يكيلها للمسيحية التقليدية :

« ليتأمل الإنسان الطبيعة كلها في جلالها الكامل السامي ، ليقص عن بصره الأشياء الوضيعة التي تحيط به ، ولينظر إلى ذلك النور للتوهج الذي وضع كأنه مصباح ابدى ينير العالم ، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التي يرسمها ذلك النجم ، وليأخذ العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التي تتحرك في قبة السماء .

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد ، فليجأوزه الخيال ٠٠٠ فكل هذا العالم المرفى ليس إلا عنصرا لا يدرك في صدر الطبيعة العظيم . ولا يستطيع أى تمكير أن يمتد إلى هذا المدى ٠٠٠ إنها كرة لانهاية مركزها في كل مكان ، ومحيطها في غير مكان (٤٢) . هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر فطرة الله ، حتى أن خيالنا يتوه في هذا الخاطر .

ثم يضيف بسكال في سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفيه ، « ان الصمت الأبدى الذى ياف هذا الفضاء اللانهاى يخيفنى (٤٣) » .

ولكن هناك لانهاية أخرى — وتلك هى لانهاية صغر الذرة « التى لا تقبل الانشطار ، وقبولها النظرى للانقسام قبولا لاحدله ، فهما كانت ضالّة الحد الأدنى الذى نختزل به أى شىء ، فإننا لأنك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضا له أجزاء أصغر منه . وعقلنا يتذبذب في حيرة وارتياح بين الشاسع غير المحدود ، والدقيق غير المحدود .

« إن من يتأمل نفسه على هذا النحو تخيفه نفسه ، وإذا أدرك أنه معلق ٠٠٠ بين هاويتي اللانهاية والعدم ، ارتعد فرقا ٠٠٠ وبات أميل إلى تأمل هذه العجائب في صمت منه إلى ارتيادها بغرور . فما الإنسان في الطبيعة ، بعد كل شىء ٠٠٠ ؟ انه العدم إذا قيس بغير الحدود ، وهو كل شىء إذا قيس بالعدم ، إنه وسط بين العدم والسكل . وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين ، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها ، يلتقما سر لاسبيل إلى استكناها ، وهو عاجز على السواء عن رؤية العدم الذى أخذ منه ، واللانهاى الذى يغمره (٤٤) . » (٥)

(٥) يقول سانت ييف « ليس في الالف الفرنسية منجات أروع من المخطوط البسيطة المبارمة التى نحتويها هذه الصورة التى لانظير لها » (٤٥) .

ظالم إذن ما هو إلا ادعاء غبي . فهو مبني على العقل ، المبني على الحواس ، التي نخدعنا بعشرات الطرق . وهو محدود بالحدود الضيقة التي تعمل حواسنا داخلها ، وبقصر صغر الجسد قصراً قابلاً للفساد . وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم — أو يعطي أساساً مسكيناً للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فكيف بأدراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين ، فضلاً عن فهمه لله . وفي العرف ، لا بل في الخيال والأسطورة ، حكمة أكثر مما في العقل و « أحكم العقول يتخذ تلك المبادئ » ، التي أدخلها خيال الإنسان بتعجل في كل مكان ، مبادئ له (٤٦) » وهناك نوطان من الحكمة : حكمة الجماهير البسيطة « الجاهلة » ، التي تعيش بحكمة التقاليد الموروثة والخيال (أي الطقوس والأساطير) ، وحكمة الحكيم الذي نفذ إلى صميم العلم والفلسه ليبدرك جهله (٤٧) . إذن « لا شيء أروح للعقل من أن ينهذ العقل » و « الاستخفاف بالفلسفه ملاك الفيلسوف الأصيل (٤٨) » .

ومن ثم رأى بسكال أنه من الحكمة إقامة الدين على العقل ، كما حاول حتى بعض الجانسنيين ، أن يفعلوا . فالعقل لا يستطيع أن يثبت وجود الله ، ولا الخلود ، لأن الأدلة في الحالين شديدة التناقض . كذلك لا يصلح الكتاب المقدس أساساً نهائياً للإيمان ، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة ، وربما كان للنبوءات التي يفسرها الاتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة (٤٩) . أضف إلى ذلك أن الله في الكتاب المقدس يتكلم بالآرقام ، التي يضللنا مدلولها الحرفي ، والتي لا يدرك معناها الحقيقي إلا من وهبوا النعمة الإلهية . « أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله ما لم نؤمن بهذا المبدأ ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعصى البعض وينير بصائر البعض (٥٠) . (وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسى قلب فرعون) .

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلقفنا . فنذا الذي يستطيع أن يفهم ، في الإنسان ، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

للأدوية وذهن واضح اللامادية؟ «فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعى المادة نفسها» (٥١). «إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم — «وأى مادة تستطيع أن تفعل هذا» (٥٢)؟ «وطبيعة الإنسان، التى يترج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً، تسكر^(٥٣) التناقض بين العقل والجسد، وتذكرنا بالكثير الذى زعمت الأساطير اليونانية أنه غرزة لها رأس أسد وذيل ثعبان.

«يا لهذا الإنسان من كبر! ياله من بدعة، ووحش، وفوضى، وتناقض، ومعجزة! هذا الحكم فى كل الأشياء، ونموذج الغباء فى الأرض، مستودع الحق، وبالوعة الضلال والشك، مفخرة السكون ونفايته. فهذا الذى يحل لنا هذا اللغز المعقد» (٥٤)؟.

ان الإنسان — من الناحية الخلقية — لغز غامض. فكل ضروب الأثوم تبدو مستقرة فيه. «ما الإنسان إلا مخلوق خداع للظهور، ككذوب، منافق، مع نفسه ومع غيره» (٥٥). «كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً، وإن تجدد أربعة أصدقاء فى العالم» (٥٦). «ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالقدر» (٥٧) ثم يالغروره الذى لا قرار له ولا شيع، «ما كنا انركب البحر أبداً لولا حملنا بأننا سوف نرعى قصتنا... أننا نفقد الحياة مغتبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا... وكل الناس، حتى الفلاسفة، يتحنون أن يكون لهم معجبون» (٥٨). «ومع ذلك فإن من جوانب عظمة الإنسان أنه من شره، وكرهه، وغروره، أنشأ دستوراً من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره، واشتق من شهوته مثلاً أعلى فى الحب» (٥٩).

وشقاء الإنسان لغز آخر. فلم شقى السكون هذا الشقاء العلوي لا ينجب نوعاً من الخليقة شديدة الهشاشة فى سعادته، كثير التعرض للألم فى كل عصب، وللحزن فى كل حب، وللموت فى كل حياة؟ ومع ذلك فإن «جلال الإنسان عظيم فى معرفته أنه شقى» (٦٠).

«ما لإنسان إلا قصبة، وهى أوهى ما فى الطبيعة، ولكنه قصبة مفكرة.

والكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لكي يسحقه ، فنفخة بخار ، أو قطرة ماء ، تكفى لقتله — ولكنه ، بعد أن يسحقه الكون ، لا يزال أنبل من هذا الذى يقتله ، لأنه يعرف أنه مفارق الحياة ، أما الكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان (٦١) .

وليس من هذه الألفاظ لغز يجد في العقل جواباً له . ولو ركننا إلى العقل وحده لحكمنا على أنفسنا بـ « بىرووية » تشكك في كل شيء إلا الألم والموت ، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تكون تبريراً عقلانياً للهزيمة . ولكننا لا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل — أن يكافح ، ويتعذب ، ويموت ، بعسء أن ينجب آخرين ليكافوا ، ويتعذبوا ، ويموتوا ، جيلاً بعد جيل ، في افتقار للهدف ، وغباوة ، وحقارة هائلة . فنحن في قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والكون بلا معنى . فالفقه ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل . « فإن للقلب مبرراته التى لا يعرفها العقل (٦٢) . » ، وخيراً فعمل أن أصغينا إلى قلوبنا وإن « وضعنا إيماننا في الوجدان (٦٣) » . ذلك أن كل إيمان ، حتى بالأمور العملية ، إنما هو ضرب من الإرادة ، وتوجيه للانتباه والرغبة (إرادة الإيمان) . والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل .

أى جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن الغاز الحياء والفكر ؟ الجواب هو الدين . فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، والإنسان نبه ، وبدونه نتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول في إحباط عقلى وعقم محبت . فالدين يعطينا كتاباً مقدساً ، والكتاب يبعثنا بسقوط الإنسان من النعمة ، وهذه الخطيئة الأصلية هى دون غيرها التى تستطيع أن تفسر ذلك الجمع الغريب فى الطبيعة البشرية بين السكره والحب ، وبين الشر الوحشى واشتياقنا للخلاص والله . فاذا ممحنا لأنفسنا بأن نؤمن (مهما بدت سخافة

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية ، وأنه فقدوها بالخطيئة ، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصابوب ، وجدنا بعد هذا سلاماً عقلياً لا يوهب للفلاسفة أبداً . والذي لا يستطيع الإيمان ملعون ، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يشأ أن يمنحه النعمة .

والإيمان رهان حكيم . وهب أن الإيمان لا يمكن إثباته ، فأى ضير إن قأمرت على حقيقته ثم اتضح بطلانه ؟ « لازم عليك أن ترأهن ، وليس لك في هذا خيار ... فلتوازن بين المكسب والخسارة في الرهان على وجود الله ... أنك إن كسبت كسبت كل شيء ، وإن خسرت لم تخسر شيئاً . فرأهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود (٦٤) » . فإذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فأتبع عادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقاً . « تبرك بالماء المقدس ، واطلب تلاوة القدايس ، وهلم جراً ، وهذا كفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية ، وبأن يهدئك » — سيهدى من عقلك المغتر بقدرته النفاذة (٦٥) . واعترف وتناول القربان ، وستجد في هذا راحة وقوة (٦٦) .

ونحن نعلم هذا الدفاع التاريخي إذا تركناه يحتتم على هذه النعمة غير البطولية . فلنا أن نشق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقاميريل كنفس حيرتها ودوختها الحياة ، كأنسان أدرك في تواضع أن عقله الذي أذهل ذكاؤه الصديق والعدو ، ليس كفواً للكون ، ووجد في الإيمان السبيل الوحيد ليضفى على ألمه المعنى والمغفرة . يقول سانت — بيك « إن بسكال رجل مريض ، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرؤه (٦٧) » . ولكن بسكال لو وجه بهذا الرأي لأجاب : السنا كلنا مرضى ؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة . ليرفضه كل من لم يقنع بمعنى في الحياة أكثر من أنها مسار عاجز من ميلاد قذر إلى موت إليم .

« تصور نقرأ من الناس يرسفون في الأغلال وقد حكم عليهم جميعاً

بالموت ، وفي كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين ، والباقيون يتبينون حالهم في حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، وينتظر كل منهم دوره . هذه صورة لحالة الإنسان (٦٨) .

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبحة البشعة التي نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيصحح الأخطاء كلها في النهاية ، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند ؟ .

وقد تمس بسكال في حاجته لأنه لم يبق قط إفاقة حقيقية من الشكوك التي أوحى بها إليه موتيتي ، وملحدو « السنوات التي قضاها في العالم » ، وحياد الطبيعة القاسي بين « الشر » و « الخير » .

« ذلك ما أراه وما يقض مضجعي . فأينما تلفت لم أجد غير الغموض والابهام . ولا تقدم في الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق . فلو أنني لم أر علامات على وجود إله لثبت على الإنكار . ولو رأيت آثار الخالق في كل مكان لسكنت إلى الإيمان في هدوء وسلام . ولكنني في حالة يرئى لها لأنني أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى ، وأقل كثيراً مما يطمئني على وجوده . ولقد طالما تمنيت أن تعلم الطبيعة عن وجوده دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها (٦٩) » .

وحالة القلق العميق هذه ، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين ، هي التي تجعل بسكال يستهوي المؤمنين والشكاكين على السواء . فلقد شعر هذا الرجل بغيبض الملحد من الشر ، وبثقة المؤمن في انتصار الخير ، ولقد عبر من تدويمات موتيتي وشارون الذهنية إلى التواضع للمغيبط الذي أحس به القديسان فرانسيس الأسيسى وتوماس أكينيس . وهذه الصرخة للمنعمية من أعماق الشك ، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت ، هما اللذان يجعلان « خواطر » بسكال أبلغ الكتب قاطبة في النثر الفرنسي . لقد أصبحت الفلسفة أدباً للمرة الثالثة في القرن السابع عشر ، لا في تركيز يسكون الهادي ،

ولا في ألفة ديكارت السارة ، بل في القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة ، ويكتب لقلبه بدمه . في قة العصر الكلاسيكي علا هذا النداء الرومانسي ، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير ، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان . قهنا ، في صبيحة عصر العقل ، وفي عقود هوبز وسبينوزا ذاتها ، وجد العقل منازل له في رجل محتضر .

روت مدام بيريه ، شقيقة بسكال ، أنه كان في سنيه الأخيرة يعاني من « علل مستديمة متفاقة (٧٠) » وانتهى به الأمر إلى الرأي بأن « للارض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين (٧١) » . وكان أحيانا يرحب بالآلام لأنها تصرفه عن المغريات . قال « إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين (٧٢) » . وقد هجر كل اللذات ، وعكف على ممارسة النسك ، وجلد نفسه بحزام ثبتت فيه مسامير من حديد (٧٣) . ووبخ مدام بيريه لأنها تسمح لأبنائها بمناقها . وعارض في زواج ابنتها قائلا : « إن حالة الزوجية ليست خيرا من الوثنية في نظر الله (٧٤) » . ولم يسمح لإنسان في حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة .

وفي عام ١٦٦٢ ، آوى أسرة فقيرة في بيته صدقة من صدقاته الكثيرة . فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلا من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته . ولم يمض طویل وقت حتى لزم فراشه وقد حطمت الآلام المعوية . وكتب وصيته ، فترك نصف ثروته تقريبا للفقراء . واعترف لكاهن ، وتناول القربان الأخير ، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة ، في ١٩ أغسطس ١٦٦٢ وهو لا يجاوز الأربعين . ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبد مريضتان ، وأن في أمعائه قرحا (٧٥) . وقال الأطباء أن محه « ضخم الحجم جدا ، وأن مادته جامدة مكثفة » ولكن خطأ واحدا فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمعية هو الذي كان مقفلا قفلا سليما ، ولعل هذا هو السر في نوبات الصداع الرهيبة التي ابتلى بها .

ووجد على لحاء المخ منخفضان « كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت في الشمع » (٧٦) وقد دفن في كنيسة أبرشية سانت اتيين - دومون .

٥ - البور - رويال : ١٦٥٦ - ١٧١٥

شدت « الرسائل الاقليمية » من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسية باعتبارها بروتستنتية مقنعة . فأصدر البابا الاسكندرية السابع (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية :

« إني أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر ، المؤرخ ٣١ مايو ١٦٥٣ ، حسب معناه الحقيقي الذي حددته دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ ٦ أكتوبر ١٦٥٦ ، وأقر بأنني ملتزم في ضميري بطاعة هذين الدستورين ، وأدين بقلبي وفي التعليم الوارد في قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة في كتابه المعنون « أوجسطينوس » .

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة ، ولكن في ١٣ أبريل ١٦٦١ ، عقب موت مازاران ، أذاع لويس الرابع عشر الأمر ، وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيق ، فوقعها آراو وللتوحدون في هذه الصورة ، ونصحوا راهبات البور - رويال بالحدو حذوم ، ولكن الأم أنجليك - التي كانت طريحة الفراش لإصابتها بالاستسقاء - رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت في السبعين في ٦ أغسطس ١٦٦١ ، وكذلك رفض بسكال وشقيقته جاكلين ، التي أصبحت وكييلة الدير . وقالت جاكلين : مادام الأساقفة لا يملكون من الشجاعة لإشجاعة الفتيات ، فلا بد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة (٧٧) » وأخيراً وقمت كل الراهبات الباقيات على قيد الحياة ، ولكن جاكلين

التي أضلتها مقاومتها الطويلة ماتت في ٤ أكتوبر وهي لا تجاوز السادسة والثلاثين ، وتلاها بسكال بعد عام واحد .

واستنكر الملك خلال ذلك الديباجة الموفقة وأصر على أن يوقع الراهبات الصيغة دون أى إضافة أو تغيير ، ونقل القليلات اللاتي وقمن إلى البور — رويال في باريس ، ولكن أغلبية الراهبات ، تترجمهن الأم آنييس ، صرحن بأنه ليس في وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة . وفي أغسطس ١٦٦٥ حرم رئيس الأساقفة الراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربع عشرة من تناول الأسرار المقدسة ، وحظر عليهن أى اتصال بالعالم الخارجي . وخلال السنوات الثلاث التالية ، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الراهبات يتسلق أسوار البور — رويال — دى شان ليناول الراهبات المحتضرات قربانهم الأخير . وفي ١٦٦٦ قبض على ساسي ، ولوميتير ، وثلاثة آخرين من المتوحدين بأمر الملك ، أما آرنو الذي تنسكروا شعرا مستعاز وسيف ، فقد آوته الدوقة لونيغفيل ، التي كانت تخدمه بنفسها أثناء اختبائه (٧٨) . وتبنت هي وغيرها من النبيلات قنسية الراهبات ، وأقمن لويس بأن يلين ؛ وفي ١٦٦٨ أصدر البابا كلمت التاسع مرسوماً جديداً صيغ في لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله ، وأفرج عن السجناء ، وردت الراهبات للنشقات إلى البور — رويال — دى شان ، وعادت الأجراس تدق في الدير بعد أن صمتت ثلاث سنين . واستقبل الملك آرنو استقبالا وديا ، وكتب هذا كتاباً ضد السكفنين ، ولكن نيكول كتب كتاباً آخر ضد اليسوعيين .

ودام «سلام الكنيسة» أحد عشر طاماً ، ثم ماتت مدام لونيغفيل ، ومات معها السلام . وإذ بدأ الملك يشيخ ، وانقلبت انتصاراته هزائم ، استحال عليه خليطاً من التعصب والخوف ، وساءل نفسه ، أكان الله يعاقبه على تسامحه مع الهرطقة ؟ واتخذ بغضه للجانسلية طابعاً شخصياً ، ومن الأمثلة على هذا

التحول أن لويس رفض تعيين رجل يدعى فونبيرتوى فى احدى الوظائف لشبهته فى أنه جاسنى ، ولكنه وافق على التعيين حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط (٧٩). ولم يستطع قط أن يغتفر لراهبات تحديهن لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة . وضمانا للقضاء على مركز سخطه هذا فى وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد . ووجه نداء للبابا كلنت الحادى عشر لى يصدر إدانة صريحة للجائسية . وبمسد طامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam Domini (١٧٠٥) ولم يكن باقيا على قيد الحياة فى البور — رويال آنئذ سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن فى الستين . وترب الملك موتن بفارغ الصبر .

وفى عام ١٧٠٩ خلف الأب اليسوعى ميشيل تيلبيه البالغ من العمر ستة وستين عاما ، الأب لاشيز ، كاهن اعتراف للملك . فأقر فى ذهن لويس — وكان الملك قد بلغ الحادية والسبعين — أن مصير روحه الأبدى رهن بالإبادة الناجزة الكاملة للبور — رويال . وقد احتج كثيرون من الأكايروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواى ، رئيس أساقفة باريس ، ولكن الملك تغلب على معارضتهم . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجنيد بالدير ، وأطلع الراهبات على رسالة ملكية مختومة تأمر بتفريقهن فورا ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجمعن فيها أمتعتن . ولم يجد بسكاؤهن ولا دموعهن . فدفعن داخل مركبات وشتن فى مخلف الأديار للمثلة التى تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلا . وفى ١٧١٠ هدمت مبانى الدير الشهير وسويت بالتراب .

ولكن الجائسية طاشت . لقد مات آرنو ويكول فى متفاهما بفلاندر (١٦٩٤ — ٩٥) ، ولكن كاهنا فى مصلى باريس يدعى باسكييه كينيل ، دافع عام ١٦٨٧ عن اللاهوت الجائسى فى كتابه « تأملات أخلاقية فى العهد الجديد » . وقد زج به فى السجن (١٧٠٣) . ولكنه هرب إلى أمستردام .

حيث أسس كنيسة جاسنية . وإذا اكتسب كتابه التأييد الكثير من الأكليروس العلماني الفرنسي ، فقد أقنع لويس البابا كلمنت الحادى عشر بأن يصدر مرسوم Unigenitus (٨ سبتمبر ١٧١٣) الذى أذان ١٠٤ قضية نسبت إلى كينيل . وقد استاء كثير من الأحرار الفرنسيين من المرسوم لأنه تدخل بابوى فى شئون الكنيسة ، واتحدت الجاسنية مع أحياء للحركة للغاية . فلما مات لويس الرابع عشر ، كان فى فرنسا من الجاسنيين أكثر مما كان فيها فى أى عهد مضى (٨٠) .

ويصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة ، وثارث ثورة ملك ، حول مشا كل عويصة تتصل بالنعمة الآلهية ، والجبرية ، وحرية الإرادة ، ولكننا ننسى أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهمية وخطر . وكانت الجاسنية الجهد الأخير الذى بذلته النهضة الأوربية فى فرنسا ، والانتفاضة الأخيرة للعصور الوسطى . ونحن إذا تأملناها فى منظور التاريخ بدت لنا رجعية لا تقدما . بيد أن تأثيرها فى عدة نواح كان تقدما . فقد كالت حينها فى سبيل قسط من الحرية — وإن كنا سنجدتها فى أيام فولتير أشد تمسكا من البابوية (٨١) . وحدث من شطط الإفتاء الدينى . وكانت غيرتها على الأخلاق ثقلا نافعا أمام سياسة التراخى فى أمور الاعتراف ، تلك السياسة التى ربما شاركت فى تدهور الأخلاق الفرنسية . كذلك كان تأثيرها التعليمى طيبا ، وكانت « المدارس الصغيرة » التى أسستها خير للدارس فى زمانها . وظهر تأثيرها الأدبى لا فى بسكال وحده بل فى كوربى باعتدال ووفراسين بحبوبة ، وهو تلميذ البور — رويال ومؤرخه . أما تأثيرها الفلسفى فكان غير مباشر وغير مقصود ، ففكرتها عن الله قاضيا بالعذاب الأبدى على الشر الأكبر من النوع الإنسانى — بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين ، وجميع المسلمين وجميع اليهود — لعل هذه الفكرة شاركت فى دفع رجال كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت لليسيحى بأسره .

٦- الملك والهييجونوت : ١٦٤٣ - ١٧١٥

لم يكن الملك قد خلس روحه بعد ، فقد بقى فى فرنسا ١٠٠.٠٠٠ ر١ من البروتستنت . وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو فى حماية حرية الهييجونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسيا . أما كولبير فقد أدرك قيمةهم فى تجارة فرنسا وصناعتها . وفى ١٦٥٢ أكد لويس مرسوم نانت (١٥٩٨) الذى أصدره جده هنرى الرابع ، وفى ١٦٦٦ أعرب عن تقديره لولاء الهييجونوت خلال حرب الفروند ، ولكن كان يحزنه ألا تتحقق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت وحدتها السياسية ، وحوالى ١٦٧٠ كتب فى مذكراته فقرة تنذر بالسوء :

« أما عن ذلك العدد الكبير من رعاياى الذين يدينون بما يسمونه المذهب الأصلاحي ، وهو شر ٠٠٠٠ انظر إليه بحزن ٠٠٠ فيخيل إلى أن أولئك الذين أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفتنوا إلى طبيعة هذا الشر ، الذى نجم بعضه عن حرارة فى العقول ، والذى يجب أن يترك ليدوى ويموت دون أن يحس به أحد ، بدلا من أنارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة . ٠٠٠ وقد آمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهييجونوت فى مملكتى تدريجيا هو أولا عدم الضغط عليهم اطلاقا بأى قيد صارم جديد ، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليه من أسلافى دون منعهم أكثر منه ، وحتى قصر تنفيذ داخل أضيق الحدود التى تجهزها العدالة واللياقة (٨٢) » .

وفى هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص . وهذا رأى ملك مطلق السلطة ، أخذ عن بوسويه شعار « ملك واحد ، وقانون واحد ، وعقيدة واحدة » . فلم يعد ذلك التسامح الذى دان به ريشليو الذى كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفاء أيا كانت عقيدتهم . ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لمن يعين فى هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين ، آملا بذلك أنه سيشجع المرتدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية .

أما الكنيسة نفسها فلم تكن قد وافقت قط على التسامح الذي كثره مرسوم نانت ، ففي ١٦٥٥ طالب مجمع الكليريكي بتفسير أشد صرامه للرسوم . وفي ١٦٦٠ طلب مجمعهم إلى الملك أن يغلق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة ، وفي ١٦٧٠ أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانوناً على إنكار الهرطقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغي فصلهم عن آبائهم ، وفي ١٦٧٥ طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعي (٨٣) . وكان رأى بعض رجال الدين الورعين اللطفاء مثل الكردينال ديبرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملي الوحيد في التعامل مع البروتستنتية (٨٤) ، وألح الخبر تلو الخبر على الملك بهذه الحجة ، وهي أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعي ، الذي يرتكز على الفضيلة ، التي تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة . وشارك العلمانيون الكاثوليك في هذه الحجة ، وأباحت القضاة الحكومة عن صدمات مكثرة الأمن بين المذاهب المتنافسين في المدن — هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية ، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع .

وشيئاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحملة مخالفاً في ذلك فطرته الأميل إلى الخير ، وإذ كان على الدوام في حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة ، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحة كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم . ودفعته عوامل أخرى في نفس الاتجاه ، فلقد كان يشجع — بل يرشو — تشارلز الثاني لكي يحول انجلترا إلى الكاثوليكية ، فكيف يتأتى في الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية في فرنسا ؟ ألم يوافق البروتستنت في صلح أوجزبورج (١٥٥٥) وبعبء على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه ؟ وألم ينف الحكم البروتستنت في ألمانيا وفي الأقاليم المتحدة الأسراتى رفضت ديانة الأمير ؟

وكان لويس ، منذ أن بدأ حكمه الفعلي قد أصدر — أو أصدر وزراؤه بموافقته — سلسلة من المراسيم التي اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء تاماً . ففي ١٦٦١ حرم على البروتستانت العبادة في معظم مساحة جيكس ، قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جيكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور المرسوم ، وكان يعيش في هذا الاقليم سبعة عشر ألف بروتستانت ، وأربعمائة كاثوليكي فقط (٨٥) . وفي ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلى الحرف في الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك (٨٦) ، وفي ١٦٦٥ سمح للصبيان في الرابعة عشرة والبنات في الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك آبائهم ، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم (٨٧) . وفي ١٦٦٦ حظر على الهيجونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف ، وفي ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهيجونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع في قبضة السلطات ومصادرة بضائعه (٨٨) . وكان كل من ساعد هيجونوتياً على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله في سفن الأسرى مدى الحياة (٨٩) . وفي ١٦٧٧ سمح لويس بوقف « صندوق للمهتدين » تصرف منه مبالغ ، متوسطها ستة جنيهات للفرد ، لكل هيجونوتي يقبل اعتناق الكاثوليكية . وضماناً لثبات المهتدين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً (١٦٧٩) يقضى بنفي جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم (٩٠) . ثم قطع هذا السيل من التحريكات احتجاجاً لماخب براندنبورج وشكاوى كولبير مما تحدثه هذه القوانين بالتجارة من كساد ، واشتغال الملك بمحملاته الحربية ، ولكن تصالحه في ١٦٨١ مع الكاثوليكية ، الأمرة بالاعتصار على امرأة واحدة ، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على الهيجونوت ، فقال لأحد مساعديه إنه يشعر « بالتزام لا مفرص منه بهداية جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة » (٩١) . وفي ١٦٨٢ أصدر خطاباً — وأمر جميع الرعاة البروتستانت بأن يقرءوه على شعبهم — بهدفيه الهيجونوت « بويلات لا تقاس بما سبقها هولا وفتكا » (٩٢) . وخلال السنوات الثلاث

٨ — قصة الحضارة

التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهيجونوت البالغ عددها ٨١٥ ، وهدم الكثير منها ، وحين حاول الهيجونوت العبادة على أنقاض كنائسهم للهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمريدين على الدولة .

وكانت حملات الخيالة *dragonnades* قد بدأت خلال هذا ، فقد كان من العادات القديمة في فرنسا أن يسكن الجنود في الكومونات أو البيوت وعلى حسابها . واقتراح لوفوا وزير الحرب على الملك (١١ أبريل ١٦٨١) إعفاء معتنقي الكاثوليكية الجدد عامين من هذا الإيواء للجنود ، فأصدر للملك الأمر ، وعلى ذلك أمر لوفوا المديرين العسكريين لإقليمى بواتو وليموزان بأن ينزلوا خيالاتهم مساكن الهيجونوت ، لاسيما الأثرياء منهم . وفي بواتو سمح المرشال ماريك لجنوده بأن يفهموا أنه لن يسوءه أن يعاملوا مضيفيهم البواسل بشيء من الغيرة الرسولية ، وراح الجنود يسرقون الهيجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم ، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ ماريك ، ولما استمر طرده من وظيفته (٩٣) ، وفي ١٩ مايو أمر بوقف هداية الهيجونوت بطريق إيواء الخيالة ، وشجب أعمال العنف التي ارتكبت في بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستانتي (٩٤) . وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة ، ولكنه دبرهم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك . وانتشرت حملات الخيالة في أرجاء كثيرة من فرنسا ، فأدخلت في الكاثوليكية آلافًا من المهتدين . وأسكرت مدن وأقاليم - كويبيليه ، ونيم ، وبيارن - مذهبها الكالفي على بكرة أبيها ، وتظاهر أغلب الهيجونوت باعتراف الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر ، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدين القوانين . وأبلغ لويس أنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهيجونوت ، وأن مرسوم نانت أصبح بلا معنى . وفي ١٦٨٤ انقسمت الجمعية العامة للكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية ، و«توطيده» ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد في فرنسا (٩٥) .

وفي ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغى الملك مرسوم ثافت باعتباره مرسوماً
اللازم له الآن في فرنسا التي تدين كلها تقريباً بالكثلكة . فحظر منذ ذلك
التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر
بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، وأمر
رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا في ظرف أربعة عشر يوماً ،
ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حرمت وإلا كان عقاب المهاجرين
تشغيلهم في سفن الأسرى مدى الحياة . ووعد المخبرون بنصف بضائع
المهاجرين العلمانيين (٩٦) ، وقضى بأن يعمد جميع الأطفال المولودين في
فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكي ،
ووعدت فقرة أخيرة بالسماح للقله الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض
المدن آمنين . ونفذت المادة في باريس وضواحيها ، وحى رئيس الشرطة
التجار الهيجونوت هناك وطمانهم ، ولم يكن هناك حملات خيالة في باريس
أو قربها ، وكان في وسع المراقص أن تمضى في فرساي ، وفي وسع الملك
أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير ، ولكن حملات الخيالة استمرت في كثير
من الأقاليم بتحريض من لوفوا (٩٧) ، وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب
والتمذيب . يقول الحجة الفرنسي الأكبر في إلغاء مرسوم نات :

« لقد أذن للجنود أن يقتفوا كل جريمة إلا القتل . فكانوا يكرهون
الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء ، ويقذفون بهم في البطاطين إلى
أعلى ، ويصبون الماء المغلي في حلقهم . . . ، ويضربون بطون أقدامهم ،
وينتفون لحام . . . ، ويحرقون أذرع مضيقهم وسيقانهم بلهب الشموع . . . ،
ويكرهونهم على أن يقبضوا على الحجر المذهب بأيديهم . . . ، ويحرقون
أرجل الكثيرين بإمساكها طويلاً أمام نار كبيرة . . . ويلزمون النساء بأن
يقفن عرايا في الطريق يحتملن هزم المسارة واهاناتهم . وقد أوتقوا مرة
أما مرضعاً إلى صود سرير وأمسكوا برضيعها بعيداً عنها وهو يهرخ في
حلب ثديها ، فلما فتحت فمها لتتوسل إليهم بصقوا فيه (٩٨) . »

ويرى ميشليه أن إرهاب ١٦٨٥ للقدس هذا كان أمتع كثيرا من إرهاب عصر الثورة في ١٧٩٣ (١٩). وقد أكرر نحو ٤٠٠.٠٠٠ من « المهتدين » على حضور القداس وتناول القربان ، وحكم على الذين بعقوا قطع القربان للمكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق احياء (١٠٠). وزج بالذكور من الهيجونوت للعائدين في سجون تحت الأرض أو زنايات غير مدفأة . أما نساء الهيجونوت للمعنات في العناد فقد حبسن في الأديار حيث لقين على غير توقع للمعاملة الرحيمة من الراهبات (١٠١).

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة . وسنسمع أنباء القودوا في الدوفينييه الفرنسية ويديمونت السافوية في مكان لاحق من هذا الكتاب . وفي أودية سلسلة جبال السيغين في اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت « المهتدين » بإيمانهم سرا ، مترقبين الوقت والفرصة للتحرر . وقد أكد لهم « أنبيائهم » الذين أدعوا الوحي الإلهي بأن الوقت قد اقترب ، فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية ، شكل الفلاحون جماعات متمردة من « السكاميزار Camisards » الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضا في الليل . وفي إحدى المارك قتلوا الأب شيلا الذي كان يضطهدهم بغيرة شديدة ، ففأجابه فوج من الجند وذبحهم دون تمييز ، وهدم بيوتهم وخرّب محاصيلهم (١٧٠٢) . وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضراوة ، إلى أن اقنعتهم بالصلح وسائل المرشال فيلار النوفيقية .

ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا في ١٦٦٠ والبالغ عددهم ١٠٠.٠٠٠ ر ١٥٠.٠٠٠ ، فرنحو ٤٠٠.٠٠٠ في العقد الذي تخلله إلغاء مرسوم نانت عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم . وطاشت مئآت قصص البطولة قرلة بأكله بعد تلك السنين اليائسة . ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكانا لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيدوا على ستة عشر ألفا . وقدم لشارل الثاني وجيمس الثاني للمعونة للمادية

لهيجونوت على الرغم من كنهلكتهما ، وسهلا امتنعاهم في الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية . واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالا وديا حتى أن أكثر من خمس سكان برلين في ١٦٩٧ كانوا فرنسيين . وفتحت لهم هواندة أبوابها وبنت مئات البيوت لأيواء الوافدين واقترضهم للمال ليقيموا مصالحهم وكفلت لهم كل حقوق للمواطنة ، وانضم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستنت واليهود في جمع المال لإعانة الهيجونوت . ولم يستف اللاجئون الشاكرون يائراء الصناعة والتجارة في الأقاليم المتحدة ، بل إنهم تطوعوا في الجيوش الهولندية والإنجليزية التي خاضت القتال ضد فرنسا ، ورافق بعضهم وليم الثالث أو تبعه إلى إنجلترا ليساعده على جيهس الثاني . أما المرشال شومبيرج السكافنى الفرنسى الذى أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشا إنجليزيا ضد الفرنسيين ومات وهو يزمهم في معركة البوين (١٦٩٠) . وفي كل بلد من هذه البلاد المضيفة جلب الهيجونوت مهاراتهم في الحرف والتجارة والمال ، وأقامت أوروبا البروتستنتية كلها من انتصار الكاثوليكية في فرنسا . وشغل صناع الحرير الفرنسيون حيا بأكله من أحياء لندن ، وأصبح المنفيون الهيجونوت في إنجلترا شراح الفسكر الإنجليزى ومترجميه لفرنسا ، فهدوا بذلك لغزو يسكون ونيوتن ولوك للعقل الفرنسى .

واستنكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سرا تلك المذابح التى رافقت إلغاء المرسوم ، وأمدوا كثيرا من النحاياء بالمعونة وقدموا لهم المأجأ خفية . ولكن الكثرة العظمى هلات للقضاء على الهيجونوت باعتباره قة إنجازات الملك ، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن ، في النهاية ، بلدا كاثوليكيا موحدا . وأثنى كبار الكتاب أمثال بوسويه وفنيلون ولافوتين ولا برويير ، وحتى الأب الجانسنى آرنو ، على شجاعة الملك فى تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة . وكتبت مدام دسفينيه تقول « ليس هناك أبدع ولا أروع . ولم يصنع

ملك ولن يصنع شيئاً أخله من هذا (١٠٢) ». أما لويس نفسه فأسمعه أن يكمل - كما خيل إليه - عمالاته ولا ولكنه مقدس . يقول سان سيمون : -

« لقد آمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين . وكتب الأساقفة للدائع التي تشيد به ، وجعل اليسوعيون المنابر تتغنى بالثناء عليه ... ولم يكن يسمع غير الاطراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الاتقياء الصادقون يثنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنين ينحرفون إلى الخطأ ، والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج ، والوثنيين يحاربون الحق والمؤمنين المجاهرين بإيمانهم والشهداء . ولم يستطيعوا أن يطيعوا هذا السيل من الخنث وتدنيس المقدسات (١٠٣) » .

وكان سان - سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ البداية تلك الخسارة الاقتصادية التي ألحقها بفرنسا نزوح هذا العدد الكبير من المواطنين السكادحين . وفقدت كان صناعة نسيجها ، وتور ثلاثة أرباع أموال الحرير فيها . ومن بين الستين مصنعا للورق في إقليم أنجوموا لم يبق سوى ستة عشر ، ومن بين ١٠٩ متجر في مدينة ميزيير لم يبق سوى ثمانية ، ومن بين أربعمئة مصبغة في تور لم يبق سوى أربع وخمسين (١٠٤) . واضمحلت ثغور كرسيليا لفقدتها الأسواق في بلاد أصبحت الآن بفضل جهود الهيجونوت وإرشادهم تلذج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا . وفضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التي أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسي ، ونزحت الصناعات التي جاهد في سبيل تنميتها في فرنسا لتغذي منافسيها . ولما هبطت إيرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت الحكومة من جديد في أيدي المرايين الذين انقذها كولبير من براثنهم . وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار ، والجيش ستعائة ضابط واثني عشر ألف جندي ، ولعل جنوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من عوامل الهزائم التي أوشكت أن تحطم فرنسا في حرب المراتة الأسبانية -

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمته أوروبا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا .

على أن إلغاء المرسوم ربما كان معينا غير مباشر للفنون والعادات ولطائف الحياة في فرنسا . ذلك أن الروح الكلفنية المتشككة في الوثنية والصور المنحوتة والمرح الطائش ثبطلت الفن والأناقة والظرف . ولو أن فرنسا أصبحت بيوريتانية لكانت شذوذاً وخطأ . ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة على الدين الفرنسي . لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية كان خليطاً بأن يجعل لو كريتوس — لو رآه — « سبعة أضعاف ما كان أبيقورية » والإحاد (١٠٥) . « فماذا نراه كان قائلاً الآن ؟ لم تبق نقطة توفف للعقل العالي بين الكاثوليكية والإلحاد . وبينما أفادت البروتستنتية في سويسرة وألمانيا وهولندة وإنجلترا في الإعراب عن الفرد على الكنيسة ، لم يبق في فرنسا أداة استنكار كهذه . فوجدت حركة الانتقاض على الرومانية أنه أيسر لها أن تكون شكاً خالصة من أن تكون بروتستنتية سافرة . وانتقلت النهضة الفرنسية ، غير المعوقة من البروتستنتية ، رأساً إلى حركة التنوير بعد موت الملك .

٧ - بوسويه : ١٦٢٧ - ٨٨

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً ، وتربعت على عرش بهاثها وسلطانها . وكانت رغم ماشاب روحها الجماعية من تمصب ، وما هاب سلطتها من قسوة ، تضم أرق نخبة من الرجال في أوروبا تعلما ، وكان قديسوها ينافسون طغاتها . وكان من أساقفتها نفر ذوو نزعة إنسانية ، عاكفون في إخلاص على الخير العام كما رأوه . ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسي دخولا شارفاً في سنائه دخول بسكال ، وكان في زمانها أكثر بروزاً . وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارع في مبعته بوسويه ، أو فنيلون في شعبيته .

أما جاك بنين بوسويه (واسمه الأوسط Benigno — أى اللطيف — كان أنسب لفنيون) فقد ولد في أسرة ثرية لحام بارز وعضو في برلمان ديجون (١٦٢٧) . نذره أبواه للقسوسية ، وجز شعر رأسه في الثامنة ، وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهناً في كاتدرائية ماز . وفي الخامسة عشرة أرسل إلى كلية نافار بباريس . وفي السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة منزلة حملت نساء الأوتيل درامبويه المثقفات على إقناعه بأن ياتى عليهن عظة في منتصف سهرة الصالون رغم ما طبع عليه من كبرياء مقترنة بالخجل . وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى ماز ورسم قسيساً وتقدم بعد قليل لنيل درجة الدكتوراه في اللاهوت . وقد راعه أن يجد أن عشرة آلاف من بين الثلاثين ألف نفس في ماز كانوا من البروتستنت الهالكين . ودخل في جدل مهذب مع بول فيرى الزعيم الهيجونوتي ، وقد سلم له ببعض المفاسد في الممارسات الكاثوليكية ، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك شر أعظم . وظل على علاقات ودية مع فيرى اثنتي عشر سنة ، تماماً كما سنعلم في فترة لاحقة يجاهد جهاداً حقيقياً مع ليننتز في سبيل إعادة توحيد العالم المسيحي . ولما سمعته آن المساوية يمظ في ماز خيل إليها إنه أرقى من تلك البيئة التي لا تليق بمواهبه ، وأقنعت الملك بأن يدهوه إلى باريس ، فانتقل إليها في ١٦٥٩ .

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة في دير سان لازار برعاية فاسان دبول . وفي ١٦٦٠ وعظ جمهوراً عصبياً في كنيسة « لي مينيم » قرب البلاس رويال . وسمعه الملك ، فتبين في الخطيب الشاب مزيجاً متوازناً من البلاغة ، واستقامه العقيدة ، وقوة الخلق . فدعاه لإلقاء خطبات الصوم الكبير في ١٦٦٢ باللوفر ، واختلف إلى هذه الخطب في تقوى واضحه ، اللهم إلا في ذلك الأحد الذي انطلق فيه على جواده مسرماً ليستر دلويز دلا طالير من الدير . وحفز حضور الملك هذه العظات بوسويه على أن ينق أسلوبه من الجلافات الريفية ، والاستشهادات السكولاستية ، والحجج الجدلية .

ذلك أن أفاقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس ، فأثرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغة القانونية التي اشتهر بها ديموستين وشيشرون . وفي أثناء السنوات الثمانية التالية وفق بوسويه في أن يكون الخطيب المفضل في كنائس القصر ، ثم أصبح المرشد الروحي لعدد من كبريات النبيلاب مثل هنرييتا « مدام » دورليان ، و مدام دلو نجفيل ، و مدموازيل دمو باناسيه (١٠٦) وكان في بعض عظائمه يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة ، مغالياً في تملقه عادة ، ولكنه دعاه مرة بحمارة إلى أن يهجر زناه و فجوره ويعود إلى زوجته . ففقد برهة رضا الملك ، ولكنه استرده حين هدى تورين إلى الكاثوليكية . وفي ١٦٦٧ اختاره لويس ليؤن أن المساوية في مائتها ، وبعد عامين التي عظه فوق جنان هنرييتا مارياملكة انجلترا الأرملة ، وفي ١٦٧٠ اضطلع بواجب أليم هو تأيين هنرييتا الصغرى ، ثابته المحبوبة التي فاضت روحها بين ذراعيه في فتنة صباها التي لم يكتب لها بقاء طويل .

والمظتان اللتان أبناهما تشارلز الثاني ملك انجلترا وأخته هما أشهر العظات قاطبة في الأدب الفرنسي — لأن خطاب البابا أوربان الثاني الذي مازال يعوقهما شهرة ، والذي استنفر فيه أوروبا إلى الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥) — هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية . واستهل بوسويه أول هذين التأيين بموضوعه الجريء المفضل ، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ ، وأن الانتقام الإلهي سوف يحل بهم إن لم يستعملوا سلطتهم لخير الشعب ، ولكنه بدلا من أن يرى في تشارلز الأول ملك انجلترا مثالا على هذا العقاب ، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته ، ولم يجد عيباً على الإطلاق في زوجته الوفية ، فصور الملكة للمتوفة قديمة باهتة تهدى زوجها وانجلترا إلى الكاثوليكية . ثم استطرد بإسهاب في موضوع آخر محبب إلى نفسه ، وهو تسكاتر الملل والنحل البروتستنتية التي لا حصر لها ، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة ، وقال : إن « القرد الكبير » كان عقاباً إلهياً على مروق انجلترا

من كنيسة روما ، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بعد إعدام زوجها على هذا النحو الإجرامى الرهيب ! لقد تقبلت أحزانها ككفارة وبركة ، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً فى صلالة متواضعة صابرة ، وأخيراً أثبتت على تمها ، فرد ابنها إلى عرشه ، وكان فى وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد ، ولكنها آثرت عليها دبراً فى فرنسا ، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا فى الاستكثار من أعمال البر .

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ وللذكريات الفرنسية تلك العظة التى ألقاها بوسويه بعد عشرة شهور فوق جنان هنرييتا آن . وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكوندوم فى جنوب غربى فرنسا ، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان — دنى فى كل بهائه الأسقفى ، بتقديمه المنادون ، وعلى رأسه تاج الأسقفية ، وفى أصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التى أهدته إياها يا الأميرة المتوفاة . وفى مثل هذه العظات كان يحدث من انفعال الخطيب تفكيره فى الموت فى صورة طامة ، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى الأمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط ، وأجهرش الخبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجئ القوم بمفاجأة ألمية بهذه العظة التى جعلت فرنسا كلها تنوح وتتعجب من مارق الله . ثم وصف هنرييتا لابتواضية طائفة ، بل بتحيز المحبة — « لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة صمحة خيرة (١٠٧) » — واكتفى بالإلماع فى إيجاز حكيم إلى أن سماعتها لم تتسكفاً مع فضائلها . ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب ركن السنية الركين وحارسها الأمين — تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزد هر كل هذا الشر والظلم على الأرض (١٠٨) . ثم عزى نفسه وجمهوره بذكرى تقوى هنرييتا فى احتضارها ، وبالأسرار المقدسة التى طهرتها من كل علاقتها الأرضية ، فلا ريب إذن أن روحاً رقيقة مطهرة كروحها تستحق الخلاص ، بل إنها لتزين الفردوس نفسه !

وبسبب خطأ نادر فى الحكم على الأخلاق حين لويس بوسويه (١٦٧٠)

معلما للدوفان ، متأثراً في ذلك ببلاغته تلك — وعهد إليه بتدريب ذلك الصبي المتخلف ، المتبلد الحس ، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا . وانصرف بوسويه مخلصاً لهذه المهمة . فاستقال من أسقفيته ليسكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط ، وكتب للويس الصغير كتباً جادة في تاريخ العالم والمنطق والإيمان للمسيحي والحكم وواجبات الملك ، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبي هولة من الكمال والقوة .

وفي إحدى هذه المقالات المسماة « السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة » (١٦٧٩ — ١٧٠٩) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهي بغيرة فاقت غيرة الكردينال بيلارمين في تأييده لسيادة البابوات . ألم يكتب في العهد القديم أن « الله أعطى لكل شعب حاكمه » (١٠٩) وفي العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس « إن السلاطين مرتبة من الله » (١١٠) ، أجل ، ولقد أضاف الرسول قوله « إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة الله ، أو كما قال أشعيا النبي عن كورش إنه « مسيح الرب » (١١١) . إذن فشمس الملك مقدس ، وسلطة الملك مقدسة ومطلقة ، والملك لا يسأل إلا أمام الله . ولكن هذه المسئولية توضع على عاتقه التزامات قاسية . فعليه في كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله ، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الروجات .

كذلك كتب بوسويه للدوفان (١٦٧٩) كتابه الشهير « حديث عن تاريخ العالم » . ذلك أنه حين روعه إلماع ديكرات إلى أن جميع الأحداث في العالم للويعي — إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله — يمكن أن تفسر آلياً بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها ، رد عليه بأن كل حدث كبير في التاريخ إنما هو — على البقيض من ذلك — جزء

من خطة إلهية ، وعمل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة المسيح . ونمو المسيحية لتصبح « مدينة متسعة لله » . وتناول الكتاب المقدس ثانية باعتباره موحى من الله ، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التي أنارتها المسيحية . « لقد استخدم الله الأشوريين والبابليين ، ليعاقب شعبه المختار ، والفرس ليردم إلى وطنهم ، والاسكندر ليعصمهم ، وأنطيوخس ليمتهنهم ، والرومان ليصوبوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا » . فإذا بدا لنا في هذا الرأي إحماقة ، فإن علينا أن نذكر أنه كان أيضا رأى كتاب التوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله في ثقة . ومن ثم فقد بدأ بخلاصة لتاريخ العهد القديم ، وقام بهذه المهمة بمساعف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة . واعتمد ترتيبه الزمني على تقويم أوشير رئيس الأساقفة ، فأرخ الخليقة بسنة ٤٠٠٤ ممر بوسويه مرور الكرام بتلك الأمم التي لم يشر إليها الكتاب المقدس ، ولكنه وصفها وصفا بجلايم على بصيرة وقوة ملحوظتين ، وأبدى فهما عطوفا للفضائل والإنجازات الوثنية . وقد رأى بعض التقدم خلال مشكال الإمبراطوريات الصاعدة والساقطة ، واتخذت فكرة التقدم جسدا ولحا في كتاباته ، وكذلك في كتابات شارل بيرو وغيره من للدافعين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى ، ومهدت الطريق من بعيد لطورجر وكوندرسيه . وخلق الكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ ، وحسب رجل واحد أن يحقق إنجازا كهذا .

على أن الأمير تلميذ بوسويه لم يقدر شرف تأليف الكتب العظيمة لتعليمه . فقد كان في روح بوسويه من الجد والصرامة مالا يجعله المعلم الاطيف والمرضى . وكان أنسب لطبيعته أن يرشد في رفق لويژ دلافالير لتهرب من حياة الزنا إلى الدير ، وقد ألقي العظة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة . وفي ذلك العام (١٦٧٥) جاهر ثانية بلوم للملك الزير ، واستمع إليه لويس في صبر نافذ ، ولكنه أعاده لتنصب الأسقفية وعينه أسقفا على مو (١٦٨١)

على قرب من فرساي يتيح له أن يتذوق نغمة البلاط وبهاؤه . وكان طوال ذلك الجيل للمتسكبر ، الفارح والقائد العمدة للكليروس الفرنسى ، وقد وضع لأجلهم « للواد الأربع » التى أكدت من جديد « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية . ولقد أفقده عمله هذا قبعة الكردنبالية ، ولسكنه أصبح بابا فرنسا .

ولم يكن بالبابا السيئ . فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مرامها ظل رحيمًا لطيفًا ، وبسط عبادته فوق ألوان كثيرة من المعتقد الكاثوليكي . وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذى تورط فيه الإفتاء الدينى دون أن يتنفر له السخط والاحتقار اللذين إلهبا رسائله الإقليمية . فى ١٧٠٠ أفنح جمعية الكليروس العامة باستنكار ١٢٧ قضية أخذت من فتاوى للفتين اليسوعيين ، وقد ظل على علاقات ودية مع آرنو وغيره من الجانسينيين . وذاع عنه أنه كان متسامحًا فى كرسى الاعتراف ، وأنه استنكر مظاهر التقشف فى العلمانيين ، ولكنه أطرى بحماسة نسك رانسيه ، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلوة فى لاتراب ، ويتمنى أحيانًا أن يظفر بسلام صومعة الراهب . ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة ، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء فى مراتب الكنيسة والدولة . وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير فى موقائلا : « صلى لأجلى لسكى لأحب العالم (١١٢) » . وقد أصبح أشد إصرامة فى أخريات أيامه . وعلينا أن نعتفر له ثنديده بالمسرحيه وبموليير فى كتابه « حقائق عامة عن الملهاة » (١٦٩٤) لأن موليير لم يعرض الدين إلا فى صورته للزمتة المناققة ، ولم يصف رجالا مثل فانسان ديول .

كان بوسويه أشد تمصبا نظريًا منه عمليا . فقد رأى أن من السخف أن يظن أى ذهن فردى مهما عظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتب فى عمر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس فى كرسى القضاء ليحكم على

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة . فالحس المشترك « *Sens commun* » أجدر بالثقة من التفكير الفردي ، ولا يعنى الحس أو الإدراك المشترك ففكر الأشخاص العاديين ، بل الذكاء الجماعى لأجيال علمتها قرون من الخبرة ، الذكاء الذى يتمثل فى أعراف النوع الإنسانى ومعتقداته . فمنا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيرا من هؤلاء جميعا حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التى لا نستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ وبترتب على هذا أن الذهن البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه السلام ، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام ، والمجتمع البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق ، ولكن التفكير الحر بتشككه فى المصدر الإلهى للقانون الخلقى إنما يهدم النظام الأخلاقى برمته . فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة ، و« الذين يؤمنون بأن الملك ينبغى ألا يستعمل القوة فى أمور الدين . . . يرتكبون خطأ مجابيا للتعوى (١١٣) » ولقد أثار الأسقف الإفتاع على الإكراه فى هداية المهرطقين ، ولكنه دانع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير ، ورحب بإلغاء مرسوم نانت لأنه « المرسوم الودع الذى سيكيل للهرطقة الضربة القاضية » . ونفذ القانون فى إقليمه بكثير من التسامح ، حتى لقد كتب الناظر الملكى يقول « ليس فى الإمكان عمل شئ » فى أسقفية مو ، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة فى سبيل هداية الهيجوانوت (١١٤) . وقد ثبت معظم الهيجوانوت فى تلك المنطقة على مذهبهم .

وكان إلى النهاية يعمل نفسه بأن الحجة قادرة أن تسكب حتى هولنده وألمانيا وإنجلترا وتردها للإيمان القديم . وسنراه يفاوض لايبنتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التى اقترحها لإمادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية . وفى ١٦٨٨ كتب رائفته « تاريخ ملال الكنائس البروتستنتية » — وهو الذى قال « بكل » إنه « ربما كان أخطر كتاب وجه ضد البروتستنتية (١١٥) . وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة ، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمراجع ، وهولون من الأمانة كان بدأ يتجسد .

وبذل الأسقف في كتابه محاولة ليسكون منصفاً . فلم يفسد الكنيسة التي تمرّد عليها لوثر ، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب في خلق لوثر ، ولكنه لم يستطع أن يسيغ الفظاظة للبتّهجة التي اختلطت في لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية . ثم صور ملاسكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب . غير أنه كان بأمل في تفكيك ولاء أتباع هؤلاء المصلحين لهم باظهار مواطن ضعفهم الشخصي وخلافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التي زعمت أن لكل إنسان الحرية في تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له ، فشكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يتنبأ بأنه لو ترك هؤلاء الحبل على الغارب لأسفر هذا عن تفتت المسيحية إلى متاهة من الملل والنحل ، وتفتت الأخلاق إلى فردية لا يستطيع أن يكيح جراح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لانهائية له . فن لوثر إلى كالفن إلى كالفن إلى سوكينوس — من رفض البابوية ، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح — ثم من التوحيد (رفض التثليث) إلى الإلحاد ، تلك هي الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان . ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية ، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين ، ومن كالفن إلى كرمويل إلى « المسوين » إلى قتل الملك ، تلك درجات منزلة في تحلل النظام الاجتماعي والسلام . ولا يستطيع سوى دين ذي سلطان أن يعلى الوازع للأخلاق ، ويمنح الاستقرار للدولة ، ويسلح الروح البشرية بالقوة وهي تواجه الحيرة وفقد الأحياء والموت .

لقد كان الكتاب حجة قوية ، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة وبلاغة ، محتوية على صفحات لا ضريب لها في ثر ذلك العصر الترنسي إلا في جدليات بسكال العنيفة و « خواطره » ، ولولا أن التجاهل للعقل قد أحبطه التجاؤد للقوة في فظاطات إلغاء المرسوم لحقق نجاحاً أعظم . فقد ظهرت في الدول البروتستنتية عشرات الردود المفنّدة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

التظاهر بالاحتكام إلى العقل في رجل حبذ النهب والسلب والنفي والمصادرة. والاسترقاق في سفن تشغيل الأسمري حججاً للدفاع عن المسيحية الكاثوليكية. وتساءل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفه في الكاثوليكية أيضاً؟ وأى قرن خلا من الانقسامات في الكنيسة — من الكاثوليك الرومان ، والكاثوليك اليونان ، والكاثوليك الأرمن ، والكاثوليك الشرقيين ؟ وألم يكن جانسنويو البور — رويال في تلك اللحظه يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع ؟ وألم يكن الأكليروس العالي بزمامة بوسويه نفسه في نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما ؟ وألم يكن بوسويه يقاتل فنيلون ؟

٨ - فنيلون . ١٦٥١ - ١٧١٥

كان فرانسوا دسالنيك دلا موت — فنيلون ، النبيل المولد ، الثلاثي الاسم ، كبوسويه سنياً طموحاً ، أسقفاً ورجل بلاط ، ومعلماً لأمر من البيت المالكة ، وكاتباً من خول النثر . ولكنه في غير ذلك كان بينه وبين بوسويه ما بين السماء والأرض من تباين . كتب سان — سيديون معرباً عن إعجابه بالرجل يقول :

« رجل فارغ القوام نحيل الجسد قوى البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشر والذكاء . في سحنته ما يوحى بأنها تتألف من متناقضات ، ومع ذلك ، فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤذى الناظر . فوجهه أبيض وقور ، رزين مرح ، يطالملك منه اللاهوتي والأسقف والنبيل على السواء ، وفي هيئته كما في شخصه يرى الناظر قبل كل شيء رقة وتواضعاً وقدراً فائقاً من رفعة الذهن . لقد كان مسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه (١١٦) » .

وعند ميشليه أن « فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته (١١٧) » —

لأنه كان نعمة الازدهار الأخير لإقطاعى مكتمل فى بيريجوز تزوج آنسة نبيلة رغم فقرها ، ضارباً صفحا عن تدمير أبنائه الكبار ، وألقى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة . وربته أمه ، نشب على أناة فى الحديث ورهافة فى الحس أشبه بأناة حديث النساء ورهافة حسن . وقد أحسن تثقيفه فى الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعى باریس ، فأصبح أديباً لا قسماً خُشب . وكان فى استطاعته أن يبارى أى مهرطق فى الاستشهاد بأقوال الوثنيين ، ويكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى ، الفحل ، الجزل

رسم كاهنا فى الرابعة والعشرين (١٦٧٥) ، وسرطان مارق رئيساً لدير « الكاثوليك الجدد » . وهناك اضطلع بمهمة شاقة هى رد الشابات اللاتى أبعدن عن البروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثولىكى . وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض ، ثم فى استسلام ، ثم فى محبة ، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع فى غرام فنيولون ، ثم إنه الرجل الوحيد المتاح لمن . وفى ١٦٨٦ أرسل إلى إقليم لاروشل ليعاون على هداية الهيجونوت . وقد حذب مرسوم الإلغاء ، ولكنه استنكر العنف ، وأنذر وزراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة . ولما طاد إلى الدير بباريس نشر (١٦٨٧) « رسالة فى تعليم البنات » تسكاد تستشف فيها روح روسوفى دفاعها عن الوسائل اللينة فى التربية . ولمساعين الملك الدوق دوفيليينه مربياً لحفيده دوق برجنديه ، البالغ من العمر ثمانية أعوام ، طلب إلى فنيولون أن يتولى تعليم الصبي (١٦٨٩) .

أما الدوق الصغير فكان متكبراً عنيداً مشبوب العاطفة ، فى طبعه أحياناً شراسة وقسوة ، ولكنه أوتى ذهنك متألماً وذكاء متوقداً . وأحس فنيولون أن الدين وحده هو الكفيل بترويضه ، فأشربه مخافة الله ومحبة معاً ، واكتسب فى الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف

٩ — قصة الحضارة

من شدته فهم عطوف لدور المراهقة . وقد راودته الأحلام باصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها للمستقبل ، فلم الغلام سخافة الحرب ، وضرورة النهوض بالزراعة بدلا من تثبيط همم الفلاحين بالضرائب تجبى لبناء المدن المباشخة ولتحويل الحروب العدوانية . وفي كتابه « حوارات الموتى » الذى ألفه لتلميذه ، وسم بالهمجية « تلك الحكومة التى لا قوانين فيها غير ارادة رجل واحد ٠٠٠ فالحاكم ينبغى أولا وقبل كل شئ أن يكون مطيعا للقانون ، فاذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة » . وكل الحروب حروب أهلية ، لأن الناس جميعا أخوة ، يدين كل منهم للنوع الإنسانى . وهو الدولة الكبرى — يدين أعظم كثيرا من دينه للبلد الذى ولد فيه (١١٨) . أما الملك ، الذى لم يكن ضالعا فى هذا التعليم الذى لا تقهه غير القلة ، والذى رأى تحسنا عجيبا فى خلق حفيده ، فقد كافأ فنيلون برئاسة أسقفية كامبريه (١٦٩٥) . وأخجل فنيلون أحراراً كثيرين بأقامته تسعة أشهر من كل عام فى مقر رئاسته الدينية . أما الشهور الباقية فكان ينغمها فى البلاط تواقا للتأثير فى السياسة ، مواصلا أحيانا تعليم الدوق .

وخلال ذلك كان قد التقى بالمرأة التى قدر لها أن تكون « المرأة القاضية عليه » بمعنى السكامة . هذه المرأة ، واسمها مدام جان مارى دلاموت — جويون ، التى تزوجت فى السادسة عشرة ، وترملت فى الثامنة والعشرين وهى جميلة غنية ، تهافت الخطاب على طاب يدها ، ولكنها كانت قد تلقت تدريباً دينياً مكثفا ليحفظها ضد الرجال الطامعين ، ولم تعج لتقواها منصرفا كافيا فى المراجعة الصورية لشعائر العبادة الكاثوليكية ، فاستمعت فى تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس — لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق فى تأمل إله كلوى الوجود ، وفى استسلام النفس لله استسلاما كاملا محبا . فى مثل هذه المحبة الالهية لم يعد لأمور الدنيا وزن ، وفى مثل هذا التسامى الروحى يجوز للمرء أن يهمل كل اللطائف

الدينية ومع ذلك يرقى إلى السماء ، لا بعد الموت فحسب بل في الحياة أيضاً . وكانت محكمة التفتيش قد أدانت القس الأسباني ميغيل دى مولينوس (١٦٨٧) لأنه بشر بـ « هدوئية » كهذه في إيطاليا ، ولكن الحركة كانت تنتشر في جميع أرجاء أوروبا — في « تقوية » ألمانيا والأراضي المنخفضة ، وبين الكويكرز وأفلاطوني كبردج بأنجلترا ، وبين « المنذرين » في فرنسا .

وقد بسطت مدام جويون آراءها في عدة كتب ببلاغة مؤثرة . فزعت أن النفوس أشبه بالسيول التي انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحة حتى تقني نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر ، فإذا الفردية تتلاشى ، وإذا الوعي بالذات أو بالعالم ، بل الوعي كله ، ينتهى ولا يبقى غير الاندماج في الله . في مثل هذه الحال تكون النفس معصومه ، لا ينال منها خير ولا شر ، ولا فضيلة ولا خطيئة . فهما فعلت ففعلها صواب ، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها . وقالت مدام جويون لبوسويه أنها لا تستطيع أن تطالب المغفرة على ذنوبها ، لأنه لا ذنوب في عالم الوجد الصوفي الذي تعيش فيه (١١٩) . ورأت بعض نساء الطبقة الأرستقراطية في هذه الصوفية لونا رقيقا من التقوى . وكان من بين مريديها السيدات بوفيليه ، وشوفروز ، وبورتمار ، يل — إلى حد ما — مدام دمانتون . واستهوى فنيون نفسه هذا المزيج الساحر من التقوى والثراء والحسن . وكان خلقه هو ذاته مزيجاً معقداً من الصوفية والطموح والعاطفة الرقيقة . فأقنع مدام دمانتون بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس في المدرسة التي أسستها زوجها الملك السرية في سان سير ، وطلبت دمانتون إلى كاهن اعترافها أن ينصحها في أمر مدام جويون ، فاستشار بوسويه ، ودعا بوسويه المتصوفة لتشرح له تعاليمها ، ففعلت . وتوجس الأسقف الحذر فيها خطراً يهدد لاهوت الكنيسة وممارساتها ، لأنها لم تستغن عن الاسرار المقدسة والكاهن

خسب ، بل عن الأنجيل والمسيح أيضاً ، فوبخها ، وناولها القربان ، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعليم . فوافقت أول الأمر ، ولكنها عدلت بعد ذلك . واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها في دير ثمانية أعوام (١٦٩٥ - ١٧٠٣) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش في هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا ، وهناك ماتت عام ١٧١٧ .

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود للتصوف المباح ، فألف كتاباً بمماد « تعاليم عن حالات الصلاة » (١٦٩٦) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها . وتردد فنيلون ، وكتب كتاباً معارضاً مماد « تفسير أقوال القديسين للمأثورة عن الحياة الباطنة » (١٦٩٧) . وأصبح الكتابان اللذان نشرتا في وقت واحد تقريباً مثار نقاش واسع ، احتدم احتدام النقاش حول البور - رويال . أما الملك الذي كان يضع ثقته في بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفته معلماً لدوق برجندييه ، وأمره بأن يلزم أسقفيته في كامبرى . وطلب لويس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون . ولكن إنوسنت الثاني عشر تردد ، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية ، ودفاع فنيلون عن سلطة البابا المطلقة . وضغط لويس على البابا ، فأذعن ، ولكنه توخى غاية الاعتدال في ادانته لكتاب « الأقوال المأثورة » (مارس ١٦٩٩) . وأذعن فنيلون للحكم في هدوء .

ثم راح يؤدى واجباته في كامبرى باخلاص وضمير أكسبها احترام فرنسا ، ولعلهما كانا خليقين باستعراض بوسويه والملك لولا أن طابعا نشر (أبريل ١٦٩٩) برضى فنيلون رواية كان قد ألّفها لتليذه الأمير ووضع لها عنواناً بريئاً في ظاهره « تتممة لأوديسة هوميروس » وهي معروفة لنا باسم (مغامرات تيليماك بن أوليس) . هنا ، وفي أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريباً ، شرح المعلم اللطيف مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية . فترى لسان حاله (منتور) يحذر الملوك بعد أن أقنهم بسياسة السلام قائلا :

« منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين . . . فإلّا النوع الإنسانى كله غير أسرة واحدة . . . وكل الشعوب إخوة . . . وما أتمس القوم الفجار الذين ينشدون المجد القامى فى دماء إخوانهم المسفوكه . . . : إن الحرب ضرورية أحياناً ، ولكنها معرة الإنسانية . فلا تزعموا إلى أيها الملوك إن على المرء أن يبتغى الحرب إن أراد المجد . . . فكل من يؤثر مجده على مفاعر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء ، ولن يكسب غير المجد الزائف ، لأن المجد الحقيقى لا يكون إلا فى الاعتدال والصلاح . . . ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيباً ، لأنه لم يقم لهم وزناً فى فكره ، وأوراق دماءهم فى سفه ليرضى غروراً وحشياً (١٢٠) » .

وقد سلم فنيولون بحق الملوك الإلهى ، ولكن بوصفه قوة منحتهم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس ، وحقاً تحده القوانين :

« إن السلطة المطلقة تهوى بالرعية جماعاً إلى درك العبودية . فهم يتملقون الطاغية إلى حد العبادة . وكلهم يرتعدون فرقا لنظرة منه ، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسيمات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه . ذلك أنه لم يستمد أى قوة من محبة الشعب (١٢١) » .

فى هذه الأسطر رأى لويس الرابع عشر نفسه موصوفاً ، وحروبه مدانة . وبادر أصدقاء فنيولون بالاختفاء من البلاط ، وقبض على طابع « تيلياك » ، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخته . ولكنه طبعه ثانية فى هولندة ، وسرعان ما تداولته الأيدي فى جميع أرجاء العالم القارىء للفرنسية ، وظل أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان (١٢٢) وأكد فنيولون أن لويس لم يكن فى ذهنه فى هذه الفقرات النافذة ، ولكن أحداً لم يصدقه . وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق . ثم لانت قناة الملك ، وممح له بأن يزور فنيولون فى كامبرى .

وعاش رئيس الأساقفة يعلل نفسه بأن تلميذ هذه سيرث العرش عما قليل ،
وعندها يدعوه ليكون وزيره كما كان ريشايو وزيراً للويس الثالث عشر .
ولكن الحفيدات مات قبل أن يموت الجدي بثلاث سنين ، ثم سبق فنيلون
نفسه لويس إلى القبر بقسعة أشهر (٧ يناير ١٧١٥) .

أما بوسويه فكان قد سبقهما بزمان . لقد كان تمسا في أخريات أيامه ،
حقاً إنه انتصر على فنيلون ، وعلى دعاة الساطة البابوية المطلقة ، وعلى المتصوفة ،
ورأى الكنيسة منتصرة على الهيجونوت ، ولكن هذه الانتصارات كلها
لم تيسره قذف الحمى من مثاته . وقد برح به الألم تبريحاً جعل من العسير
عليه أن يحتمل الجلوس في المكان الذي أوقع بالجلوس فيه في احتفالات
البلاط ، وتساءل الساخرون القساسة ، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو
ويعوت في هدوء . وقد رأى من حوله ظهور الارتياحية ، وقد الكتاب
للقدس ، والجدليات البروتستنتية العنيفة التي صوبت في غير تقوى إلى
رأسه . فها هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتي المنفى جوريو يخبر العالم
بأنه هو ، بوسويه ، أسقف الأساقفة ، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة ،
كذاب أشريعاشر المحظيات (١٢٣) . وقد بدأ تأليف كتب جديدة لرد
على هؤلاء الخصوم السفهاء ، ولكن الحياة كانت تنحصر عنه وهو يكتب ،
وفي ١٢ أبريل ١٧٠٤ وضع للموت حداً لآلامه .

ويبدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الكاثوليكية في فرنسا
الحديثة . فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التي استولى
عليها لوثر وكالفن . وكان رجال الكايروس يعملون من أخلافهم ،
وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين . وكان بسكال قد أدار دوائر
الارتياحية على المرة بين ، والدولة جعلت نفسها وكيلة مطيما للكنيسة ،
والملك أو شك أن يكون يسوعيا .

ومع ذلك لم يكن الموقف بالغ السكال . فاليسوعيون لم ينقشع من

فوق رؤسهم بعد ذلك الغبار الذي أثارته عليهم رسائل إسكال الاقليمية ،
والجائسية مازالت بخير ، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على
الملك الورع ، والناس يقرأون مونتيني أكثر مما يقرأون إسكال ، وهويز
وسبينوزا وبيل يكيلون اللطعات الهائلة لصرح الإيمان . يقول القديس
فانسان دبول (١٦٤٨) ، « يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون
القربان قد تقلص ، ففي سان - سوليس نقص العدد ٣٠٠٠ ، ووجد راعي
سان - نيكولا - دوس - شاردويه أن ١٠٠٠ من رعايا أبرشيته تخلفوا
عن قربان القيامة (١٢٤) » . وقال بيل في ١٦٨٦ « إن العصر الذي نعيش
فيه يحنل بأحرار الفكر والربوبيين ، وبدعش الناس لكثرة عددهم (١٢٥) »
« ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين في كل مكان (١٢٦) » وقد عزا هذا
إلى حروب العالم المسيحي وجدلياته . وقال نيسكول : ليكن معلوما أن
الهرطقة الكبرى في العالم ليست السكالفنية ولا اللوثرية ، بل الإلحاد (١٢٧) .
وقالت الأميرة بالاتين في ١٦٩٩ « قل أن يحد المرء الآن شابا لا يشتمى أن
يكون ملحداً (١٢٨) » وروى لايبنتز أن في باريس (١٧٠٣) « تفشت
بدعة من يسمونهم العقول القوية ، ويسخر الناس هناك من التقوى . . .
وتحت حكم ملك تقي صارم مطلق السلطة ، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود
التي شهدناها من قبل في العالم المسيحي (١٢٩) » . وبين ذوى العقول القوية
— وهى قوية إلى درجة تسكنى للتشكك في كل شيء تقريباً — نجد سان
إفريمون ، واينون دلائسكو ، وبرنيه ماخس فاسفة جاسندى ، ودوقى
نيفير وبوبون . وأصبح « الناميل » الذى كان يوماً مقرأ لفرسان المعبد
(الداوية) في باريس ، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر — شولاييه
وسيرفيان ، ولافار ، الخ — الذين أسلموا تسكهم بالدين إلى عهد الوصاية .
أما فونتنيل ، الذى قارب المائة ونمضى الفناء وأفسح له في الأجل حتى
تبادل النسكت مع الموسوعيين ، فكان في ١٦٨٧ ينشر كتابه (تاريخ
النبؤات) ويقوض في خبث أساس المسيحية المعجز . وهكذا مهد لويس
في نشوة تقواه وورعه الطريق لفولتير .

الفصل الثالث

الملك والفنون

١٦٤٣ - ١٧١٥

١ - تنظيم الفنون

لم يشهد التاريخ من قبل ولا من بعد ، ربما باستثناء عهد بركليس ، حكومة شجعت الفن ، أو غذته ، أو هيمنت عليه ، كما فعلت حكومة لويس الرابع عشر .

كان ذوق ريشليو الرفيع ومشترياته المختارة بحسنة قد أعطت الفن الفرنسى على أن يقيق من الحروب الدينية . وفى عهد وصاية آن النمساوية كان جماعو التحف الأهليون — من الأشراف ورجال المال — قد بدأوا يتنافسون فى جمع آثار الفن . فاقتنى بيير كروزا المصرى مائة صورة بريشة تيشان . ومائة أخرى بريشة فيرنوزى ، ومائتين بريشة روبنز ، وأكثر من مائة بريشة فانديك . أما فوكيه فقد جمع فى قصر فوكا رأيناصورا وتمائيل ، وتحفا فنية أقل شأنا ، وكان فى جمعه من التميز أكثر مما كان فيه من الحسنة والحذر . وورث لويس مقتنياته بعد أن أجهز عليه ، وما لبث العديد من المجموعات الخاصة الأخرى أن جمع فى اللوفر أو فرساي . وكان مازاران قد آثر وضع شطر من ثروته فى الفن دون النقود تجنبها لهبوط قيمة العملة . وقد أسهم ذوقه الإيطالى الرفيع فى تكوين انحياز الملك إلى الفن الكلاسيكى . وأغلب الظن انه هو الذى علم لويس الرابع عشر أن مما يبرز مجد الحاكم أن يجمع الفن ويعرضه ويحتضنه . وقد هيأت هذه المجموعات المثل الحافزة والقواعد الموطدة لتعليم الفن وتطويره فى فرنسا .

وكانت الخطوة التالية هي تنظيم الفنانين . وهنا أيضا كان مازاران سباقا .
ففي ١٦٤٨ أسس أكاديمية التصوير والنحت ، وفي ١٦٥٥ أصدر الملك
مرسوما بهذه الأكاديمية فأصبحت الأولى في سلسلة من الأكاديميات التي
قصد بها تدريب الفنانين وتوجيههم إلى خدمة الدولة وتجميلها . والتقط
كولبير الخطيط حيث تركه مازاران ، وبلغ بهذه المركزية للفن الفردي القمة .
وكان يتطلع إلى « جعل الفنون تزدهر في فرنسا أكثر من ازدهارها في أي
بلد آخر (١) » رغم أنه لم يدع لنفسه ملكة الحكم في أمور الفن . وبدأ بأن
اشترى للملك مصنع جوبلان للنسيج المرسوم (١٦٦٢) وفي ١٦٦٤ حصل
على منصب المشرف على العماير ، فأتاح له هذا المنصب هيمنة على المعمار
والفنون الملاحقة به . وفي ذلك العام أمد تنظيم أكاديمية التصوير والنحت ،
وسماها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة . وكان هنري الرابع قد أسكن
الوفر طائفة من مهرة الصانع ليزينوا القصور الملكية . فجعل كولبير من
هؤلاء الرجال نواة للمصنع الملكي لأثاث التاج (١٦٦٧) . وفي ١٦٧١
أنشأ الأكاديمية الملكية للعمارة ، حيث أغرى الفنانون بالبناء والزخرفة
بـ « الذوق الرفيع » الذي يحبذه الملك . وفي هذه الجماعات كلها وضع مهرة
الصناع تحت إشراف الفنانين ، وهؤلاء تحت إرشاد سياسة وطرارز موحدين .

ورغبة في دعم الاتجاه الكلاسيكي الذي تلقاه الفن الفرنسي إبان عهد
فرنسوا الأول ، وتنقيته من التأثيرات الفلمنكية ، أنشأ كولبير وشارل
لبرون أكاديمية فرنسا الملكية في روما (١٦٦٦) . وكان الطلاب الحائزون
على جائزة روما في أكاديميه باريس يبعثون إلى إيطاليا ويعالون خمس سنين
على حساب الحكومة الفرنسية . وفرض عليهم أن يستيقظوا في الخامسة صباحا
ويحضروا إلى الفراش في العاشرة مساء . وقد دربوا على نسخ النماذج الكلاسيكية
ونماذج النهضة ومحاكاتها ، وكان ينتظر من كل منهم أن ينتج « رائعة » (بالمعنى
المصطلح عليه في نظام الطوائف) مرة كل ثلاثة أشهر ، فإذا عادوا إلى فرنسا
كان للدولة الحق المقدم في خدماتهم .

وكانت ثمرة هذه الرعاية والتأميم للفن إنتاجاً رائعاً ضحماً للقصور ،
والكمائس ، والتماثيل ، والصور ، وقطع السيج المرسوم ، والخزف ،
واللدايات ، والمحفورات ، والنقود ، وكلها مطبوع بكبرياء « الملك
الشمس » وذوقه ، وبقسمات وجهه أحياناً كثيرة . ولم يكن هذا إخضاع الفن
الفرنسى لروما كما شكك البعض ، بل إخضاع فن روما للويس الرابع عشر .
وقد استهدف الأسلوب أن يكون كلاسيكياً ، لأن ذلك الأسلوب يتفق
وعظمة الدول وجلال الملوك . وتدفقت الأموال الفرنسية إلى إيطاليا بأمر
كولبير لشراء آثار الفن الكلاسيكى أو فن النهضة ، وبذل كل شئ لنقل
مجد الأباطرة الرومان إلى ملك فرنسا وعاصمتها ، وكانت النتيجة مذهلة للعالم .
وأصبح لويس الرابع عشر أعظم رعاة الفن الذين عرفهم التاريخ . فقد
« بذل للفنون من التشجيع قدر أعظم من جميع نظرائه من الملوك مجتمعين »
(فى رأى فولتير) (٢) . وكان بالطبع أسخى جماعى الفنون ، فزاد عدد
الصور فى قاعاته من مائتين إلى ألفين وخمسمائة ، وكان كثير منها من إنتاج
فنانين فرنسيين كلفهم الملك برسمها . واشترى الكثير جداً من المنحوتات
الكلاسيكية وتماثيل عصر النهضة ، حتى لقد خشيت إيطاليا أن تنزع آثارها
الفنية ، وحظر البابا المزيد من تصدير هذه الآثار . واستخدم لويس رجالاً
موهوبين مثل جيراردون أو كوازيكوكس لنقل نسخ من التماثيل التى لم يستطع
شراءها ، وقل أن نافست نسخ أمولها كما نافستها هذه النسخ . ومائت
قصور باريس وفرساي ومارلى وحدائقها وبساتينها بالتماثيل ، وكان أوثق
سبيل إلى قلب الملك إهداؤه أثراً ذا جمال غير منازع أو ثمرة راسخة .
مثال ذلك أن مدينة آرل أهديته تمثالها الشهير « فينوس » فى ١٦١٣ . ولم
يكن لويس بالرجل الشحيح . وقد قدر فولتير أنه كان يشتري فى كل عام
من آثار الفنانين الفرنسيين ما قيمته ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ويهديها للعلماء
والمؤسسات والأصدقاء (٣) بهدف مساعدة الفنانين وبث ماسكة الجمال
والإحساس الفنى فى الوقت نفسه . وكان ذوق الملك سليماً أسدى إلى الفن

الفرنسي أيادى بيضاء ، ولكنه كان كلاسيكياً إلى حد ضيق . فحين أروده بعض الصور التي رسمها تنييه الابن قال آمراً « ابعادوا عني هذه الأشياء البشعة » (٤) وقد ارتقى الفنانون بفضل رعايته كثيراً ، سواء في أرباحهم أو - كما تهم الاجتماعية . وقد ضرب المثل بتسكريمه إيام شخصياً ، وحين شكك البعض من ألقاب الشرف التي خلعها على المصور لبرون والمعاري جول - آردوان - مانسار أجاب في شيء من الحدة « في وسعي أن أصنع عشرين دوقة أو نبيلة في ربع ساعة ، ولكن صنع فنان كمانسار يقتضى قرناً » (٥) . وبلغ راتب مانسار ٨٠٠٠٠ جنيه في العام ، أما لبرون فكان يتقارب في نعيم قصوره بباريس وفرساي ومونمورنسي . وتقاضى لارجليير وريجو ستائة جنيه أجراً عن كل لوحة . « ولم يترك فنان كفء في عوز » (٦) .

وقدلت الأقاليم العاصمة في تكريم الفن وإثابته ، واقتدى النبلاء بمليكمهم . فطورت المدن مدارس فنية خاصة بها - في روان ، وبوفيه ، وبلوا ، وأورليان ، وتور ، وليون ، وإكس - أن - بروفاس ، وتولوز ، وبوردو - وواصل النبلاء دورهم رعاية للفن وإن تقاض لأن الدولة استوعبت المواهب المتاحة ، وأسهم الذوق المدرب الذي نشئت عليه أرقى أرسناتراطية في أوربا في توطيد الطراز الرفيع الذي اتسمت به منتجات الفن في عهد لويس الرابع عشر . واكتسب الرجال والنساء الذين ولدوا في نعيم الامتيازات والثراء وشبوا على العادات المهيبة وسط محيط جميل وأشياء بديعة - نقول إنهم اكتسبوا معايير وأذواقاً من يكبرونهم سنًا كما اكتسبوا منها من يثقتهم ، وكان على الفنانين أن يلبوا مطالب تلك المعايير ويشبهوا تلك الأذواق . ولما كان الاعتدال ، وضبط النفس ، والتعبير الأنيق ، والحركة الرشيقه ، والشكل المصقول ، لما كانت هذه كلها مثل الارسناتراطية الفرنسية في هذا العهد ، فقد تطلبت هذه الصفات في الفن ، وحبد النظام الاجتماعي الطراز الكلاسيكي . وأفاد الفن من هذه المؤثرات والهيمنات ، ولكنه دفع عنها . ذلك أنه فقد اتصاله بأفراد الشعب ، ولم يستطع أن يعبر عنهم كما

استطاع الفن الهولندي والفلمنيكي أن يعبر عن الأرض المنخفضة ، وأصبح
الفن صوت طبقة ، وصوت الدولة والملك ، لا صوت الأمة . فأنت لا تجد
في فن هذه الحقبة الكثير من دفء الوجدان أو صمته ، ولا تجد ألوان روبرت
الغنية وأجساده المكتنزة ، ولا تجد الظلال العميقة التي تلف حاخامات رمبرانت
وقديسيه ومالييه ، ولا ترى فلاحين ولا عمالا ، ولا متسولين ، بل السعادة
الجميلة ترتفع فيها صفوة البشر .

وأهيج كولبير وهو لاه أن يجسدا في شارل لبرون رجلا يستطيع أن
يكون في وقت واحد خادما غيورا للحكومة وقاضيا متسلطا في هذا الطراز
الكلاسيكي ففي ١٦٦٦ عين لبرون بتوصية كولبير كبيرا لمصوري الملك
ومديرا لأكاديمية الفنون الجميلة ، وبعد عام عهد إليه بصنع جوبلان ،
وكل بالإشراف على تعليم الفنانين وأشغيلهم لينبى في أعمالهم تناسقا في
الأسلوب ميمزا للعهد ومثاله ، وبمعاونة مساعدين على شاكته في التفكير
أنشأ لبرون في الأكاديمية نظام « المحاضرات » (١٦٦٧) التي غرست بنظامها
أصول الأسلوب الكلاسيكي بتماليم وأمثلة وساطان ، واخير رفايل من
بين الفنانين الإيطاليين ، وبوسان من بين الفنانين الفرنسيين ، نموذجين
مفضلين على غيرهما ، وكانت كل لوحة يحكم عليها بمعايير مستمدة من فنهما .
وقد صاغ لبرون وسباستيان بوردون هذه القواعد ، فرمها الخط فوق
اللون ، والانضباط فوق الأصالة ، والنظام فوق الحرية ، ولم تد مهمته انهمان
أن ينقل الطبيعة بل أن يجعلها ، ولا أن يعكس فوضاها وعيوبها وبشاهاتها
كما يعكس جمالها العارض ، بل أن يلتقي من بين ملماتها تلك التي تتيح للفس
الإنسانية الإفصاح عن أعرق مشاعرهما وأرفع مثلهما . وكان على للمعماريين
والمصورين والنحاتين والخزافين وصناع المشغولات الخشبية وللمديسة
والزجاجية والنقاشين ، أن ينطقوا في صوت متناسق واحد بتطلعات فرنسا
وبعظمة الملك .

٢ - العمارة

على أن هؤلاء الفنانين الفرنسيين « المنطليين » كانوا قد عادوا من روما وقد اكتسبوا طلاء « باروكياً » على غير وعى منهم . وقد وصفنا من قبل ذلك الطراز - طراز الباروك - الذى عم الآن وانتشر . وخلاصته أنه يحمل محل البساطة الهادئة التى تميزت بها الأشكال الكلاسيكية إسرافاً فى الوجدان والزخرف ، وبينما نرى المثل الكلاسيكى - وعلى الأخص الهلنستى - قد حوكنى فى نحت هذا « القرن العظيم » وتصويره وأذبه ، نحمد العمارة والزخرفة قد أخذتا عن الطرز الأنيقة المنمقة التى عقد لها لواء النصر فى إيطاليا بعد وفاة ميكلانجيلو (١٥٦٤) . فلقد استهدف بناءو الملك الطراز الكلاسيكى ، ولكنهم حققوا الباروكى - الباروكى الكامل فى فرساي ، ومنجماً موفقاً من الباروكى والكلاسيكى فى واجهات اللوفر .

أما أول الروائع المعمارية فى هذا العهد فهى كنيسة قال - دجراس بباريس . وكانت آن النمساوية قد اندرت نذراً ببناء معبد جميل إذا وهبها الله ولويس الثالث عشر غلاماً . فلما أتمحت لها وصايتها على العرش المال كلفت فرنسوا مانسار بوضع تصميمات الكنيسة . وأرسى لويس الرابع عشر الحجر الأول فى ١٦٤٥ وكان يومها فى السابعة . ونفذ تصميم مانسار على يد لومرسييه بالطراز الكلاسيكى ، وتوج بقبة مازالت محط إعجاب للمعماريين . وشيد لبرال برويان كنيسة سان - لوى - ديزا نفاليد (١٦٧٠) لقدامى المحاربين الذين يأويهم الأوتيل ديزنفاليد . وفى ١٦٧٦ كلف لوفوا المعماري جول اردوان مانسار (حفيد أخى فرنسوا مانسار) بأن يكمل الكنيسة بنحورس وقبة . والقبة فى جبالها الرشيق رائعة العهد المعمارية . وقد حقق أردوان مانسار انتصاراً آخر فى تصميم الكنيسة للمعلقة يفرساي (١٦٩٩) . وقد أكل عمله هنا وفى الانفاليد صهره روييردكوت .

بزخرفة مترفة ، وهو الذى أقام كذلك الأوتيل دفيل فى ليون ، ودير سان دنى ، وواجهة سان - روش .

وحلت العمارة الملكية محل العمارة الكنسية حين تفوقت الدولة على الكنيسة نراء ومكانة ، فأصبحت المشكلة الآن هى التعبير عن القوة لا عن الورع . وكان للوفر فى تلبية هذه الحاجة ميزة تميز بها على غيره من العمار ، هى ما أحاط به من تقاليد موروثة . فقد شهدت نموه أجيال كثيرة ، وترك ملوك كثيرون بصماتهم على تاريخه . فشيّد لومرسييه الواجهة الغربية للجناح الرئيسى بتكليف من مازاران ، وبدأ الجناح الشمالى على طول شارع ريفولى الحالى . وأتم هذا الجناح خلفه لوفو ، وأعاد بناء واجهة الجناح الجنوى (المواجهة لنهر السين) ، وأرصى أساسات الجناح الشرقى . فى هذه الفترة الهامة أصبح كولبير المشرف على العمار . وإذ رفض تصميمات فو للجناح الشرقى ، فقد فكر فى مشروع مد اللوفر غربا ليلتقى بالتويلرى فى قصر واحد . فأذاع على معمارى فرنسا وإيطاليا مسابقة فى تصميم واجهة جديدة . ورغبه منه فى الحصول على أفضل التصميمات ، أقنع الملك بأن يرسل دعوة خاصة إلى جوفانى لورنتزو برينى (١٦٦٥) وهو يومها أمير الفنانين الأوربيين غير منازع ، لياتى إلى باريس على نفقة الملك ويقدم تصميمه . وأتى برينى بأبهته الكبرى ، وأغضب الفنانين الفرنسيين باحتقاره لعملهم ، ووضع تصميمًا ضخمًا باهظ التكلفة يقتضى هدم كل اللوفر القائم تقريبًا . ووجد كولبير فى التصميم عيوبًا تتصل بأنابيب المياه وغيرها من مرافق المعيشة ، واستشاط برينى غضبًا وقال إن « المسيو كولبير يعاملنى كأثنى غلام صغير ، بكل لغوه عن المراحلض والقنوات السفلية (٧) » . وأمكن الوصول إلى حل وسط . فقد وضع الملك الحجر الأساسى لتهيم برينى ، وبعد أن أقام الفنان ستة أشهر فى باريس رد إلى إيطاليا محملاً بالمال وأسباب التشريف ، وقد حاول أن يرد على هذا بتمثال نصفى للويس الرابع عشر يقوم الآن بفرساي ، وبتمثال للويس راكبا جواده فى « جاليريا

بورجيزى» بروما أما تصميمه للوفر فتخلى عنه ، واحتفظ بالمبنى القائم وكوفى شارل بيرو بتكليفه ببناء الواجهة الشرقية . وارتفع صف أعمدة اللوفر الشهير ، الذى أثار عيوبه الواضحة سيلا من النقد^(٨) ، ولكننا نتقبله الآن على أنه من أعظم واجهات العماثر فى العالم .

وكان كولبير يؤمل أن ينتقل الملك من مسكنه الضيق فى سان — جرمان إلى اللوفر بعد تجديدده . ولكن لويس لم ينس كيف أكره هو وأمه على الفرار من الجماهير الباريسية خلال حرب الفروند . وكان رأيه فى صوت الشعب أنه صوت العنف ، فلم يشأ أن يعرض نفسه لمثل هذه الكوابح لحكمه المطلق . وعليه قرر أن يبني فرساي ، وروع القرار كولبير .

وكان لويس الثالث عشر قد شيد هناك استراحة متواضعة للصيد فى ١٦٢٤ . ورأى أندريه لوتز فى منحدر هذا الموضع الذى كان يرتفع فى رفق ، وفى أحراج الغنية ، فرصة مغرية للتفنن فى تنسيق الحدائق . وفى ١٦٦٢ قدم للويس الرابع عشر تصميمًا عامًا للمنطقة ، وإذا كانت المباني اليوم منخفضة عن المروج والبحيرة ، وعن الأزهار والشجيرات ومختلف الأشجار ، فلعل هذا هو الموضع الذى تصور لها عليه لوتز . فهو لم يقصد بالقصر أن يكون آية من آيات المعمار بقدر ما يكون دعوة إلى الحياة خارجة بين أحضان طبيعة روضها الفن وجلها ، دهوة لتنشق عبر الزهر والشجر ، ولإشباع العين واللمسة المتخيلة من الأجساد الكلاسيكية النحت ، ولطاردة الفرائس والنساء فى الغابات ، وللرقص وتناول الطعام على العشب ، ولركوب الزوارق على القناة والبحيرة ، والاستماع إلى لولى ومولير تحت القبة الزرقاء . فها هنا جنة من جنات الآلهة ، بنيت بدراهم عشرين مليوناً من الفرنك . بين أن يروها إلا لماماً ، ولكنهم يعتززون بعز مليكهم . وبما يسر أن نعرف أن بستان فرساي كان مفتوحاً للشعب إلا فى المناسبات الملكية .

وكان فن إنشاء الحدائق المنسقة البهية وافداً من إيطاليا ككثير غيره

من الفنون ، وقد جلب معه عشرات الحيل والمفاجآت ، كالتعاريش ، والشعريات ، والمغارات ، والكهوف ، والأشكال الغريبة (الجروتسك) ، والأحجار الملونة ، وبيوت الطير ، والتمائيل ، والزهريات ، والغدران ، والنوافير ، والميازيب ، وحتى الأراغن تعزف إلى جوار الماء الجارى . وكان لنوتر قد صمم من قبل حدائق فو لوكيه ، وبعد قليل سيصمم حدائق التويلرى للملكة ، وحدائق سان كلو لمدام هنرييتا ، وحدائق شاتيني لكونديه الكبير . وأطلق لويس يده فى فرساي من ١٦٦٢ فصاعداً ، وروعت كولبير التكاليف التى أنفقت على تحويل بركة شعناء إلى فراديس غناء . وتعلق قلب الملك بلنوتر الذى لم يأبه للمال بل للجمال فقط ، والذى كان فنانيا صادقاً لاغش فيه^(٩) . لقد كان بمثابة « بوالو » الحدائق ، المصمم على أن يغير « فوضى » الطبيعة إلى نظام وتناسق وشكل معقول مفهوم . ولله كان مسرفاً فى إصراره على الكلاسيكية ، ولكن الحدائق التى أبدعها مازالت بعد ثلاثمائة سنة كعبة يؤمها البشر فيما يؤمون .

كان لويس لا يزال يحسد فوكيه ، فأتى بلوفو معمارى قصر فو ليوسع استراحة الصيد ويجعل منها قصراً ملكياً . وتسلم جول أردوان ماسار إدارة المشروع فى ١٦٧٠ . وبدأ تشييد غرف السكن والقاعات وغرف الاستقبال وصالات الرقص وحجرات الحراسة والمكاتب الإدارية — كل هذه الأبنية الشاسعة التى شاهدها اليوم فى فرساي . وما وافى عام ١٦٨٥ حتى كان يسكدح فى المشروع ٣٦٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ حصان فى أوبات بالليل والنهار . وكان كولبير منذ زمن طويل قد حذر الملك من أن معماراً كهذا ، مضافاً إلى الحرب يخوضها بعد الحرب ، سينتهى بإفلاس الخزانة ، ولكن فى ١٦٧٩ بنى لويس قصراً آخر فى مارلى ، ملاذاً يلجأ إليه من زحام فرساي ، وفى ١٦٨٧ أضاف الجران تريانون ليهكون خلوة لمدام دمانتون . وأمر جيشاً من الرجال فيهم الكثير من الجنود النظاميين بتحويل نهر أور ونقل مياهه خلال تسعين ميلاً من « قناة دمانتون »

لنزويد بحيرات فرساي ونهراته وناقوراته وحماماته بالمياه ، وفي ١٦٨٨ هجر هذا للمشروع بعد أن أنفقت عليه الأموال الطائلة حين دعا داعي الحرب . وقد كلف فرساي فرسا حتى عام ١٦٩٠ مبلغا جملته ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك (٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ر ٥٠٠.٠٠٠ دولار) (١٠) . وفرساي ، من الناحية المعمارية ، فيه من التعقيد والجزافية ما ينأى به عن السكال . أما الكنيسة فرائعة ، ولكن هذا الزهو بالزخرف لا يكاد يتفق وتذلل العبادة . وبعض أجزاء التهر جميل ، والسلم المفضى إلى الحدائق فخم ، ولكن إثم معصميه بأن يتركوا استراحة الصيد دون أن يمسوها في تصميمهم ، ويكتفوا بإضافة أجنحة وزخارف ، كل هذا أضر بمظهر البناء في مجموعه . وقد ترك هذه المجموعة المتكاثرة من الأبنية في النفس انطباع الرتبة الباردة والتكرار المتأهى — فالحجرة تقعو الحجرة على امتداد ١٣٢٠ قدما من الواجهة . ويبدو أن تنظيم القصر من داخله تجاهل الراحة الفسيولوجية لثقلته ورواده ، وافترض قوة ضبط هائلة في الامعاء النبيلة ، فسكان على من يريد إزالة ضرورة أن يعبر ست حجرات . لا عجب إذن أن سمعنا بأن السلام والطرقات كانت تستخدم في مثل هذا الغرض . أما الحجرات ذاتها فتبدو أصغر من أن تسمح بالراحة . وليس هناك حجرة فسيحة سوى القاعة الكبرى التي تمتد ٣٢٠ قدما على طول واجهة الحديقة ، هناك نشر المزخرفون كل مهاراتهم — فعلقوا قطع نسيج جوبلان وبوفيه المرسومة ، وبشوا المنحوتات على الجدران ، وبلغوا بكل قطعة أثاث السكال المحجب ، وعكسوا كل البهاء في تلك المرايا الكبيرة التي أعطت الحجرة اسمها الثانى ، وهو « قاعة المرايا » . وعلى السقف صور لبرون الذى ارتفع إلى ذروة فنه ، خلال خمس سنوات (١٦٧٩ — ٨٤) ، ورموز أسطورية ، انتصارات حكم لويس الطويل ، وسجل مأساته دون وعى منه ، لأن هذه الانتصارات المصورة على أسبانيا وهولندا وألمانيا أزمعت أن تثير أرواح النعمة على الملك الشغوف بالحرب .

وطاش لويس في فرساي على نحو متقطع منذ ١٦٧١ ، وأنفق بعض وقته في مارلى ، وسان - جرمان ، وفونتنبلو ، وبعد ١٦٨٢ أصبح فرساي مقره الدائم . ولسكنا نظلمه إذا ظننا أن فرساي كان مسكنه وملهه ، فهو لم يشغل سوى جزء متواضع من المبنى ، أما الباقي فقد سكنته زوجته ، وأبناؤه ، وأحفاده ، وخليلاته ، والمفوضيات الأجنبية وكبار الإداريين ، وأفراد الحاشية ، وكل الخدم والحشم الذين تطلبهم البيت المالك . ولا ريب في أن بعض هذا البهاء كان له هدف سياسى — هو إدخال الرهبة في قلوب السفراء الذين توقع منهم لويس أن يحكموا من هذا البذخ على موارد الدولة وسطوتها . وقد وقع هذا من نفوسهم ونفوس غيرهم من الزوار فأذاعوا في أرجاء أوروبا من الأنباء عن بهاء فرساي ما جعله البلاط المحسود ، والمثل الذى يحتذيه الكثير من البلاطات والقصور في القارة الأوربية بأسرها . أما في عقايل هذا العهد فقد بدت هذه السكتلة الضخمة من المباني رمزا وقعا للاستبداد وتمجيدا مستهترا من كبرياء الإنسان لمصير الإنسان غير المتغير .

٣ — الزخرفة

لم تعرف فنون الزخرفة قط ، حتى على عهد بابوات النهضة ، مثل هذا التشجيع والعرض . فقد كانت الأرضيات المكسوة بالبسط السميك ، والأصعدة الزينية ، والموائد ورفوف المستوفدات الزخرفية الضخمة ، والوهرات من الخزف الصيني ، والشعدانات الفضية والثريات البلورية ، والساعات الجدارية الرخامية المطعمه بالأحجار الكريمة ، والجدران ذات الحشوات الخشبية أو الرسوم الجصية أو الصور أو قطع النسيج المرسوم ، والكرائيش المصبوبة صبا أيقا ، والأسقف ذات الخارف المنقورة أو الصور ، هذه كلها وكثير غيرها من ألوان الفن في فرساي وفونتنبلو ومارلى والوفر ،

وحتى في قصور الأهل ، جعلت من كل حجرة تقريباً متحفاً لأشياء تخطب
العيون والألباب بسر الكمال الخفى . وعن رفايل ومساعديه — يوليو
رومانو ، وبيرينو ديل فاجا ، وجوفاني دا أوريني — وعن قاعات الفاتيكان ،
نقل لبرون ومساعدوه مجموعة الأرباب والربات والكوييدات وتذكارات
النصر والشعارات والنقوش العربية ، وأكاليل الزهر وورق للشجر ،
والحلييات القرنية لثمار الأرض ، يزينون بها سجل انتصارات الملك على
النساء والدول .

وكان الأثاث بطراز لويس الرابع عشر مترفاً فخراً ، هنا أذهنت البساطة
الكلاسيكية الزخرفة الباروكية . فالمقاعد مسرفة في النقش والتنعيج
والتدبيب إسرافاً أبعد عنها الأعجاز خشية إلا أرقها . أما الموائد فكانت تجرد
بينها الثقيل المتين إلى حد يبدو معه غير قابل للحركة . وكانت مناضد الكتابة
والمكاتب المزودة برغوف للكتب غاية في الأناقة بحيث تفرى القلم بالكتابة
في إيجاز لاروشفوكو المحكم أو في حيوية مدام دسغينيه المتدفقة . وكثيراً
ما كانت الصناديق وخزانات النفائس تنقش بعناية فائقة أو تطعم برسوم من
معدن أو أحجار كريمة . وقد أعطى أندريه شارل بول اسمه (buhlwork)
لقنه الخاص ، فن تطعيم الأثاث ، لاصحياً الأبنوسى ، بالمعدن المحفور ،
وصدف السلاحف ، واللؤلؤ إلخ ، مضيفاً حلييات درجية تمثل النبات أو
الحيوان ذات رسوم غاية في الرشاقة ، وكان يقيم في اللوفر (١٦٧٢) بوصفه
نجار الأثاث الأثير لدى لويس الرابع عشر . ولقد بيعت إحدى خزاناته
المطعمة بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه إنجليزي في ١٨٨٢ ، وربما كان هذا المبلغ
يعادل ٥٠٠٠٠ دولار في ١٩٦٠ (١١) . ولكن بول مات في فقر مدقع
بعد أن بلغ التسعين في ١٧٣٢ . وقد يكون أوفق لأذواقنا تلك الأكشاك
المنقوشة التي أقيمت في هذه الفترة في كاتدرائية نوتردام دباري .

وأصبح النسيج المرسوم الآن فناً اختص به الملك . ولم يقنع كولبير

ياخضاع مصنعي جوبلان وأوبوسون لإشراف الملك ، فأقنعه بأن يتسلم أيضا مصنع النسيج المرسوم في بوفيه . وكانت هذه القطع المرسومة لاتزال الحلية المفضلة لجدران القصور وسجفها في المدن والريف ، والمهرجانات ، وللباريات ، والاحتفالات الرسمية ، والأعياد الدينية . وقد صمم للمصور الفلمنكي آدم فان درمول في بوفيه سلسلة رائعة من الرسوم مماها «فتح لويس العظيم» ، وأعد الفنان لها نفسه بأن تبع لويس إلى حروبه ورسم بالقلم أو صور بالألوان على الطبيعة للمواقع والحصون والقرى التي كانت مسرحا لحملاته الحربية . وكان مصنع جوبلان يستعخدم ٨٠٠ من مهرة الصنائع الذين لم يكتفوا بصنع قطع النسيج المرسوم ، بل المنسوجات الرفيعة وأشغال الخشب والفضة والمعادن والتطعيم بالرخام . وهناك نسجت تحت إشراف لبرون قطع النسيج المرسوم العظيمة نقلا عن الرسوم التخطيطية التي حفلت بها صور رفاثيل الجصية الضخمة في قاعات الفاتيكان . وليس أقل من هذه شهرة السلاسل العديدة التي صممها لبرون ذاته ؛ قصور قوى الطبيعة ، والفصول ، وتاريخ الإسكندر ، ومساكن الملك ، وتاريخ الملك والمجموعة الأخيرة كانت تعد سبع عشرة قطعة ، واستغرق الفنان في صنعها عشر سنين ، وما زال نموذج رائع منها معروضا في حجرات عرض قطع الجوبلان — فيها ترى الأجسام متميزة إلى حد مذهل ، والتفاصيل متخيلة تخيلا كاملا ، حتى صورة المنظر الطبيعي التي على الجدار ، وكل هذا بخيوط ملونة نسجت في صبر وأناة أيد صناع تحت عيون مجتهدة . وندر أن كرس مثل هذا الجهد البشري الضخم للزاني لرجل واحد . وقد اعتذر لويس عن هذا بأن زعم لكولبير أن أسباب التمجيد هذه تتبع العالة والدخل للصباغين والنساجين ، وتوفو هدايا ذات وقع جميل في عملية « تشحيم » الدبلوماسية .

وتعرضت كل الفنون الصغيرة تحت اليد الملكية السخية . فصنعت الأبسطة الفاخرة في لاسافونيرى قرب باريس . وأنتج القاهاني البديع في

روان وموسستيه ، والحزف الإيطالي (الليوليك) الجيد في نيفير ، والصيني
الذين المعينة في روان وسان كلو . وفي أخريات القرن السابع عشر تعلم
الصناع الفرنسيون بتحريض كولبير أسرار البنادق في صب بالور المرايا
الكبيرة وتسميته وصقله ، وهكذا صنعت مرايا « قاعة المرايا » الرائعة (١٢).
ونظم كولبير ولبرون الصاغة أمثال جوليان دفونتين وفانسان بتي وأسكنام
في اللوفر ، فصنعوا للملك وللأغنياء مئات التحف من الفضة أو الذهب —
إلى أن صهر لويس والأغنياء هذه الحلى لتمويل الحرب . وقطعت الأحجار
المسكينة والمداليات : وضربت العملة ، ونقشت بتصميمات كانت المثل الذي
تحتذيه أوربا كلها فيما عدا إيطاليا . ولم يصل فن صنع المداليات منذ عصر
الهنزة إلى مثل هذا الابداع الذي حققه الآن على يد انطوان بنوا وجان
موجيه . أما كولبير ، الذي لم يترك حجرا دون نقش ، فقد أسس في ١٦٦٢
أكاديمية المداليات والنقوش ، ليخلص أعمال الملك . . . بمداليات تضرب تكريما
له (١٣) . وذلك كان أسلوب الوزير الكبير في تجنيد الغرور الذي يملك المال
في خدمة الفن العالي النفقة . وفي ١٦٦٧ أنشئت مدرسة للصور المحفورة في
اللوفر ، ورسمت مناقيش روبري نانتوي وسبستيان لسكير وروبير بونار
وجان لبوتر في رهافة بالغة التدقيق شخصيات العهد وأحداثه . وحتى رسم
المنمنمات ظل على قيد الحياة — وأن هبط عن سابق مقامه في العصر
الوسيظ — في كتاب « ساعات الصلاة » الذي أهداه إلى الملك متقاعدوه
في الأنفاليد . إن الفنون الصغيرة . دون سائر الفنون ، هي التي تظهر ذوق
« القرن العظيم » وبراعته الفنية .

٤ - التصوير

إن نجمين من نجوم التصوير ذوى المرتبة الثانية يقعان في القللك الخارجى
لهذا العصر ، وهما فيليب دشامبين ، وأوستاش لوسويده . أما فيليب فعدوفا

من بروكسل وهو في التاسعة عشرة (١٦٢١) ، وشارك في زخرفة قصر
الكسمبورج ، ولم يكتف برسم صورة ريشليو بقامته الكاملة ، وهي
المحفوظة في اللوفر ، بل صنع أيضا تمثالا نصفيا للكردينال ، وصورة صورا
جانبية محفوظة بمتحف الفنون القوي بلندن . وقد أتاه ميله المتعاطف لتصوير
الأشخاص بزائن من نصف زمراء فرنسا في الجيل الذي تلا ريشليو ،
كما زاران وتورين وكولبير ولرسييه . . . وكان قبل قدومه إلى فرنسا
قد صور جانسن واعتنق الجانسنية ، وأحب البور — رويال ورسم صورا
للأم انجليك وروبير آرنو وسان — سيران . ورسم للبور — رويال أروع
صوره « الراهبات » باللوفر ، وترى فيها الأم آييس مكتئبة ولكنها لطيفة ،
ومعها سوزان ابنة المصور الراهبة . وكان مجال شامبين محدودا ، ولكن
فنه يدق قلوبنا بما فيه من وجدان وإخلاص .

أما أوستاش لوسويير فكان متدينا كصاحبه ولكنه أكثر سنية في
إيمانه ، مما جعله قلقا في جيل سيطر على التصوير فيه منافسه لبرون ،
وتسلطت على هذا الفن فيه أساطير وثنية كرس لتأليه ملك لم يكن قد ناب
إلى تقواه بعده . وقد درس المصوران (لوسيير ولبرون) معا على فويه ،
ورسما معا في قبو واحد ، واستخدما نفس النموذج ، وأثنى عليهما على
السواء بوسان في زيارته لباريس . وتبع لبرون بوسان إلى روما وتشرب
الروح الكلاسيكية . أما لوسويير فلزم باريس مربوطا بزوجة مخصبة ولم
يستطع الفكك من الفقر إلا نادرا . وحوالي ١٦٤٤ رسم خمس صور تصف
حوادث في حياة إله الحب لسقف « حجرة الحب » في قصرولى نعمته لامبير
دتوريني ، وفي حجرة أخرى من حجرات قصر لامبير هذا نفذ رسما جصيا
كبيرا يسمى « فيتون يطلب أن يقود مركبة الشمس » . وفي ١٦٤٥ تورط
لوسويير في مبارزة قتل فيها خصمه ثم اختبأ في دير للسكرتوزيين ، وهناك
رسم اثنتين وعشرين صورة من حياة القديس يرولو مؤسس الطريقة

السكراتوزية ، وفي هذه الصور بلغ الفنان أوجهه . وفي ١٧٧٦ اشترت هذه السلسلة من الرهبان السكرتوريين بمبلغ ١٣٢٠٠٠ جنيه فرنسي ، وهي لليوم تشغل غرفة خاصة باللوفر . ولما عاد لبرون من إيطاليا (١٦٤٧) اكتسح أمامه كل شيء ، وانتكس لوسويير إلى فقره ، ثم مات في ١٦٥٥ ولما يجاوز الثامنة والثلاثين .

أما شارل لبرون فقد تسلط على الفنون في باريس وفرساي ، لأنه أوتي قدرة التنسيق والإدارة كما أوتي قدرة التصور والتنفيذ . وإذا كان ابن نحات له أصدقاء من المصورين ، فقد شب في بيئة تعلم فيها الرسم كما يتعلم غيره من الأطفال الكتابة . ورسم في الخامسة عشرة - وعينه لا تغفل عن ترقب فرصته الكبرى - صورة رمزية لحياة ريشليو ونجاحه ، والتقط الوزير الطعم ، فكلفه برسم موضوعات أسطورية لقصر الكردينال . وحين أخذه بوسان إلى روما أغرق نفسه في أساطير وزخارف رفايل ، وجوليو رومانو ، وبييترو دا كورتونا . فلما عاد إلى باريس كان أسلوب الزخرفة المترفة المنمقة الذي انتهجه قد اكتمل نضجه . وهنا أيضا كان فوكيه أسبق من لويس في استخدامه لبرون ليصور في قصره بغيره . وقد استهوت مازاران وكولبير والملك براعة ما أشتج من صور جسمية ، وذلك الجمال الشهواني الذي اتسمت به أجساد النساء والتفاصيل الغنية من كرايش ومصبوبات . ولم يأت عام ١٦٦٠ حتى كان لبرون يرسم صورا جسمية من حياة الأسكندر للقصر الملوكي بغيره . وقد أبهج لويس أن يتبين ملامحه تحت خوذة الأسكندر ، فكان يأتي كل يوم ليراقب الفنان وهو يرسم معركة أربل ، وأسرة دارا عند قدمي الأسكندر . وكلتا الصورتين في اللوفر . وكافأه الملك بلوحة ملكية مرصعة بالماس ، وجعله مصوره الأول ، وأجرى عليه معاشا بلغ ١٢٠٠٠ جنيه في العام .

ولم تقتر لبرون همة . ففي ١٦٦١ دمرت النيران قاعة اللوفر الوسطى ، فصمم ترميمها ، وصور السقف والكرائش بمنظر من أساطير أبولو ،

ومن هنا الاسم الذى أطلق عليها «قاعة أبولو». وخلال ذلك درس الفنان الطموح العمارة والنحت وأشغال المعادن والخشب ورسم النسيج وبخلاف الفنون التى جندت الآن لتزيين قصور العظماء . وانصهرت هذه الفنون جميعها فى مهاراته المتنوعة حتى لقد بدا أن الحظ أعده ليجمع فنانى فرنسا فى جهد موحد لينتجوا طراز لويس الرابع عشر .

وقد أطلق لويس يده ومنحه ما شاء من مال ليزين فرساي ، حتى قبل أن يعينه مديراً لأكاديمية الفنون الجميلة . وهناك عمل بجهد طوال سبعة عشر عاماً (١٦٦٤ — ٨١) فنسق الأعمال الفنية ، وصمم « سلم السفير » ، ورسم بنفسه فى قاعات الحرب والسلام ، وفى القاعة الكبرى ، سبعاً وعشرين صورة جصية تصف أمجاد الملك منذ صلح البرانس (١٦٥٩) حتى معاهدة فيميجن (١٦٧٩) . وقد أظهر لويس فى الحرب والسلم وسط حشد من الأرباب والربات ، والسحب والأنهار ، والخيول والمركبات ، يقذف الصواعق ، ويعبر الرين ، ويحاصر غنت ، ولكنه إلى ذلك يجرى العدالة ويصرف شئون المال ، يطعم الفقراء فى المجاعة ، وينشئ المستشفيات ، ويشجع الفن . ولو أننا أخذنا هذه الصور فرادى لما عدناها من الروائع ، فأساسها الكلاسيكى طغى عليه سيل من الخراف الباروكية ، ولكننا إذا أخذناها فى مجملها وجدناها تؤلف أروع عمل قام به الرسامون الفرنسيون فى هذا العصر . ويغنيها تمجيده للملك لأنه يكشف فيه عن داء الغرور ، ولكن تملق الأمراء والملوك على هذا النحو كان سنة العصر . لا عجب إذن أن يقول لويس لمصوره وهو يرى بعض صوره بجوار أخرى رسمها فيرويرى وبوسان « ان أعمالك تثبت للمقارنة بأعمال كبار الفنانين ، ولا ينقصها إلا موت صاحبها لكي يقدرها الناس أكثر مما يقدرونها الآن ، ولكننا نرجو ألا انتاح لها هذه الميزة سريعاً » (١) ، وقد ساند الملك خلال جميع المكائد التى أحدثت به من حساده بعد قليل ، كما ساند موليير الذى ضايقه خصومه . ولم يكن غريباً

على طبع لويس - إذ نعى إليه أثناء حضوره إجتماعاً أدارياً أن لبرون نجاء ليريه آخر صوره « رفع الصليب » (١٥) - أن يستأذن الحاضرين ليذهب ويرى الصورة ويعرب عن سروره، ثم يدعو كل المجتمعين ليأتوا ويشاركوه في مشاهدتها (١٦). وهكذا سارت الحكومة والفن في هذا العهد جنباً إلى جنب، وشارك الفنانون القواد العسكريين مكافآتهم ومدائحهم.

كانت صنعة لبرون شيئاً جديداً وإن انبثقت من الزخرفة الإيطالية. لقد كانت مزيجاً زخرفياً جمع فنونا عديدة ليؤلف منها كلا جاليا واحداً. فلما حاول أن يجرب تصوير لوحات فردية انزاق إلى مرتبة وسط. وإذا استحال انتصارات الملك إلى هزائم، وأخلت محظياته مكانهن للسكان، تغير مزاج العهد ولم يعد لـ زخارف لبرون البهيجة محل. ولما خلف أوفوا كولبير مشرفاً على العمائر فقد لبرون دوره زعيماً للفنون، وإن ظل رئيساً للأكاديمية. ومات في ١٦٩٠ رملاً لمجد ولّى.

واغتبط فنانون كثيرون بتحررهم من سيطرته، ومن هؤلاء على الأخص بيير منيار الذي ساءته هذه السيطرة. وإذا كان يسكب لبرون بتسع سنوات فقد سبقه في الحج إلى روما بلوحة الوانه، وتعلق قلبه بالمدينة الخالدة كما تعلق بها بوسان، حتى لقد استقر رأيه على العيش فيها طوال حياته. وقد عاش فيها فعلاً اثنتين وعشرين سنة (١٦٣٥ - ٥٧) واغتبط زبائنه باللوحات التي رسمها لهم اغتباطاً حمل في النهاية الباباً أنوسنت العاشر، الذي ربما ساءه الوجه الذي خلعه عليه قيا لاسكويز من قبل، على أن يجلس إلى منيار الذي أضفى عليه طلمة ألطف. وفي ١٦٤٦، حين بلغ منيار الرابعة والثلاثين، تزوج حسناء إيطالية، ولكنه ما إن سكن إلى الأبوة الشرعية حتى تلقى دعوة من فرنسا ليذهب ويخدم الملك، فذهب على مضض. وفي باريس تمرد على قبول التوجيهات من لبرون، ورفض الانضمام إلى الأكاديمية، وحزن في نفسه أن يرى زميله الأصغر يحسد الأنواط والأموال. وأوصى

مولير كولبيره ، ولكن لعل الوزير أنصف في إثارة لبرون ، فإكان منيار ليرضى أن يرتفع إلى مستوى الفخامة المتكلفة التى تطلبها القرن العظيم . على أية حال ، كان لويس الذى بلغ العشرين آنئذ فى حاجة إلى صورة فائنة له يغوى بها عروسا من أسبانيا . وارتضى منيار أن يرسمها ، وافقتن لويس وماريا تريزا بها ، وغدا منيار أن يحج رسام الأشخاص فى هذا العهد . فرسم لوحات لمعاصريه الواحد تلو الآخر : مازاران ، وكولبير ، ورتز ، وديكارت ، ولافونتين ، ومولير ، ورأسين ، وبوسويه ، وتورين ، وبينون دلانكلو ، ولوين دلافالير ، والسيدات مونتسبان ، وماتنون ، ولافايت ، وسفينيه ، وقد أنصف يدى أن المساوية اللتين عدما الناس أهل الأيدى فى العالم ، فسكافاته بمهمة تزيين قبو القبة فى كنيسة فال — دجراس ، وكان هذا الرسم الجصى رائعتة الكبرى التى أشاد بها مولير فى إحدى قصائده . وقد صور الملك غير مرة ، وأشهر صورته المعروضة فى فرساي والتى يرى فيها راكبا جواده ، ولـسـكـنا نـجـده هـناك على أروعـه فى اللوحة البديعة المسماة « دوقـة مـين فى مـقـولـتها » . وبعد موت كولبير انتصر منيار فى النهاية على لبرون ، فخلف غريمه مصورا للقصر فى ١٦٩٠ ، وعين عضوا فى الأكاديمية بمرسوم ملكى ، وبعد خمس سنوات مات فى الخامسة والثمانين وهو لا يفتأ يرسم وناضل .

وجاهد رهنط من للصوريين غير من ذكرنا فى خدمة الملك الذى استوعب الفنانين جميعا . فشارل دوفرينوا ، وسبستيان بوردون ، ونويل كواييل وابنه أنطوان ، وجان فرانسوا دتروا ، وجان جوفنيه ، وجان باتيست ساتير ، والكساندر فرنسوا ديبورت — هؤلاء كلهم يلتزمون أن يسلكوا فى زمرة الحاضرين هذه الوليمة للملكية . وهناك فنانان آخرا ن يبرزان بقوة فى نهاية العهد — وأولهما نيكولا دلارجلير الذى خلف منيار مصورا أثيرا للأرستقراطية لا فى فرنسا وحدها بل فى انجلترا أيضا بعض الوقت

(١٧٧٤ - ٧٨) . وقد اكتسب حب لبرون باللوحة الرائعة التي رسمها له والمعروضة الآن في اللوفر . وألوانه الرمزية ولمسته الخفيفة تبين الانتقال من اضمحلال لويس الرابع عشر المعتم إلى عصر آخر مرح ، هو عصر الوصاية والفنان فاتو .

أما الثاني وهو ياسينت ريجو ، فكان أصلب عودا . وقد كسب هو أيضا قوته برسم الأشخاص (أنظر صورته البديعة لبوسويه في اللوفر) ، ولكنه لم يكتسبه بالتلق . ومع أن صورته التي اظهر فيها لويس الرابع شاعنا مسيطرا ، والتي ترتفع في مؤخرة قاعة اللوفر الكبرى ، تبدو من بعيد وكأنها إشادة بالملك ، فإننا نلاحظ إذا تأملناها عن كثب ملامح الملك جامدة ، منتفخة ، وهو واقف على قمة سلطته وعلى حافة قدره (١٧٠١) . وكانت أغلى صور العصر ثمننا كما أنها أفضلها عرضا ، فقد نقد لويس ريجو فيها ٤٠.٠٠٠ فرنك (١٠٠.٠٠٠ دولار ؟) - وربما كان هذا الأجر معادلا لما دفعه لويس ثمننا للثياب الرائعة التي زينت هنا التحلله .

٥ - المنحت

كان المثالون أقل حظوة وثوابا في هذا العهد من المصورين . ومع ذلك فالمنحوتات المرمرية القديمة هي التي اشتهى لبرون أن تصاغ على غرارها جميع الفنون . وقد أنفقت الأموال الطائلة وسخرت اللواهب الكثيرة في شراء أو نسخ التماثيل التي بقيت على قيد الحياة بعد انهيار العالم القديم . ولم يقنع لويس بالنسخ طبعا . وإذا كان يذكر حدائق سالوست وهادريان الرومانية ، فقد استخدم لفيغا من المثالين الأكفاء لينفخوا بتماثيلهم الحياة في بستان فرساي . وأقيمت الزهريات الضخمة كزهرة الحرب التي صنعها كوازيغوكس في حوض ببتيون ، وعلى شرفة القصر ؛ ونحت الشقيقان جاسبار وبلتازار دمارسى « حوض باخوس » العظيم ، وأبرز جان باتست .

من البحيرة تمثاله الرائع « مركبة أبولو » والإله الشمس فيه يرمز للملك ، ونحت فرنسا جيراردون في الحجر من « الحوريات المستحيمات » ما لم يكن براكستيليس ذاته ليألف من نسبه إليه .

وتطلع جيراردون قرناً إلى الخلف ليرى كيف صور بريماتشوجوجون جسد الآثي في صورة كاملة . وعاد إليه ذلك الحسن الانسيابي الذي اتمم به الفن الهيليني ، ربما في إسراف ، ومهما بحثنا وفتشنا فإننا لم نجد إلى الآن إنانا كمالات الأجساد كأولئك الآثي نجدهن في تمثالي « اغتصاب بروزيرين (١٧) » . ولكنه كان قادراً على التعبير عن حالات نفسية أقوى من هذه . وقد صنع لميدان فاندوم تمثالا للويس الرابع عشر محفوفاً الآن في اللوفر ، ونحت لكنيسة السوربون مقبرة نخمة لريشليو . وقد أحبه لبرون لأنه تجاوب في لطف مع ذوق الأكاديمية وأهدافها . وخلف لبرون كبيراً لمتالي الملك ، ورأس الأكاديمية بعد وفاة منيار . ومع أنه ولد قبل لويس بعشرة أعوام إلا أنه عمر بعده شهوراً ، ومات في ١٧١٥ وهو في السابعة والثمانين .

أما أنطوان كوازييفوكس فكان إنساناً أرق من اسمه ، محبباً إلى الناس كتمثاله «دوقة برجندية» . ولد بليون ، وكان ينحت لنفسه مكاناً بين المثاليين حين دعاه لبرون ليساعد في زخرفة فرساي . وقد بدأ بصنع نسخ أو مقتبسات رائعة من التماثيل القديمة . فنحت عن تمثال رخامي قديم في فيللا بوجيزي « حورية المحارة » ، وعن تمثال في قصر مديتشي بفلورنسة نقل « فينوس الجائعة » وكلا التماثيل محفوظ في مستودع الفن المحفوظ الذي نسميه اللوفر . وما زال في مكانه بفرساي تمثاله « كاستور وبولكس » الذي نقله عن مجموعة بمهدائق لودوفيزي بروما . وما لبث أن أنتج أعمالاً أصيلة فيها قوة لا يستهان بها . فنحت لبستان فرساي تمثال كبيرة تمثل نهري الجارون والدوردون ، ولساحة قصر مارلي رمزين شبيهين بهذين نهري السين وللارن .

وفي حدائق التويلزى اليوم أربعة تماثيل رخامية نحتها لما رلى ، وهى فلورا (ربة الزهر) — والشهرة ، وهورية الغابات ، وعطارد راكبا بيجاسوس . وقد خرج من تحت إزميله الكثير من الزخارف للنحوتة فى حجرات فرساي الكبرى .

وظل يكسح فى فرساي ثمانية أعوام ، وقضى خمسة وخمسين عاما فى خدمة الملك . فنحت له اثني عشر تمثالا ، أشهرها تمثاله النصفى فى فرساي ، وأصبح فى النحت ما كان منيارا فى التصوير — أحب نحاتى الوجوه إلى الناس فى فرنسا . وبدلا من أن يتشاجر مع منافسيه نحتهم فى الرخام أو صلبهم فى البرونز ، فوفر عليهم غرورهم ونقودهم . وحين تلقى ١٥٠٠ جنيهه أجرا للتمثال النصفى الذى صنعه لسكولير ، رأى الأجر مغالى فيه فرد منه سبعمائة جنيه (١٨) . وقد ترك لنا تماثيل كاملة الشبه بلبرون ، ولنوتر ، وآرنو ، وفوبان ، ومازارن ، وبوسويه ، وترك لنفسه ترجمة بسيطة لوجه أمين أشعث مضطرب (١٩) ، ولكونديه العظيم تمثالين نصفيين أحدهما فى اللوفر ، والآخر فى شانتى ، يتميزان بصدق وفحولة لامراء فيهما . ثم نحت بأسلوب مختلف تماما تمثالا رشيقا لدوقة برجندية فى صورة ديانا (٢٠) ، والتمثال النصفى الجميل لنفس الأميرة فى فرساي . وصمم مقابر رائعة لمازاران (٢١) وكولير ، وفوبان ، ولبرون . ولأعماله ملمس الروح الباروكية فى طافتها للمرحية ومباقتها العارضة ، ولسكنها فى أحسن صورها تعبيراً حسنا عن المثل الكلاسيكى الذى استهدفه الملك والبلاط ، فهى راسين متمثلا فى الرخام والبرونز .

وحوله وحول جيراردون تجمع سباعى من المثالين ، فرنسوا انجيه وأخوه ميشيل ، وفليب كوفيه وابنه فرانسوا ، ومارتان ديجاردان ، وبير لجرو ، وجيوم كوستو ، الذى مازالت « خيل مارلى » التى نحتها تثب فى الهواء بميدان الكورسكورد .

وفضلا عن هؤلاء المثالين جميعا ، وعلى مبعده منهم ، وفي تحد لمثالية
النحت الرسمى الناعمة ، أنطق بيير بوجيه إزميله بغضب فرنسا وبؤسها . وقد
ولد في مارسيليا (١٦٢٢) وبدأ حياته الفنية حفارا في الخشب ، ولكن
نفسه تافت كما تافت نفس معبوده ميكلائيلو من قبل لأن يصبح في وقت
واحد مصورا ومثالاً ومعمارياً . وقد أحس أن الفنان العظيم ينبغي أن يسيطر
على هذه الفنون جميعا . وإذا كان يحلم بأفذاذ الفنانين الإيطاليين فقد سار
من مارسيليا إلى جنوة إلى فلورنسة إلى روما . وتلمذ في حماسة لبينيتودا
كورتونا في زخرفة قصر بارباريني ، وتشرب كل صدى وأثر لبوناروتى ،
وحسد برنيني على شهرته المتعددة الجوانب . فلما طاد إلى جنوة نحت تمثال
القديس سبستيان الذى أذاع اسمه لأول مرة ، فكلفه فوكيه ، الذى سبق
لويس الرابع عشر في تبين مواهب هذا الفنان أيضا ، بأن ينحت تمثال
« هرقل (٢٢) » لقصر فو ، ولكن فوكيه سقط ، فهرع بيير إلى الجنوب
ليعتكف في فقره ويحتر همومه . ولما كلف بنحت مجموعة « أطلانطيس »
— وهى تماثيل رخامية لأطلس ، ليحمل بها شرفة « الأوتيل دفييل » ، صاغ
التمائيل على غرار الجمالين السكادحين فى أرضة الشحن ، وكان ينطق عضلاتهم
للكدودة ووجوههم التى شوهاها الألم بصرخة الثورة — ثورة المملوحين
الذين يحملون العالم على أكتافهم . ولكن فنا كهذا ما كان ليعجب
فرساي .

ومع ذلك فإن كولبير الذى فتح ذراعيه للمواهب طلب إليه أن ينحت
تماثيل يؤثر أن تكون ذات مسحة أسطورية بريئة . فأرسل إليه بوجيه
ثلاث قطع محفوظه الآن بالوفر : نحتا قليل الغور لطيفا يمثل الإسكندر
وديوجين ، وتمثالاً فيه جهد وإسراف لبيرسيوس وأندروميديا ، وتمثالاً
عنيفاً لميلو كورتونا — ذلك النبتاى الجبار يحاول الخلاص من فكى أسد
عنيد ومخالبه .

وفي ١٦٨٨ زار بوجيه باريس ، ولكنه وجد طبعه التكبر وإزميله الغضوب يتنافران مع ظرف البلاط وفنه ، ففقل راجعا إلى مرسيليا ، وهناك صمم تمثال « البرة » و « سوق السمك » — ولا عجب في فرنسا حتى سوق السمك يمكن أن يكون عملا فنيا . ولعل أعظم تماثيله قصد به أن يكون تمليقا على مغامرات الملك الحربية ، وهو تمثال الإسكندر راكبا يبدو فيه وسيا مشرقا ، يحمل خنجره في يده ، ويدوس ضحايا الحرب (٢٣) في غير اكرثات تحت سنابك جواده . وقد أفلت بوجيه من رسمية لبرون وفرساي ، ولكنه أفلت أيضا من انضباطهما ، وافضى به طموحه لمنفعة برائتي ، وحتى ميكلانجلو ، إلى مبالغات في تصوير عضلات الجسد وتعبيرات الوجه ، ومن ذلك « رأس ميدوزا » الرهيب المحفوظ بالوفر . ولكنه كان على الجملة أقوى نحات في وطنه وفي جيله .

وإذ قارب المهسد العظيم نهايته ، وجرت الهزائم فرنسا إلى حال من اليأس الشديد ، انصرفت كبرياء الملك إلى التقوى ، وانتقل الفن من غرور فرساي إلى التواضع الذي يطالعنا في تمثال كوازفوكس لويس الرابع عشر راكما في النوتردام — هنا نرى الملك وقد بلغ السابعة والسبعين ، مزهوا إلى الآن بأثوابه الملكية ، ولكنه يضع تاجه في تواضع عندقدمي العذراء . في هذه السنوات الأخيرة تقلص الإنفاق على فرساي ومارلي ، ولكن خورس النوتردام رمم وجر . أما عبادة الفن القديم فقد فترت نتيجة لشططها ، وبدأ الطبيعي يجهز على الكلاسيكي ، وقضى على دفعة الفن الوثنية إلغاء مرسوم نامت . وتسلبت مدام دمانتون وتلاميذه على الملك . وشددت للموضوعات الزخرفية الجديدة على الدين لا على الجسد ، فلقد عرف لويس ربه أخيرا .

إن تاريخ الفن أبان حكم الملك العظيم يعذبنا بأسئلة عويصة . فهل كان تأميم الفنون نعمة أو نقمة ؟ وهل حول تأثير كولبير ولبرون والملك تطور

فرنسا من الاتجاه الأصيل والطبيعى ، إلى محاكاة موهنة لفن هلنستى حل به الضعف ، محاكاة شوشها إسراف باروكى فى الزخرفة ؟ وهل تثبت هذم السنوات الأربعون من « طراز لويس الرابع عشر » أن الفن يزداد ازدهارا فى ظل ملكية ترعاه بالثروة المركزة ، وتوجه المواهب فى وحدة متسقة ؟ — أم فى ظل ارسىةقراطية تصون ، وتوصل ، وتعذل فى حذر ، معاير الجودة والذوق ، وأصول النظام والانضباط ؟ — أم فى ظل ديمقراطية تفتح الطريق أمام كل موهبة وتطلق السكفايات من ربةة التقاليد ، وتلزم الفن بأن يعرض إنتاجه على الشعب ويكيفه وفق رأيه ؟ وهل كان ممكنا أن تغدو إيطاليا وفرنسا الوطنين المحظوظين للفن والجمال اليوم لولا أنهما جملتا بأموال وأذواق السكينة والنبلاء والملوك ؟ وهل كان ممكنا أن يوجد فن عظيم دون تركيز الثروة ؟

إن الجواب المتواضع المفيد عن هذه الأسئلة يقتضى حكمة طالية ، وأى جواب من هذا القبيل لابد أن يجعله التفريعات والشكوك جوابا ضامضا غير حاسم . ولعل الفن فقد شيئا فى طبيعته ومبادرته ونشاطه نتيجة لما بسطته عليه القوة المركزية من حماية وتوجيه وهيمنة . صحيح أن فن لويس الرابع عشر كان فنا منظما ، أكاديميا ، جليلا بهائه المنسق ، لا يفوقه فن فى صقله الفني ، ولكن السلطة عطلت قدرته على الابتكار ، وقد قصر دون ذلك الالتحام بالشعب الذى أضى الهدف والعمق على الفن القوطى . لقد كان آساق الفنون فى عهد لويس رانما ، ولكنه كثيرا ما كان يعزف على نفس الوتر ، حتى لقد أصبح فى النهاية تعبيرا لآعن جيل وأمة ، بل عن ذات وبلاط . صحيح أن الثروة لاغنى عنها للفن العظيم ، ولكن الثروة تكون عارا ، والفن يكون بغيضا ، إذا ازدهرا على حساب فقر شامل واعتقاد بالخرافات مذل ، فالجيل لا يمكن فصله طويلا عن الخبر . وقد تكون الارستقراطية حارسا وناقلا مفيدا للمعدات والمعاير والأذواق

إذا تيسرت الأسباب ففتحها أمام المواهب الجديدة، ولمنمها من أن تكون أداة للامتياز الطبقي وللترف الكاذب . كذلك تستطيع الديمقراطيات أن تجمع الثروة وتضفي عليها الكرامة بتغذيتها للمعرفة والآداب والبر والفن ، ومشكلات الديمقراطيات في معاداة الحرية غير الناضجة للنظام والانضباط ، وفي نمو الذوق نموا بطيئاً في المجتمعات الناشئة ، وفي ميل السكفانيات غير المحكومة لأن تبدد نفسها في تجارب شاذة تخطف الابتكار فتحسبه عبقرية ، والطرافة فتحسبها جمالا .

على أية حال كان رأى استقرائيات أوروبا في صف الفن الفرنسى دون ما تردد . فانتشر معمار القصور والنحت الكلاسيكى والأسلوب الأدبى والزخرفة الباروكية اللآث والثياب — انتشر هذا كله من فرنسا إلى كل مطبقة حاكمة تقريباً في غرب أوروبا حتى إلى إيطاليا وأسبانيا . وتطلعت قصور لندن وبروكسل وكولون ومينس ودرسدن وبرلين وكاسل وهيدلبرج وتورين ومديرى إلى فرساي مثلاً تحتذيه في السلوك والفن . وكلف المماربون الفرنسيون بتصميم القصور حتى مورافيا شرقاً ، وصمم لنوتر الحداثق في وندزور وكاسل ، ووفد رن وغيره من المماربين الأجانب على باريس لينةاوا عنها الأفكار ، وابتعث النحاتون الفرنسيون في جميع أرجاء أوروبا ، حتى أصبح لكل أمير تقريباً تمثال راكب كتمثال ملك فرنسا . وظهرت قصص لبرون الرمزية الأسطورية في السويد ، والدنمرك ، وأسبانيا ، وهامتن كورت . والتمس الملوك الأجانب أن يجلسوا إلى ريجو ليصورهم فإن لم يتيسر فإلى أحد تلاميذه . وأوصى حاكم سويدي بقطع من نسيج بوفيه المرسوم تخليداً لاتنصاراته . إن التاريخ لم يشهد منذ انتشار الثقافة اللاتينية القديمة في غرب أوروبا غزواً ثقافياً أنجز بمثل هذه السرعة وهذا السكال .

الفصل الرابع

موليير

١٦٢٢ - ٧٣

١ - المسرح الفرنسي

بقى الآن أن نخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوروبا لسلطانهما .

ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسى فى هذا العصر إلى المسرح ، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التى ظلت الكنيسة تحرمها طويلا ، وأن يستورد الكردينال مازارن الملهة الإيطالية إلى فرنسا ، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين الكاهنين اللذين مهدا لسلطته أو حفظاها .

كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبى فى إيطاليا برواية بابوات النهضة الرفيعة الثقافة ، وكان ليوالعاشر يحضر التمثيلات دون أن يطالب بأن تكون صالحة للمعذرى . ولكن الإصلاح البروتستانتى وجمع تروت المترقب عليه وضعا حدا لهذا التساهل السكنى . وقال بنديكت الرابع عشر إن المسرحية لم يستمر السماح بها فى إيطاليا إلا درءا لشرور أفدح ، وفى أسبانيا إلا لأنها تخدم الكنيسة . وأما فى فرنسا فإن رجال الأكايروس ، اللذين صدمتهم الحرية الجنسية التى تمتع بها المسرح الهزلى ، نددوا بالمسرح عدواً للأداب العامة . وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بحكم طبيعة الحالة ، أى بحكم مهنتهم ذاتها ، وأنكر عليهم قساوسة باريس ، اللذين عبر عنهم بوسويه الأمر ، حق تناول الأسرار أو الدفن فى أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلعوا عن مهنتهم . وإذ حرّموا من مراسم

حصر الزواج يقوم بها كاهن ، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرفية باللغة القلق وعدم الاستقرار ، كذلك وسم القانون الفرنسي الممثلين وأقصامهم عن كل وظيفة شريفة ، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية .

ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة . ذلك أن المطلب الشعبي للتظاهر والادعاء تخففاً وثأراً من الواقع أوجب العدد العديد من الهزليات والملاهي ، وكان للآلام التي فرضها على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة الفضل في إقبال جمهور سخى العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام . ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رعاية أفضل المسرحيات لا رفضها كلها ، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام ، والعيش للفرق المسرحية المهذبة . وليلاحظ القارئ تقرير فولتير الآتي : « منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثيلات في البلاط ، الأمر الذي جعل باريس الآن منافسة لأثينا ، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التي تضم نفران القساوسة ، بل خصص مقعد آخر للأساقفة (١) » . وفي ١٦٤١ ، ربما بناء على طلب الكردينال ، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين ، وأجرى عليهم معاشا قدره ألف ومائتا جنيه في العام ، وأصدر مرسوماً يعترف بالمسرح لوناً مباحاً من ألوان الترفيه ، وأعرب عن رغبة الملك في ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه في المجتمع (٢) . وأقامت الفرقة مسرحها في « الأوتيل دبورجون » ، وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية ، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها في أخراج المآسي .

ورغبة في رفع مستوى الملهة الفرنسية ، دعا مازاران نفران من الممثلين الإيطاليين إلى باريس ، ومنهم تيبيريو فيوريللي ، الذي أصبح أثيراً لدى باريس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار « سكاراموتشا » . ولعله هو

وزملاؤه شاركوا في بحث حمى المسرح في أوصال جان بوكلان الرابع ،
وفي تعليمه فنون المسرح الهزلى (٣) . فلما عاد «سكاراموش» إلى إيطاليا —
(١٦٥٩) أصبح جان بوكلان ، الذى عرفه المسرح والعالم باسم موليير ،
الممثل الهزلى الأول للملك ، وبعدها بقليل — فى رأى بوالو المولع به —
أكبر كتاب العصر .

٢ - تلمذته

على المبنى رقم ٩٦ بشارع سانت — أونوريه كتابة بحروف من ذهب
هذا نصها : —

شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذى ولد فيه . موليير

فى ١٥ يناير ، ١٦٢٢

وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث — منجد الأثاث والمزخرف .
وكانت زوجته ماري كريسيه قد أتته بمهر قدره ٢٢٠٠ جنيه ، وأنجبت له
ستة أطفال ، ثم ماتت بعد زواجهم بعشر سنوات ، ولم يكن طفلها الأول —
جان باتست بوكلان الرابع — يتذكروها فى وضوح ، ولم يذكروها قط فى
تمثيلياته . وتزوج الأب ثانية (١٦٣٣) ولكن زوجة الأب ماتت فى ١٦٣٧ ،
فكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده ، وبوجه تعليمه ، ويفكر فى
تشكيل مجرى حياته . وفى ١٦٣١ أصبح جان بوكلان الثالث « المشرف
على تنجيد أثاث حجرة الملك » ومنح امتياز إعداد السرير المملكى والسكنى
فى البيت المملكى ، لقاء راتب سنوى قدره ثلثمائة جنيه ، وهو مبلغ متواضع ،
ولكنه لم يلزم الحضور فى أى طام أكثر من ثلاثة أشهر . وكان الأب قد
اشترى الوظيفة من أخيه ، وأراد أن يورثها ابنه . وفى ١٦٣٧ أقر لويس

الرابع عشر حق جان بوكلان الرابع فى وراثـة الوظيفة ؛ ولو أن تطـلعات الأدب تحققت لعرف التاريخ مولير — إن عرفه إطلاقاً — بأنه الرجل الذى كان يعد سرير الملك . على أن جداً للصبي أولع بالمرح ، فكان يصطحبه إلى حفلات التمثيل بين الحين والحين .

وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك ، أرسل إلى كلية اليسوعيين فى كليرمون ، وكانت الأم الحانية على المهرطقين . وهناك تعلم الكثير من اللاتينية ، وقرأ تيرنس وأفاد منه ، ولا شك أنه اهتم ، وربما شارك ، فى المسرحيات التى عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب والسكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليماً عن الفيلسوف جاسندى الذى كان قد عين معلماً خاصاً لزميل فى فصل جان . على أية حال تعلم جان الكثير عن أبيقور ، وترجم شطراً كبيراً من ملحمة لوكريتيوس الأبيقورية *De rerum natura* (وبعض سطور مسرحيته « مبغض البشر »^(٤)) . تسكاد تسكون ترجمة لفقرة فى لوكريتيوس^(٥) . والراجح أن جان فقد إيمانه قبل أن يختتم صباه^(٦) .

وبعد أن قضى خمس سنين فى الكلية درس القانون ، ويبدو أنه مارسه حقبة قصيرة فى المحاكم . ثم اتخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (١٦٤٢) . وفى ذلك العام التقى بمادلين بيجار ، وكانت وقتها سيدة مرحة فى الرابعة والعشرين . وقبل ذلك بخمس سنين كانت خلية للسكوت دمودين ، الذى اعترف فى سماحة بالطفل الذى ولدته له ، وأذن لابنه فى أن يقف عراباً له عند صاده . وفتنت مادلين جان — وكان قد بلغ العشرين — وسهرته بجمالها وطبعها البشوش اللطيف . وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً . وقد حمله عشقها للمسرح ، مع عوامل أخرى ، على اتخاذ قرار بأن يولى لتنجيد الأثاث ظهره ، وأن ينزل عن حقه فى أن يخلف أباه مشرفاً على تنجيد حجرة الملك لقاء ٦٣٠ جنيهه ، وأن يلتقى بنفسه فى خضم التمثيل (١٦٤٣) . وذهب ليقم فى بيت مادلين

بيجار^(٧) . ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين في تماقد رمى أنشأوا بمقتضاه
« للمسرح الشهير » (٣٠ يولية ١٦٤٣) . ويعتبر الكوميدي فرانسيز ذلك
العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز . واتخذ جان الآن اسماً مسرحياً جرياً
على عادة الممثلين ، فأصبح يسمى موليير .

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعباً للتنس مسرحاً لها ، وقدمت مختلف
التمثيليات ، ثم أفلس ، وفي ١٦٤٥ قبض على موليير ثلاث مرات بسبب الدين
ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معللاً نفسه بأن الفتى
قد برىء من حمى المسرح . ولكن موليير أعاد تأليف « للمسرح الشهير »
وانطلق في جولة بالأقاليم . ومنح الدوق دي بيرنون حاكم جبين الفرقة تأييده .
وتنقلت الفرقة في سلسلة مضنية من النجاح والفشل بين ناربون ، وتولوز ،
وألبى ، وكاركاسون ، ونانت ، وآجن ، وجرينوبل ، وليون ، ومونبلييه ،
وبوردو ، وبزييه ، وديجون ، وأفنيون ، وروان ، وارتقى موليير حتى
أصبح مديراً لها (١٦٥٠) ، ووفق بعشرات الحيل في أن يحفظ للفرقة قدرتها
على إبقاء ديونها ويكفل لها طعامها . وفي ١٦٥٣ أعار الأمير ديكوتى ، زويه
المدرسى القديم ، اسمه للفرقة وقدم لها المعونة ، ربما لإعجاب سكرتيره
بالممثلة الأنسة دوبارك . ولكن الأمير أصابته نوبة شلل دبنى في ١٦٥٥ ،
فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح ، ومالبث بعد ذلك أن
تدع علانية بالمسرح ، وبموليير بصفة خاصة ، مفسداً للشباب وعسداً
للفضيلة والمسيحية .

ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة شيئاً فشيئاً بكفايتها ودخلها و ذخيرتها
من المسرحيات . وتعلم موليير فن المسرح وحيله . فما وافى عام ١٦٥٥ حتى
كان يكتب التمثيليات كما يمثلها . وفي ١٦٥٨ آس في نفسه من القوة ما يكفي
لتحدي فرقتين احتلتا المسرح الباريسى ، فرقة ممثلى الملك فى الأوتيل
دبورجون ، وفرقة خاصة تمثل فى مسرح ماريه . وحضر هو ومادلين بيجار

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق لفرقتها • وزار أباه ، وظفر بعفو عن ذنوبه ومهنته . ثم أقنع فيليب الأول دوق أورليان بأن يبسط حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط .

وفي أكتوبر ١٦٥٨ مثلت « فرقة المسيو » هذه أمام الملك في قاعة الحرس باللوفر مأساة كورنى « نيكوميد » ، ومثل موليير الدور الرئيسى دون توفيق كبير ، لأنه كما يقول فولتير كان يعانى « من ضرب من الفواق لا يلائم البتة الأدوار الجادة ، ولكنه يعين على جعل تمثيله فى الملهاة أكثر إمتاعا » (١) . وقد أنقذ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها ، ومثل بحموية ومرح ، وحاجب مرذوع وفهم مثرثر جعل الجمهور يتساءل لم يمثل المأساة إطلاقا • وكان فى الملك من الصبى ماجعله يستمتع بهذا الهزل ، ومن الرجولة ماجعله يقدر شجاعة موليير • فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة المسيو فرقة سكاراموش الإيطالية فى قاعة البتى بوروبون ، وهناك أيضا أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المأساى التى قهرروا فى أدائها دون ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، ووقفوا فى التمثيليات الهزلية ، لاسيما التى ألّفها موليير • ومع ذلك واصلوا إخراج المأساى • ذلك ان كبار الممثلات كن يشعرن بأنهن يتألقن أكثر فى الدراما الجادة ، ولم يكن • ولبير نفسه راضيا قط بأن يكون كوميديا ، لأن صراعات الحياة وسخافات أورثته مسحة من الحزن ، وقد وجد أمرا فاجعاً له أن يكون على الدوام مضحكا • يضاف إلى هذا أنه سئم هزليات المكائد الغرامية والشخصيات المبتذلة وكباش الفداء المألوفة ، وأكثرها أصدا لىطاليا • وتلفت حوله فى باريس فرأى فيها أشياء لا تقل إضحكا عن بوليشينيل وسكاراموش • وروى عنه قوله « لم يعد بى حاجة إلى اتخاذ بلوآس وتيراس أساتذة لفنى أو إلى السطو على ميناندر • فما على إلا أن أدرس هذه الدنيا » (٢) •

٣ - مولير ونساء المجتمع

مثال ذلك « الأوتيل د-امبويه » حيث كان الرجال والنساء يعجودون « الآداب الرقيقة والحديث المعطر » فكتب مولير تمثيلية « المتحذلقات المضحكات » . وكان إخراجها (١٨ نوفمبر ١٦٥٩) فاتحة ملهاة العادات الفرنسية وبداية لحظ مولير وشهرته . وكانت الملهاة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة، وفيها من الحدة ما خلف لدعة طويلة الأيلام . استمع إلى ابنتي العم، مادلون وكاتوس، اللتين تلفهما سبعة أفنعة من القظرف، تحتجان على تلف الكبار ، الواقعيين . المفلسين ، على تزويجها .

جرجيوس : أى عيب تريان فيهما ؟

مادلون : يا لها من كياسة رائعة منها حقاً ماذا ، أبداً فوراً بالزواج . . . لو كان الناس جميعاً مثلك لقضى للتو على الرومانس . . . إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى . فعلى العاشق إن أراد قبولاً أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهدبة ، وكيف يتأوه بالحديث الناعم ، الرقيق ، المشبوب ، ويجب أن يكون حديثه مطابقاً للقواعد . فعليه بأذى ذى بدء أن يرى في الكنيسة أو في الحديقة العامة أو في حفل طام تلك التى يشغف بها حبا ، وإلا وجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق ، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئباً متأملاً . ثم يخفى عاطفته حيناً عن موضع حبه ، ولسكنه يزورها مرات ، لا يعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريباً لعقول الجماعة كلها . . . ثم يأتي اليوم الذى يبوح فيه بحبه ، وينبغى أن يتم هذا عادة فى عمى حديقة بينما الجماعة على بعد منها . وهذا التصريح نقابله طدة بالاستياء ، الذى يبدو فى احمرار وجوهنا ، والذى يقصى العاشق عنا زمناً ، ثم يجد الوسيلة لمصالحتنا بعد حين ، ولتعويدنا أن نسمع حديث غرامه دون أن نقألم ، واستلال ذلك الاعتراف الذى يسبب لنا عرجاً شديداً .

ثم تملأ ذلك للغامرات : المزاحمون الذين يحبطون ميلا رسخ ، واضطهادات الآباء ، والغيرة للنسبة من المظاهر الكاذبة ، والشكاوى ، واليأس ، والحروب مع الحبيب ، وما يسفر عنه من عواقب . هكذا ينبغي أن تجري الأمور بأسلوب جميل ، وتلك هي القواعد التي لاغنى عنها للتودد المذهب الأنيق . أما الاندفاع رأسا إلى الرباط الزوجي ، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج ، والإمساك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها — فرة أخرى أقول لك يا أبى العزيز إنه ما من شيء أكثر آلية من تصرف كهذا ، ومجرد التنفكير فيه يشعري بالغثيان .

كانوس : أما أنا ياعماء فكل ما أستطيع أن أقوله هو إننى أرى الزواج شيئا مروعا جدا . فكيف أطبق فكرة الرقاد مع رجل عريان حقا (١٠) ؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتنكران كركيز وجنرال ، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من نظرف ومزاح . ويفاجئهما السيدان ، ويجردانهما من ملابسهما المزيفة ، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريبا . وفى هذه الملهاة ، كما فى جميع ملاهى مولير الجنسية ، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص ، ولكن فيها هجوا لاذعا للاحقات الاجتماعية ، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدثا فى تاريخ عادات المجتمع . وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وفقت وسط الجمهور وصاحت « تشجع ! تشجع ! هذه ملهاة حسنة يا مولير » (١١) وروى أن واحدا من رواد صالون مدام درامبويه قال بعد خروجه من التمثيلية « بالأسع أعجبنا بكل السخافات التى نقدت نقدا رقيقا معقولا جدا ، ولكن علينا الآن — كما قال القديس ريمى اسكلوفيس — إن نحرق جامعينا ، ونعبد ما أحرقنا » (١٢) . وقابلت المركزية درامبويه الهجوم بعقوبة ، إذ اتفقت مع مولير على إحياء حفلة يخصص إيرادها لصالونها ، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم ينج صالونها بل مقلديه . على أية

حاله انتهى ملك « المتحدقات » . وقد أشار بوالو في هجائيمه العاشرة إلى تلك « العقول الجميلة التي كانت بالأمس ذائعة الصيت ، والتي فرغها مولير بضربة واحدة من فنه » .

وقد نجحت المسرحية نجاحا ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح . وقد مثلت في طامها الأول أربعاً وأربعين مرة ، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط ، حضرها جميعا ، ونفج الفرقة بثلاثة آلاف جنيه . وما وافى فبراير ١٦٦٠ حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت ٩٩٩ جنيهها جعالة للمؤلف . ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجاءها ممثلي المسرح الملكي « فـما من إنسان قادر على أن يشهر شيئا إلا لم ، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأنهم يتحدثون . هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تملجلج ، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة . فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويخبرك بهذه الطريقة أن تصفق استحسانا (١٣) » .

وأعربت فرقة الأوتيل دبوربون عن احتقارها السافر لمولير لعجزه عن إخراج المأساة ، ولقدرته على الملهة الرخيصة دون غيرها . وعزز مولير حججهم بتأليفه وعرضه مسلاة « فارص » متوسطة الجودة سماها « الديوث بالوم » ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات .

وكانت التغييرات تجري خلال ذلك في مبنى اللوفر القديم ، فهدمت صالة البتي بوربون في استهتار ، ولاح حيناً أن « فرقة المسيو » التي يرأسها مولير لن تجد لها مسرحا . ولكن الملك العطوف دائما بادر إلى إنقاذها بأن خصص له في الباليه — رويال « الصالة » التي خصصها ريشايو لعرض التمثيليات . وهناك ظلت فرقة مولير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط . وكان أول عرض له في هذا المأوى الجديد آخر محاولاته في المأساة ، وهي « دون جراسي » . وكان رأيه — وله فيه بعض العذر —

أن أسلوب المأساة الخطابي الفخم كما طوره كورنبي ، ومثلته فرقة الأوتيل دبورجون ، أسلوب غير طبيعي ، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية . ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح (وفواقه) لجاز أن ينتج مزيجاً موفقاً من المأساة والمهابة كما فعل شيكسبير ، فإن في أعظم ملاحيه والحق يقال مسحة من المأساة . ولكن « دون جراسي » سقطت ، برغم جهود الملك لدعمها بمحاضرة ثلاث حفلات ، لقد كان قدر مولير أن يكابد للمأساة لا أن يمثلها .

وعليه فقد عاد إلى المهابة . ولقيت « مدرسة الأزواج » نجاحاً طيب خاطره إذ عرضت يومياً من ٢٤ يونيو إلى ١١ سبتمبر ١٦٦١ . وقد أذنت بزواج مولير الوشيك ، وكان وقتها في التاسعة والثلاثين ، من أرماند بييجار ، ذات الثمانية عشر ربيعاً ، ومشكلة المسرحية هي : كيف ينبغي أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحة أمينة ؟ فالشقيقان أريست وسجناناريل محظوظان لكونهما الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست ، البالغ من العمر ستين عاماً ، فيعامل فئاته القاصريون نور ، ذات الثمانية عشرة ، بغاية اللين :

« لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغرة على أنها جرائم . ولقد لبيت على الدوام رغباتها الشابة ، ولست والله الحمد آسفاً على ذلك . فقد أذنت لها بأن تخالط الأصحاب الطيبين ، وتشهد الملاهي ، والتمثيليات ، والمراقص ، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب ، وما الدنيا إلا مدرسة أحسبها تعلم طريقة العيش خيراً من أي كتاب . إنها تحب أن تنفق المال على الثياب ، والقمصان ، والأزياء الجديدة . . وأنا أحاول أن أشبع رغباتها ، فهذه لذات ينبغي أن نتيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن (١) » .

وأما الأخ الأصغر سجناناريل فيحتقر أريست لأنه إنسان أحق ضلته أحدث الأوهام . وهو يأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق .

الجديدة ، وعلى وقاحة الشباب المتحرر . وهو بنوى أن يأخذ فتاته القاصر
إيزابيل بنظام صارم ليروضها على أن تكون زوجه مطيعة :

« لا بد أن ترتدى الملابس اللائقة . . . فإذا لؤمت بيتها كما تلزمه للمرأة
العاقلة انصرفت بمجملها إلى شئون الزوجية ، فترفو الثياب في ساعات فراغها
أو تحبك الجوارب لتتسلل بها . ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام
عليها رقيب . . . إنني لن ألبس قروناً إذا استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبانية) تهرب إيزابيل
مع عاشق ذكي ، في حين تزوج ليونور من أريست وتظل وفيه له إلى
آخر الثميلية .

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه . ففي ٢٠ فبراير ١٦٦٢ ، وهو في
الأربعين ، تزوج بأمرأة تصغره بنصف عمره . أضف إلى ذلك أن عروسه
هذه — أرماند بيجار — كانت ابنة مادلين بيجار ، التي كان موليير يعاشرها
قبل عشرين عاماً . وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية . وكتب
موفلورى ، رئيس فرقة الأوتيل دبورجون للمنافسة ، إلى لويس ينبئه بهذا
في ١٦٦٣ ، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراباً لأول طفل ولدته أرماند
لموليير . أما مادلين ، حين لقيها موليير ، فكانت أشد احتفالا بشخصها من
أن تتيح لنا أى معرفة يقينية بنسب أرماند . ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه
أبو الفتاة ، ولنا أن نفترض أن معلوماته في هذه النقطة كانت أفضل قليلاً مما
يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن .

كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة للدال . وكان موليير يراها
كل يوم تقريباً ، وقد أحبا طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزم من طويل . وكانت
الآن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج . أما وقد نشأت في هذا الجو فأنها لم
تخلق لتكون زوجة لرجل واحد ، لاسيما رجل قد أبلى روح الشباب .

لقد أحببت لذات الحياة واستغرقت في معاشات فسرهما الكثيرون على أنها،
خيانات للزوج ، وعانى موليير من جراء ذلك ، وكان أصدقاؤه وأعداؤه
يلوكون الشائعات عنه . وبعد زواجه بعشرة أشهر حاول أن يهدىء جراحه
بنقد غيرة الرجال والدفاع عن تحرر النساء . لقد حاول أن يكون أريست ،
ولكن أرماند لم تستطع أن تكون ليونور . ولعله أخفق في أن يكون
أريست لأنه كان نافذ الصبر شأنه شأن أى مخرج مسرحى . وفى « تمثيلية
فرساي المرتجلة » (أكتوبر ١٦٦٣) وصف نفسه إذ يقول لزوجته « اسكتى
أيتها الزوجة ، فأنت إلا حمارة » . فتجيب « شكراً لك أيها الزوج الطيب .
أنظر ما صار إليه أمرنا . أن الزواج يغير الناس تغييراً عجيباً ، فما كنت
لتقول هذا قبل سنة ونصف (١٥) » .

وواصل تأملاته فى الغيرة والحرية فى مسرحيته « مدرسة الزوجات » التى
عرضت أول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٦٦٢ . ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب
على هذا الوتر — الزوج الديوث . فترى آرنولف الذى لعب موليير دوره
هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق ، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة ،
وأن السبيل الأوحى لضمان وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة ،
وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها . وتشب أنيس ، القاصر
الذى كان وصياً عليها وعروسه المستقبل ، فى براءة حلوة ، حتى أنها تسأل
آرنولف فى عبارة تردد صداها فى طول فرنسا وعرضها ، « أيولد الأطفال
من الأذن (١٦) » ؟ . ولما كان آرنولف لم يتحدث إليها بشئ عن الحب ،
فأنها ترحب فى سرور برىء بتودد هوراس الذى يجسد طريقه إليها أثناء
غيبه قصيرة اللوصى . فإذا عاد آرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً
لمسلك هوراس :

آرنولف : حسناً ، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك ؟
آنييس : قال إنه يحبنى حباً حاراً لا نظير له . وقال لى باللفظ لغة فى

الدنيا أشياء لا يمكن أن يعد لها شيء . وقد أبهجنى لطف حديثه كلما استعمت إليه ، وأثار في شيئاً لا أعرفه ، عاطفة سحررتني تماماً .

آرنولف : (جانباً) ياله من تحقيق معذب في سر قتال ، يعانى فيه المحقق كل الألم ! (بصوت عال .) ولكن علاوة على هذا الحديث كله ، وهذه الأساليب اللطيفة كلها ، ألم يقبل لك بعض القبلات أيضاً ؟

أنيس : أوه ! إلى هذا الحد لقد تناول يدي وذراعى ولم يتعب قط من تقبيلها .

آرنولف : ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنيس ؟ (ملاحظاً حيرتها) ها ؟

أنيس : بلى ، لقد .

آرنولف : ماذا ؟

أنيس : أخذ .

آرنولف : كيف ؟

أنيس : الب .

آرنولف : ماذا تعنين ؟

أنيس : لا أجرؤ على إخبارك ، لأنك قد تغضب منى .

آرنولف : لا .

أنيس : نعم ، ولكنك ستغضب .

آرنولف : يا للهول ، لن أغضب .

أنيس : أحلف إذن .

آرنولف : أحلف .

أنيس : أخذ - سيثور غضبك .

آرنولف : لا .

أنيس : نعم .

آرنولف : لا ، لا ، لا ، لا . بحق الشيطان ما هو هذا السر ؟ ماذا
أخذ منك ؟

أنيس : أنه —

آرنولف : (جانباً) إنى أقسى عذاب الجحيم .

أنيس : أخذ الوشاح الذى أعطيتنى ، أصدقك القول أننى لم أستطع منعه .

آرنولف : (متمالكاً نفسه) : لا بأس بالوشاح . ولكنى أريد أن أعلم
ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك ؟

أنيس : أيفعل الناس أشياء أخرى ؟

آرنولف : لا ، لا ، لا . . . ولكنى باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول
علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير للتبرجون ،
والسماح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة —
هذا كله خطيئة مميتة ، بل أقطع خطيئة يمكن أن تركبها .

أنيس : تقول خطيئة ! والسبب من فضلك ؟

آرنولف : السبب ؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه .

أنيس : تغضبها ؟ ولكن لم تغضب السماء ؟ والأسفاه ؟ إنه شيء حلو
لذيذ ، تعجبني البهجة التى أجدها فيه ، ولم أعرف من قبل هذه الأشياء .

آرنولف : نعم ، هناك الكثير من اللذة فى هذه العواطف الرقيقة ،
وهذه الأحاديث اللطيفة ، وهذه القبل الحارة ، ولكن ينبغى تذوقها
بطريقة شريفة ، والزواج كفيف بأن يحو عنها الخطيئة .

أنيس : أفلا تعد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً ؟

آرنولف : نعم .

أنيس : أرجوك إذن أن تتزوجنى حالا (١٧) .

وتهرب أنيس إلى هوراس بعد قليل طبعاً . ولكن آرنولف يقتنصها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمته حلاوة صوتها وجمال جسدها ، وربما كان مولير يفكر فى أرماند وهو يكتب عبارات آرنولف التالية :

« أن ذلك الحديث وتلك النظرة يجردان غضبى من سلاحه ، ويميدان إلى الحنان الذى يمحو ذنبها كله . فما أعجب أن يحب الإنسان ! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائنات افسكلنا يعرف نقصهن ، فما هن إلا التبذير والحماقة ، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف ، وما من شئ أوهن منهن ، ولا أقل ثباتاً ، ولا أكذب ، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شئ فى الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات (١٨) » .

وفى النهاية تهرب منه وتتزوج هوراس ، أما آرنولف فيميزه صديقه كريسالد بفكرة مؤداها أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التى تقيه من أن يطلع له قرنان فى رأسه .

وأهيجت التمثيلية جمهورها ، فثلت إحدى وثلاثين مرة فى الأسابيع العشرة الأولى ، وكان فى الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بخلاعتها ، ولكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا اللهاة لما فيها من مجاعة للفضيلة ، وكرهت السيدات فكرة الولادة من الأذن ، وندد الأمير كوتى بمنظر الفصل الثانى الذى سقنا حواراً من قبل بين آرنولف وأنيس زاماً أنه أفضح ما عرض على خشبة المسرح . ولعن بوسويه التمثيلية برمتها ، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين ، وسخرت الفرقة المنافسة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشطحات الحبكة المتعجلة . وظلت التمثيلية حيناً « حديث كل بيت فى باريس (١٩) » .

وكان في موليير من حب النضال مالا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه . ففي تمثيلية ذات فصل واحد مثلت في الباليه رويال في أول يونيو ١٦٦٣ ، واسمها « نقد مدرسة الزوجات » عرض لنا لقاء بين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم ، ولم يسكد برد عليها إلا بأن يدع النقد يصف ذاته بمبالغته ، وأن يجريه على ألسنة شخصيات مثيرة للسخرية . وواصل الأوتيل دبورجون « الحرب السكوميديّة » بإخراجه هزلية قصيرة سماها « الناقد المعارض » ، وهجا موليير والفرقة الملكية في « تمثيلية قرساي المرتجلة » (١٧ أكتوبر ١٦٦٣) . وساند الملك موليير في وفاء ، ودعاه إلى العشاء (٢٠) ، ومنحه الآن معاشا سنويا قدره ألف جنيه ، لا بوصفه « ممثلا كوميديا » بل « شاعرا فذا » (٢١) . كذلك نصر الزمن موليير ، فمدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة في المسرح الفرنسي .

٤ — غرام طرطوف

ولكن موليير دفع ثمن حظوته لدى الملك . فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته ، فجعله من كبار للنظمين للملاهى في فرساي وسان — جرمان . وقد ملأ أحد هذه المهرجانات المسمى « مباحج الجزيرة المسجورة » أسبوعا (٧ — ١٣ مايو ١٦٦٤) بألعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما — وكلها أقيم في حديقة فرساي وقصره تحت أضواء المشاعل والشمععدانات التي تحمل أربعة آلاف شمعة . وكوفيء موليير على جهوده في هذا المهرجان بستة آلاف جنيه . وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك في استغلال عبقرية موليير لكي يوفر هذا اللهو الخفيف في البلاط ، وتصوروا تلك الروائع التي كان من الجائز أن يستكمل نضجها لو أن الشاعر السكامن في الكوميدي أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة . غير أنه كان واقعا تحت ضغط من فرقته أيضا ، وما كانت شواغله ومسئوليّاته ١٢ — قصة الحضارة

مديرا للفرقة وممثلا بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف في أى برج حاجى .
وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملع خيرا مما يكتبون في
الفراغ ، فالفراغ يرعى الدهن ، والإلحاح يشحذه . ولقد أخرج مولير
أعظم تمثيلياته أول مرة في ١٢ مايو ١٦٦٤ ، في قبة « مباحج الجزيرة
المسحورة » ، وكانت جزءا من المهرجان .

في هذا العرض الأول لم تكن « طرطوف » بالتمثيلية المناسبة تماما
للمهرجان ، لأنها فضحت في غير رحمة ذلك النفاق الذى يتخفى خلف رداء من
التقوى والفضيلة . وكانت جماعة دينية من الإخوة العلمانيين تدعى « جمعية
السر المقدس » ، وعرفت فيما بعد بـ « عصبة الوريين » قد قطعت اليهود على
أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية . أما الملك الذى كانت علاقته
الغرامية بلافالير قد أثارت كثيرا من نقده هؤلاء الوريين ، فقد كان مزاجه
يدعوه للاتفاق مع مولير ، ولكنه بعد أن شاهد الملهاء في عرضها الخاص
بفرساي أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس في الباليه — رويال .
وطيب خاطر مولير بدعوته ليقرا « طرطوف » في فونتنبلو على نخبة
مختارة تضم ممثلا للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (٢١ يوليو ١٦٦٤) .
في ذلك الشهر مثلت المسرحية في بيت دوق أورليان ودوقتها (هنرييتا آن) ،
في حضرة الملكة ، والملسكة الأم ، والملك . وبينما كان يجرى التعميد
لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان — برتلى ، بيير روليه ، في أغسطس
ثناء على الملك لحظه التمثيلية ، واغتم هذه الفرصة ليرى مولير بأنه
« رجل ، بل شيطان متجسد في ثوب رجل ، وأشهر مخلوق فاسق منحل
عاش إلى الآن » . ثم قال الأب روليه إن جزاء مولير على تأليف طرطوف
« أن يحرق على الخازوق ليزدوق من الآن نار الجحيم (٢٢) » . ووبخ الملك
روليه ، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علنا . ولكي يظهر
حقيقة موقفه رفع معاش مولير السنوى إلى ستة آلاف جنيه ، وتلقى

عن « المسيو » حاية فرقة موالير ، فأصبحت منذ الآن « فرقة الملك » .

وظل الجدل مضطربا تحت الرماد طامين . ثم قرأ موليير على الملك نسخة منقحة من التمثيلية ، أضاف إليها سطورا تذكر أن الهجاء ليس موجها ضد الإيمان الصادق بل ضد الرياء . وأيدت مدام هنرييتا التماس المؤلف الإذن بمرض المسرحية . ووافق لويس موافقة شفوية ، وبينما كان منطلقا إلى الحرب في فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه — رويال في ٥ أغسطس ١٦٦٧ بمد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها في البلاط . وفي الغد أمر رئيس باريس ، وكان ينتمي لجماعة السر المقدس ، بغلق المسرح وتمزيق كل لافتاته . وفي ١١ أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة اللهاة أو مباعها أو تمثيلها سرا أو علانية ، وإلا كان الحرم جزاء المخالف . وأعلن موليير أنه سيعتزل للمسرح إذا استمر انتصار « الطراطيف » هذا . أما للملك الذي طاد إلى باريس فقد أمر الكاتب للمسرحى الغاضب بأن يتذرع بالصبر ، ففعل ، وأثيب في النهاية برفع الحظر للملكى . وفي ٥ فبراير ١٦٦٩ بدأت التمثيلية فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة . وبلغ من كثرة الراغبين في دخول المسرح وتهافتهم عليه في أول حفلة علنية أن السكتيرين كادوا يمحنتقون . لقد كانت « أشهر مسرحية » في حياة موليير المسرحية . وقد حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكبر عدد من العروض — بلغت ٢٦٥٧ (حتى سنة ١٩٦٠) في مسرح الكوميدي — فرانسيز وحده .

ولكن إلى أى حد تملل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل ، وشعبيتها المتصلة ؟ أنها تملل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى ، وتعلل الشعبية بقوة هجائها وبراعته . وكل ما في ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع . فقلما يكون الرياء مستهترا كاملا كما كان في طرطوف ، وقلما يكون القباء مفردا كما كان في أورجون ، وليس هناك خادمة نجمت في وقاحتها كما نجمت

دورين . وحل عقدة التمثيلية لا يصدق ، كما هي الحال عند مولير دائما
تقريبا ، ولكن هذا لم يقلقه ، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق ،
تسكنى أى حيلة مسرحية — كيتدخل الإله أو الملك — لحل العقدة
بإقتصار الفضيلة وعقاب الرذيلة . وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر
المقدس الذين أخذ أعضاؤه على طاقهم أن يوجهوا ضائر الناس ، حتى
ولو كانوا علمانيين ، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا فى
شئون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين . وقد أشارت التمثيلية مرتين
إلى « عصابة » (فى السطرين ٣٩٧ و ١٧٠٥) ، وواضح أن هذا تلميح إلى
عصابة الورعين . وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس .

أما أورجون ، البورجوازي الغنى ، فيرى طرطوف لأول مرة فى
الكنيسة فينبهر لمراه .

« آه لو رأيته . . . إذن لأحببته كما أحبه . . . كان يأتى كل يوم
إلى الكنيسة هادىء الهيئة ثم يركع بجوارى . وقد لفت أنظار المصلين
جميعا بجمرة الابتهالات التى رفعها إلى السماء . كان يتأوه ويئن أينما
شديدا ، وفى كل لحظة يقبل الأرض فى تذلل . فإذا شرعت فى الخروج
تقدمنى ليقدم إلى المساء المقدس عند الباب . وإذا أدركت . . . رقة حاله . .
كنت أهديه الهدايا ، ولكنه كان على الدوام يعرض أن يرد إلى بعضها . .
وأخيرا حفزنى السناء على أن أخذه إلى بيتى ، وبدأ لى منذ تلك اللحظة أن
كل شئ يركو . وأنا أراه يلوم دون تفرقة بين الناس ، وألحظ أنه ، حتى
فيما يتصل بزوجتى ، شديد الحرص على عرضى . فهو ينبئننى ضمن يرمتها
بنظرات الهيام (٢٣) . »

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أودجرن وأبناءه كما راعه . ذلك أن
شهيته الطيبة ، وولمه بأطايب الطعام ، وكرشه المسكور ، ووجهه المتورد

كل أولئك يذهب في نظرم بأثر عظامته . ويرجو كليات زوج أخته
أورجون أن يميز بين الرياء والدين :

« كما أنني لا أعرف في الحياة خلقاً أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة ،
ولا شيئاً أنبل ولا أجل من حرارة الورع المخلص ، فإني لا أرى شيئاً أشد
مكرراً من طلاء الغيرة الزائفة ، ومن هؤلاء الدجالين ، هؤلاء الانقياء
مظهياً . . . الذين يتجرون بالتقوى ، ويريدون أن يشترخوا أسباب
التسكريم وحسن الأحدوت برفع العيون إلى السماء في رياء ، وبانتشاءات
القداسة المفتعلة » .

ولكن أورجون يعضى في تصديق مزاعم طرطوف ، ويخضع لأرشاده ،
ويطلب له المعونة من الله إذا تحشأ ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التي
تؤثر عليه فالير في عنف أما بطللة التمثيلية الحقيقية فهي دورين ، خادمة
ماريان ، التي يبدو — كما في كل الملاحى الكلاسيكية — أنها تثبت أن
العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعاً يتناسب تناسباً عكسياً مع المال .
وما أبهج استقبالتها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة :

طرطوف : (يسلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين) . يا لورنس ،
اقفل على وشاحى الوبرى وسوطى ، والتعس من السماء أن تنيرك بالنعمة
دائماً . وإذا جاء أحد لزيارتى فقل لى ذهبت إلى السجن لأوزع
صدقاتى .

دورين : (جانباً) أى تصنع وأى لؤم !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك —

طرطوف : (وهو يسحب منديلاً من جيبه) أوه . يالاهول . أرجوك
أن تأخذى هذا المنديل منى قبل أن تتسكلى .

دورين : ولم ؟

طرطوف : غطى ذلك الصدر الذى لا أطيع رؤيته . مثل هذه الأشياء تؤذى النفس وتغرى بالآفكار الآثمة .

دورين : إذن فأنت تذوب ذوبانا أمام التجربة ، ومنظر الجسد يؤثر فى حواسك تأثيراً شديداً ؟ الحق أننى لا أعرف أى حرارة تلهبك ، ولكنى عن نفسي لست عرضة لمثلك لهذا التلهف على الجسد . فى وسعى الآن أن أراك طارياً تماماً من رأسك إلى قدمك ، دون أن يغربنى جلدك هذا كله أى أغراء (٢٤) .

والمنظر التالى لب اللهاة . ترى فيه طرطوف يطارح زوجة أورجون — ايلهير — الغرام ، ويستعمل لغة التقى فى توسلاته . وينبأ أورجون بخيائته ، ولكنه يأتى أن يصدق ، واظهاراً لثقتة بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها . ويستسلم طرطوف لقبولها قائلاً « لتكن مشيئة السماء فى كل شئ » (٢٥) ، وتحمل ايلهير الموقف ، إذ تنجى زوجها تحت مائدة ، وترسل فى طلب طرطوف ، وتلوح له ببارقة تشجيع ، ثم توقعه فى محاولات للاستطلاع الغرامى . وتتظاهر بالرضى ، ولكنها تزعم أنها تمس وخزات الضمير ، فيتناول طرطوف هذا الزعم بفتوى الخبير ، وواضح أن موليير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها :

« طرطوف : إذا لم يكن غير السماء عقبة فى طريق رغباتى ، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة — صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة ، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور . فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال ، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية — ذلك علم أى علم (٢٦) » .

ويظهر أورجون من غشئه ، ويأمر طرطوف فاضباً بأن يخرج من بيته ، واسكن طرطوف بين له أن البيت أصبح ملكاً له بحكم العقد الذى وقعه أورجون مؤخراً . ويقطع موليير هذه العقدة ، دون كبير براعة ، بأن يجعل

عمال الملك يكتشفون في اللحظة للناسبة أن طرطوف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . ويستعيد أرجون أملاكه ، ويظفر فالير بمریان ، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجى يشيد بمدل الملك وأحسانه .

٥ - الملحد العاشق

ولكن إحسان الملك لا بد قد أرهقته تمثيلية موليير الجريئة التالية .
ففي ذروة الحرب المحترمة حول « طرطوف » ، وبينما كانت جماعة الوريثين لا يزالون منتصرين في أمر حظر التمثيلية ، عرض موليير في الباليه — رويال (١٥ فبراير ١٦٦٥) مسرحية « وليمة التمثال الجبرى » التى قص فيها بنثر يظفر مرحاً قصة دون جوان القديمة المكرورة ، وجعل فيها ذلك الأثير المستهتر ملحداً مغروراً . وقد أخذ شسكها الظاهر عن تيرسودى مولينا وغيره ، ولكنه ملاًها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته وتحمداً لله . والمسرحيه صدى مدهش لذلك الجدل الكبير الذى تورط فيه الدين ، مع الفلسفة .

ودون جوان تينوريو مركز يسلم بالتزاماته قبل طبقة ، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهى من لذات . ويخصى تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتى أغواهن مولاة ثم هجرهن فيجدهن ١٠٠٣ ر . يقول جوان « إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحمق . . فليس فى وسعى أن أحرم قلبى من أى مخلوقة جميلة أراها (٢٧) » ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت يلائمه ، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته . ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه :

سجاناريل : أممكن أنك لا تؤمن بالجنة ؟

جوان : انس الموضوع .

سجاناريل : أى أنك لا تؤمن . وما رأيك فى جهنم ؟

جوان : إيه !

سجناناريل : كلامك بالجنة . وما رأيك في الشيطان من فضلك ؟

جوان : نعم ، نعم .

سجناناريل : قليلاً جداً كذلك . ألا تؤمن بحياة أخرى على الإطلاق ؟

جوان : ها ، ها ، ها .

سجناناريل : هذا رجل سيشق على هدايته . ولكن قل لي ، لابد أنك تؤمن بـ « الراهب اللفظ » .

جوان : تباً للأحق .

سجناناريل : أما هذا فلا أطيعه ، لأن ليس هناك كائن وجوده مؤكد كهذا الراهب اللفظ ، وقتلني الله أن لم يكن وجوده حقيقياً . ولكن المرء يجب أن يؤمن بشيء . فبأى شيء تؤمن ؟ . . .

جوان : أؤمن بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وأربعة وأربعة يساويان ثمانية .

سجناناريل : يا لها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة ! إذن فدينك — على قدر ما أفهمه — هو الحساب ؟ أما أنا يا مولاي . . . فأفهم جيداً أن هذا العالم ليس شيئاً كالقطر نما في ليلة واحدة . أريد أن أسألك منذ الذي صنع هذه الأشجار والصخور والأرض والسماء من فوقنا ؟ أهذا كله بنى نفسه بنفسه ؟ أنظر إلى نفسك مثلاً ، فما أنتذا موجود ، أصنعت نفسك ، وألم يسكن لزاماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك ؟ ألتستطيع أن ترى كل المخترعات التي تتألف منها الآلة البشرية دون أن تعجب كيف يشغل الجزء منها جزءاً آخر ؟ ومهما قلت ، فإن هناك شيئاً معجزاً في الإنسان لن يستطيع كل المتنطعين في العلم أن يفسروه . أليس عجيباً أن تراني هنا ، وأن في رأسي

(*) شبح مزعوم تخوف به المرييات والأمهات الأطفال .

شيئا يفسكر في مائة شيء مختلف في لحظة ويأمر بدنى بأن يصنع ما أريد ؟
أريد أن أصفق بيدي ، وأرفع ذراعي ، وأنظر بعيني إلى السماء ، وأخفض
رأسي ، وأحرك قدمي ، وأمشي يمينا ، ويسارا ، وأماما ، وخلفا ، وأدور
(يقع على الأرض وهو يدور) .

جوان : هذا حسن ! أن لحجتك أنفاً مكسورا (٢٨) .

وفي المشهد التالي تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى . فهو
يلتقي بشحاذ يزعم له أنه يصلي كل يوم من أجل المحسنين إليه ، فيقول جوان :
« أن رجلا يصلي كل يوم لا بد أن يكون غنياً جداً » ويجيب الشحاذ إن
الأمر على العكس من ذلك « فني أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز »
ويعرض عليه جوان جنبها ذهبياً « شريطة أن يجدف ، ولكن الشحاذ
يرفض « إنني أفضل الموت جوعاً » ويذهل جوان قليلاً لهذه الصلابة فيعطيه
قطعة النقود وهو يقول « حبا في الإنسانيّة (٢٩) » . ويعرف كل رواد
الأوبرات نهاية القصة ، إذ يصادف جوان تمثالا للقائد الذي أغوى ابنته
وأودى بحياته . فيدعوه التمثال إلى العشاء ، فيحضر ، ويناوله يده ، فيقوده
إلى الجحيم . ويظهر الجهاز الشيطاني المعبود في المسرح الوسيط ، « فينبض
الرعد والبرق بضوء عظيم على دون جوان ، وتنفجر الأرض فاهوا وتبتلعها ،
وتندلع نار هائلة من المكان الذي سقط فيه » .

وقد صدم الجمهور في أول ليلة لما رأى من فضيح . وليبر لسكفر جوان .
ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأساً بأن يفضح سفالة جوان وافتقاره إلى
إلى اللاهوت ، وبأنه أمارت اللثام عنه وحشا لا ضمير له ولا حنو ، ينشر
الحداغ والحزن أينما ذهب ، ولمله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد
بشكل ما فيه من عطف ، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على لسان
أحمق يؤمن بالمفاريت إيماناً رخيصاً من إيمانه بالله ، ولم يخفف من وقع هذا
الكفر القاء جوان في الجحيم أخيراً ، لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

دون كلمة ندم أو خوف . وبعد العرض الأول خفف موليير من حدة أكثر الفقرات ابذاء ، ولكن هذا لم يهدىء نائرة الرأي العام . ففي ١٨ أبريل ١٦٦٥ نشر سيد روشمون ، المحامى فى البرلمان ، « ملاحظات حول مسرحية لموليير » فيها وليمة التمثال الجبرى بأنها « شيطانية حقا . . لم يظهر قط أفسق منها حتى فى المهود الوثنية » ثم أهاب بالملك أن يحظر التمثيلية :

« فبينما يحرم هذا الملك النبيل الحرص كله على صون الدين ، نرى موليير يعمل على هدمه . . فليس فى وسع انسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن موليير أهل للمشاركة فى تناول الاسرار للقدسة مادام سادرا فى عرضها ، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب على (٣٠) » .

ولكن لويس واصل رضاه عن موليير . ومثلت « وليمة التمثال الجبرى » ثلاثة أيام كل أسبوع من ١٥ فبراير إلى أحد السعف . ثم سحبت ، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات ، ولم تعد إلا على صورة اقتباس شعرى بقلم توما كوربى الذى حذف المشهد الغاضب الذى نقلناه . أما النسخة الأصلية فقد اختفت ، ثم اكتشفت ثانية فى ١٨١٣ طبعة مسروقة نشرت بأمستردام فى ١٦٨٠ . وظلت نسخة كوربى تحتكر للمسرح حتى ١٨٤١ ، وهى لا تزال تحتل مكان الأصل فى بعض طبعات أعمال موليير (٣١) .

٦ - موليير فى أوجه

وكأن موليير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم ، فراح يهاجم مهنة الطب . وكان قد صور دون جوان بأنه « فاجر فى الطب » ورأى أن الطب « من أكبر كبائر الإنسانية (٣٢) » وكان قد خبر بنفسه ما فى أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور . وخيل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه حين وصفوا له حجر السكحل (الأنثيمون) ، وآثم يقفون موقف العاجز من قدرته

الذى يسير بخطى حثيثة (٣٣) . كذلك كان الملك ساخطا على ما يعطونه من مسهلات وما يفصدون من دمه كل أسبوع . ويقول مولير إن لويس هو الذى أغراه بوضع الأطباء على السفود . وعليه فقد كتب فى خمسة أيام تمثيلية « الحب خير طبيب » مستمرا من الملاحى القديمة فى هذا الموضوع القديم . وقد أخرجت بفرساي فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٥ فى حفرة الملك الذى « ضحك لها من قلبه » ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع فى الباليه — رويال . وهى تحكى قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء . فيختلون للمداولة ، ولكنهم لا يناقشون إلا شئونهم الخاصة . فإذا أصر والد المريضة على قرار وعلاج ، وصف أحدهم لها حقنة شرجية ، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة . ثم تتعافى المريضة بغير دواء ، الأمر الذى يثير سخط الأطباء ، فيصيح الدكتور بايز « خير لها أن تموت طبقا للقواعد من أن تشفى مخالفة لها (٣٤) » .

وفى ٦ أغسطس ١٦٦٦ عرض مولير مسرحية قصيرة أخرى هى « الطبيب برغم أنفه » مقدمة مسرحية لمسرحيته « مبعض البشر » قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثيلية التى تتغنى بالتشاؤم . وهى لا تجزى جهد قارئها اليوم لأن مولير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطلب مأخذ الجدل . ويلاحظ أنه فالى على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص ، المسيو دوموفلان ، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (١٦٦٩) وقد شرح مرة كيف كان هو ومولان مذسجين تمام الانسجام فقال « إننا نناقش الأمر ، ويصف هو العقاقير ، وأنا أغفل تعاطيها ، ثم أشفى » (٣٥) .

وبينا كان مولير لا يزال فى وطيس المعركة حول طرطوف ، قدم فى ٤ يونيو ١٦٦٦ هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية . وإذا كانت الحركة روح المسرحية ، فإن هذه المسرحية « مبعض البشر » أقرب إلى الحوار الفلسفى منها إلى التمثيلية . وتسكى جملة واحدة لتلخيص القصة : فألسيست ، الذى يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصراحة

الكاملة يحب سيليمين التي تؤثره ، ولكن يطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الكثير من المديح . ويجد مولير في هذا مجرد ذريعة لدراسة القضية . فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائماً ، أم نحل المجاملة محل الصدق لكي نتقدم في هذه الدنيا ؟ أما السيست فيرفض أنصاف الحلول التي يتراضى بها المجتمع مع الصدق ، ويندد بربا البلاط ، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى العواطف و « أحر التحيات » في حين يكيد كل لغيره سراً تحقيقاً لمصلحته الشخصية ، ويغتابهم جميعاً ، ويستعين بالتملق على نيل الخطوة أو السلطة . وألسيست يحتقر هذا كله ، ويريد أن يكون صادقاً ولو أفضى به الصدق إلى الانتحار . ويصر شويمر من رجال البلاط بدعى أوروبت على قراءة أشعاره على ألسيست ، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً ؛ وينال ما طلب ، فهدد ويتوعد بالانتقام . وتغزل سيليمين الرجال ، فيوبخها ألسيست ، فتصفه بأنه إنسان مثزمت مغرور ، وسكاد نسمع مولير يوبخ زوجته المرحه ، والواقع انه هو الذي لعب دور ألسيست ، وهي التي مثلت سيليمين :

ألسيست : سيدتى ، أسمعيني لى أن أكون صريحاً معك ؟ إننى أشد بد الاستياء من تصرفاتك . . أنا لا أشاجر معك ، ولكن مسلكك يأسيدنى يفتح لأول وافد أرحب سبيل إلى قلبك . إن لك عدداً هائلاً من العشاق الذين نراهم يحاصرونك ، ونفسى لا تستطيع الرضى بهذا .

سيليمين : أتلوهنى لأننى أجذب العشاق ؟ أهو دنى أن الناس يجدونى جذيرة بالحب ؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتى أفاخذ عصا وأطردهم خارجاً ؟ .

ألسيست : لا ، أيست العصا هى ما يجب أن تستعمليه ، بل روحاً أقل استسلاماً وذوباناً أمام عهودهم . أعرف أن جمالك يتبعك فى كل مكان ولكن ترهيبك يزيد من تجذبه عيناك تملقاً بك ، وتلفظك مع جميع من يستسلمون لك يسكن فى قلوبهم فعل مقاتلك (٢٦) .

والنقيض الفلسفى لألسيست هو صديقه فيلانت ، الذى ينصحه بأن يلائم
فى لطف بين نفسه وبين ما فى البشر من نقائص فطرية وأن يعترف باللطف
ميسراً للحياة . وسحر للمسرحية فى قسمة موليير عواطفه بين السيست
وفيلانت . فألسيست هو موليير الزوج الذى يخشى أن يكون ديوتا ،
ومنجد حجرة الملك الذى عليه — لكى يعد سرير الملك — أن يتصدى لمائة
بديل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بعقريته . وفيلانت هو موليير الفيلسوف ،
الذى يأمر نفسه بأن يكون معقولا متسامحا فى الحكم على البشر . يقول
فيلانت — موليير لموليير — ألسيست فى فقرة لنا أن نعتبرها نموذجاً من
موليير الشاعر :

« رباه : فلنقل من ضيقنا بعبادات العصر ، ولتسامح قليلاً مع الطبيعة
البشرية ، ولا نغصصها بصرامة شديدة ، بل ننظر إلى عيوبها بشيء من
التساهل . فالحياة فى هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيعة ، وقد يخطئ المرء
بغلوه فى الحكمة ، فالمعقل الكامل يتجنب كل تطرف ، ويريدنا أن نكون
حكماً فى اعتدال . إن التزمت الشديد فى فضائل التقدماء يصدّم كثيراً
عصرنا والعرف السائد بيننا . فهو ينشد فى البشر كمالاً مفرطاً ، علينا أن نلين
لأزمن دون تصلب ، والحماقة كل الحقبة فى أن نورط أنفسنا فى تقويم أخلاء
العالم . إلى الحظ كما تلحظ كل يوم عشرات الأشياء التى كان يمكن أن
تكون خيراً مما هى لو أنها سلكت طريقاً غير طريقها ، ولكن مهما تكشف
لى فى كل خطوة ، فإن الناس لا يرونى ساخطاً مثلك . أننى أتعجب الناس على
علاهم فى هدوء كثير ، وأروض نفسى على التجاوز مما يفعلون ، وأعتقد
أن فى برودة طبعى من الفلسفة قدر ما فى مرارة طبعك ، سواء كنت فى
البلاط أو فى المدينة » (٢٧).

وفى رأى نابليون أن حجة فيلانت هى الأرجح ، أما جان جاك روسو
فأراه أن فيلانت كذاب ، وهو يحمد فضيلة السيست الصارمة (٣٨) . وفى
النهاية يهجر السيست العالم كما هجره جان جاك ويمتسكف فى عزلة معقة .

ولم تحقق التمثيلية من النجاح إلا قدرًا معتدلاً . فالحاشية لم تسع هجو .
تظرفها ، وجمهور الصالة لم يتحمسوا لرجل كالأليست يحتقر كل شيء .
صراحة إلا نفسه . ولكن النقاد — الذين لا من جمهور الصالة ولا من
الحاشية — صفقوا للمسرحية استحساناً ، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف
مسرحية الأفكار ، أما النقاد المحدثون فيرونها أكل عمل كتبه مولير .
وبعض الزمن ، وبعد أن مات جيلها الذي شهرت به ، لقيت قبولا طاماً ،
ففيما بين عام ١٦٨٠ و ١٩٥٤ مثلت ١٥٧١ مرة في السكوميدي فرانسيه —
ولم يفتقها في حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل .

ولما عجز مولير عن المعيش في سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار
على زوج واحد ، والجمال ، أمرين متناقضين ، هجرها (أغسطس ١٦٦٧)
وذهب ليعيش مع صديقه شابلان في أونوى بالطرف الغربي لباريس . وقد
استخف به شابلان في رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد ،
ولكن مولير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . وقد اعترف بهذا (إذا
صدقنا شاعراً يروي عن آخر) :

« لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتي ، ولكن
لو علمت ما أكابد لأشعقت على . فلقد بلغ بي الغرام بها مبلغاً يجعله
يتغلغل بمطفي في كل اهتماماتها . وحين أتأمل استحالة تغلب على ما أحس
به نحوها ، أقول لنفسى إنها ربما تكابد نفس المشقة في التغلب على ميلها
لأن تكون لعوبا ، وعندها أجد نفسى أميل للشفقة عليها منى للومها .
ستقول لى ولا ريب إن الرجل لابد أن يكون شاعراً لكي يحس بهذا ،
ولكنى شخصياً أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب ، وأن
أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حباً صادقاً قط . فكل الأشياء
في الدنيا مرتبطة بها في قلبى وحين أراها يجرذنى من كل قدرة على
التفكير ضرب من الانفعال ، بل نشوات تحس ولا تعرف ، فلا تعود لى عينان

تبصران سوءاتها، ولا أرى غير كل جيل محبب فيها . أليس هذا منتهى الجنون (٣٩) ؟

وقد حاول أن يسلوها باغراق نفسه في عمله . ففي ١٦٦٧ شغل نفسه بتنظيم حفلات الترفيه للملك في سان — جرمان . وأحيت ملهاته « أمفيتريون » (١٣ يناير ١٦٦٨) من جديد غراميات جوبيتر الذي يغوى الكين زوجة أمفيتريون . وحين قال لها جوبيتر « إن مقاسمة المرأة جوبيتر فراشه ليس فيها أى غض من شرفها » فسر كثير من السامعين العبارة بأنها تصفح عن غرام الملك بدمدم دمونتسبان ، فإذا كان هذا التفسير صحيحاً فهو تعلق غاية في السخاء ، لأن موليير لم يكن مزاجه آنذاك يسمح له بالتعاطف مع من يغوون الزوجات . لقد كان كمثل إنسان آخر يدهن الملك بعبارات الزلنى كما فعل في خاتمة طرطوف . وفي ملهاة أخرى مثلت أمام البلاط في ١٥ يوليو ، واسمها « جورج داندان ، أو الزوج المبلبل » تظالنا مرة أخرى قصة الزوج المبلبل ، الذى يتهم زوجته بالزنا ولكنه لا يستطيع أثبات التهمة فيأكل قلبه بالشك والغيرة ؛ لقد كان موليير يسكب الملعق فى جراحه .

وكان عاماً حافلاً بالعمل ، فبعد بضعة أشهر لا أكثر (٩ سبتمبر) أخرج واحدة من أشهر تمثيلياته وهى « البخيل » . وقد اتخذت موضوعها وجزءاً من حبسكتها من مسرحية بلوتوس « أولولاريا » ولكن بلوتوس كان قد نقل مسرحيته عن « لللهة الجديدة » عند اليونان . وأغلب الظن أن البخيل وهجوه قديمان قدم للمال ، ولكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع بحيوية وقوة أكثر من موليير . فترى آرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على ترك خيله تنفجور جوعاً وتسير بغير حوافر ، وهو يسكره العطاء كراهية تجعله لا « يعطيك » نهراً سعيداً (أى بقرئك التحية) بل « يقرضك نهراً سعيداً » . وحين يرى شمتين موقدتين استعداداً للعشاء يطنى أحدهما .

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهراً ، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله (٤٠) .
والهجو هنا ، كما هو في موليير عادة ، يقرب من السكاريكاتور . ولم يسغ
الجمهور الصورة ، وبعد أن مثلت المسرحية ثمانى مرات سحبت ، ولكن ثناء
بوالو عليها أعان على نفخ الحياة فيها ، فعرضت سبعة وأربعين مرة في سنواتها
الأربع الأولى ، ولا يفوقها في عدد عروضها غير طرطوف .

أما مسرحية « البورجوازي مدعى النبى » فكانت أقل جودة وأكثر
توفيقاً . وقصتها أنه في ديسمبر ١٦٦٩ قدم إلى فرنسا سفير تركى . واتخذ
البلاط كل أبهته ليقع من نفس السفير ، ولكن السفير استجاب فى جود
وصلف . وبعد رحيله دعا لويس موليير ولوى إلى تأليف كوميدى تجمع بين
الباليه والمهابة وتحاكى الأتراك محاكاة ساخرة . ووسع موليير الخطه
جعلها هجائية تذم العدد المتعاضم من فرنسيين الطبقة الوسطى الذين
يجاهدون للبس والحديث كالبس ويتحدث الأرستقراطيون بالمولد . ومثلت
المهابة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور فى ١٤ أكتوبر ١٦٧٠ . ولما
عرضت بالباليه — رويال فى نوفمبر ، عرضت الخسارة للمالية التى الحقها بالفرة
عروض « البخيل » . ومثل موليير دور مسيو جوردان ، ومثل لوى دور
المفتى . ورغبة فى خلع النبالة على مظهره ، يستأجر مسيو جوردان معلماً
للموسيقى ، وآخر للرقص ، وثالثاً للمبارزة . ورابعاً للفلسفة . ويتعارك
هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم — فأياها أهم ، تحقيق التناغم ، أم الخطو
الموقع ، أم القدرة على القتل المحكم ، أم الحديث بالفرنسية الرشيدة ؟ ونلاحظ
فى مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لوى المتفاخر المتسلق . ويعرف
نصف العالم ذلك المشهد الذى يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر
وإما شعر :

مسيو جوردان : ماذا ؟ إذا قلت « إيتنى نخفى يا نيكول » ، و « ناولنى
طاقيتى » أيسكون هذا نثراً ؟ .

معلم الفلسفة : نعم يا سيدى .

مسيو جوردان : يمينا ، لقد ظلت أربعين سنة أتكلم النثر وأنا لا أدرى . إنني والحق مدين لك جداً يا نبأى بهذا (٤١) .

على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدى العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم للقصودون بهذا الهجاء ، فسخرُوا بالتمثيلية زاعمين أنها لغو فارغ ، ولسكن الملك قال لمولير ، «كدا » أنك لم تكتب فى حياتك شيئاً أمتعنى كهذا » . يقول جيزو « إن البلاط تملكته نوبة من الأعجاب بمجرد سماعه هذا الثناء (٤٢) » .

وتعاون مولير ولولى ثانية ومثلاً أمام البلاط (يناير ١٦٧١) « بسيشيه » ، وهى مزيج من الباليه وللاأساة ، شارك بيير كوربى وكنو بأكثر أبياتها . وكان لولى يسكسب المعركة ضد مولير ، فاللمهة تخلى مكانها للأوبرا ، والحوار للآلات ، وكان لزاماً إزال الأرباب والربات من السماء أو رفعهم من الجحيم واقتضى الأمر إعادة بناء المسرح فى الباليه - رويال لهذه التمثيلية ، وكلف هذا ١٩٨٩ جنيهًا . ولكن الأخراج حقق نجاحاً مالياً .

بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب مولير ، وكان أكثر اطلاقاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله . وقد خيل إليه أن المرأة المتعلمة شذوذ متعب وعقبة فى طريق الزواج . ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ ، ويناقشن دقائق النحو ، ويقتبسن من الآداب القديمة ، ويتكلمن فى الفلسفة ، ووقر هذا فى إذن مولير كأنه انحراف جنسى ، أضاف إلى ذلك أن رجائز - هما الأب كوتان والشاعر ميناج - كانا يهاجمان بعنف مسرحيات مولير ، فهاهى ذى الفرص قد لاحت لوخرهما . وعليه فى ١١ مارس ١٦٧٢ قدم مسرحية « النساء العالمات » . ففيلامنت تطرد خادمة لا تستعملها لفظاً رفضه الجمع اللغوى ، وابنتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول ؛ ويقرأ تريسوتان شعره السكرية على هاتين

١٣ — قصة الحضارة

للرأتين المتكافئتين المعجبتين . ويملاً فاديوس الشعر بالألغاز والمعميات ، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان . ويدافع موليير عن هنرييت ضد هؤلاء جميعاً ، لأنها تستهجن أبيات الشعر (السداسية) وتريد زوجاً يمنحها الأبناء لا الإيجرامات . ترى هل أصبحت أرماند ييجار إحدى المتحذقات ؟ أم أن موليير كان يعرض عصره ؟

٧ - ستار

إنه لم يجاوز الحسین الآن ، ولكن حياته المحمومة ، وتدرسه ، وزواجه ، وأحزانه لفقد أحبائه ، استنزفت حيويته . إن مينار رسمه في ريعان شبابه : أف كبير وشففتان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك ، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجمدة وعينين حزينتين . ذلك أن انهماكه في دوامة المسرح من بلد إلى بلد ، يوماً بعد يوم ، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب ، ومع زوجة منعمة بالحياة ، ومع ملك حساس ، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان — كل هذا لم يكن طريقاً مفروشاً بالراحين إلى التفاؤل ، بل طريقاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر . لا عجب إذن أن يصبح موليير « بركانا يلتهم ذاته (٤٣) » ، إنسانا مسكتئباً ، حاد الطبع ، نقاداً في غير مجاملة ، ولكنه رغم ذلك كريم النفس عطوف . وقد فهمته فرقته وأخلصت له الود ، موقنة أنه ينقذ نفسه ليوفر لها القوت ويسكفل لها النجاح . وكان أصدقاؤه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعاً عنه — لا سيما بوالو ، ولا فونتین ، اللذين كتباً مع موليير ، بمشاركة راسین أحياناً ، « الأصدقاء الأربعة » المشهورة . ولقد وجدوا فيه التعاليم الحسن والاطلاع الواسع ، وعرفوه ذكياً ظريفاً وإن قن مرحه ، لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح ، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزناً من جاك (في مسرحية شكسبير « كما تشاء ») .

ويعمد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصفاً عاد إليها (١٦٧١) .
ومات الطفل الذى أمّره هذا التصالح بعد شهر من ولادته . وكان يعيش فى
أوتوى قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه ، فعاد الآن إلى شرب اللبن على
مادته ، وحضر سهرات العشاء المتأخر ارضاء لأرماند . وقرر أن يمثل الدور
الأول برغم تفاقم سعاله ، دور أرجان ، فى آخر تمثيلياته « المريض بالوهم »
(١٠ فبراير ١٦٧٣) .

وأرجان هذا يتوهم أنه مصاب بالمديد من الأمراض ، وينفق نصف
ثروته على الأطباء والعقاقير . ويحتقره أخوه بيرالد :
« أرجان : فما الذى يجب أن نصنعه حين نعرض ؟

بيرالد : لا شيء يا أخى . . . علينا أن نحفظ بهدوئنا لا أكثر .
والطبيعة ذاتها إذا تركناها وشأنها ، كفيلة بأن تخلص نفسها بلطف من
الخلل الذى وقعت فيه . إن الذى يفسد كل شيء هو نكراننا لصنيعها ونهاد
صبرنا ، وكل الناس تقريبا يموتون بالدواء لا بالداء (٢٤) » .

ولمزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن فى استطاعته هو نفسه
أن يصبح طبيباً بإجراء مختصر ، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على
الاجازة الطبية . ويلى ذلك الامتحان المزيف الذى تسأل فيه اللجنة
أرجان (*) .

وكاد موت مولير أن يسكون جزءاً من هذه التمثيلية . فى ١٧ فبراير

(*) يحاول بيرالد فى هذا الفصل الأخير من الملهة أن يسلى الأسرة ، فيكاف أصحابه
الممثلين بفواصل يمثل قبول أرجان طبيباً فى الفيزياء على أنغام الموسيقى والرقص ، ويقترح
اشتراك الجميع فى المزهلة ، وأن يمثل أرجان الدور الرئيسى فيها . ويدخل موكب الصيدلة
والجراحين والأطباء ، ويجلس أرجان عند قدمى الرئيس الذى يخاطب لجنة الامتحان
بخطب لنوى هازل طالباً إليهم أن يوجهوا استأثمتهم لأرجان . فيسألونه عن العقاقير
والأمراض وهلاجها ، وهتب كل جواب يبدى الخورس استحسانه وجداره أرجان
بالمهنة ، فيحلفه الرئيس . ويجزءه ، ويهتب الخورس بحياته داعياً له بطول الصبر . (المترجم)

١٦٧٣ طلبت إليه أرماند وغيرها ، حين رأوا اعياءه ، أن يغلق للمسرح أياما حتى يتعافى صحته . فسألهم ، ولكن كيف أصنع هذا ؟ إن هنا خمسين حاملا فقيرا ينقدون أجورهم يوما بيوم ، فإذا هم فاعلون إذا توقعنا من التمثيل ؟ انني لألوم نفسي على انني أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام في طاقتي أن أمثل (٤٥) . وفي الفصل الأخير من التمثيلية ، وبينما كان موليير ، في دور أرجان (الذي تظاهر بالموت مرتين) يلغظ بكلمة Juro (أحلف) وهو يقسم بين المهنة ، أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات . فدارها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية . وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته . وطلب كاهنا ، ولكن أحدا لم يحضر . واشتد سعاله ، وانفجر فيه عرق ، فاختنق بالدم في حلقة ومات .

وقضى آرلى دشانفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن موليير في أرض مسيحية مادام لم يقب توبته النهائية ويتلقى غفران الكنيسة . أما أرماند ، التي كانت تحبه على الدوام حتى وهي تخدعه ، فذهبت إلى فرساي ، وارتمت عند قدمي الملك ، وقالت في غير حكمة ، ولكن في شجاعة وصدق « إذا كان زوجي مجرما ، فإن جلالتهكم باركتكم بجرائمه بشخصكم (٤٦) » . وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سرا ، ولان آرلى ، وأمر ألا يؤخذ جسمانه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية ، ولكنه سمح بدفنه في هدوء بعد الغروب في ركن قصي من جبانة سان — جوزيف في شارع مونمارتر .

ومازال موليير بإجماع الناس علما من أعظم أعلام الأدب انفرنسي ، لا بكمال تكنيكة المسرحى ولا بأى روعة تميز بها شعره . فأكثر حيكاته مستعارة ، ومعظم نهاياتها مفتعلة وغير معقولة ، وجل شخصه صفات مجسدة ، والعديد منها كأرباجون مبالغ فيه إلى حد الكاريكاتور ، وكثيرا ما تهبط ملاحيه إلى درك الفارص (الهزلية الصاخبة للمهرجة) .

وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر ما أحبوه حين يفرق في هذا الغارص ، ولم يستطيعوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التي يشارك فيها الناس صوما . وأغلب الظن أنه كان مفضلا هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرته فرغمته على الوفاء بديونها .

وكما أسف شيكسبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجا للناظرين كتب مولير يقول : « أرى أن من العقوبة القادحة في الفنون الحرة أن يعلن الفنان عن نفسه للحق وأن تعرض ثمرات أقلامنا للحكم الممجى الذي يحكم به عليها الأغبياء (٤٧) » . وقد حز في نفسه أن يطالب على الدوام بإضحاك الناس ، فهذا كما قال أحد شخوصه « مطلب غريب (٤٨) » . وكان يتطلع لكتابة المأسى ، ومع أنه قصر دون هذا الهدف ، فإنه وفق في أن يضيق على أعظم ملاحيه مغزى وعمقا مأساويين .

إذن فالفلسفة التي تنطوى عليها تمثيلياته ، وفسكاهتها وهجوها اللاذع - هذه هي التي تجعل كل قارئ فرنسى تقريبا يقرأ مولير (٤٩) . وهى فى صميمها فلسفة عقلانية ، أبهجت قلوب « فلاسفة » القرن الثامن عشر . « فليس فى مولير أثر لمسيحية الحوارق » و « الدين الذى عرضه لسان حاله كليات (فى طرفوف) يمكن أن يصدق عليه فولتير (٥٠) » . إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية ، وقد سلم بفضل الدين فى حياة الكثيرين جداً ، واحترم التقوى الصادقة المخلصة ، ولكنه احتقر الورع السطحي الذى يخفى أنانية أيام ستة وراء نفاق اليوم السابع (يوم الأحد) .

وكانت فلسفته الأخلاقية وثنية بمعنى أنها أباحت اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة . كان فيها رائحة أبيقور وسنيكا لا القديس بولس أو أوغسطين ، وقد انسجمت مع تحلل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور - رويال . وكان يستنكر الغلو حتى فى الفضيلة . كان يعجب بـ « الرجل الفاضل » ، رجل الدنيا المقول الذى يسلك باعتدال مائل

وسط السخافات المتعارضة ، ويوائم في غير ضجة بين نفسه وبين نقائص البشر .

ولم يبلغ موليير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال . فقد أكرهته مهنته مسرحيا هازلا على الهجو ، وعلى المبالغة أحيانا كثيرة . وقد عنف على النساء المتعلمات ، وغلا في هجومه على الأطباء دون تفريق ، ولعله كان يخلق به أن يبدي احتراما أكثر للحقن الشرجية . ولكن الغلو كائن في دم الهجو ، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونه ، ولعل موليير يكون أجل وأعظم قدرا لو أنه وجد سييلا لهجو الشر الأساسى الذى لوث ذلك العهد - ونعنى ذلك الجشع الحربى والاستبداد المدمر الذى ابتلى به لويس الرابع عشر ، ولكن هذا المستبد المنعم هو الذى حماه من أعدائه ويسر له أن يشن الحرب على التعصب . وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميرا !

إن فرنسا تحب موليير ، وما زالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجائرا شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولا تستطيع كما يريد بعض الغالين (الفرنسيين) المتحمسين أن نسوى بينه وبين شاعر المجلثة ، فلقد كان جزءا فقط من شيكسبير ، الذى كان جزءا من الآخرين راسين ومونتيني . كذلك لا نستطيع كما يفعل الكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسى . لا بل إننا لسنا على يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن «وايير كان أعظم شعراء عهده ، فحين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب « فيدر » ولا « آتالى » . ولكن فى موليير ، ليس السكاف فقط هو الذى ينتمى لتاريخ فرنسا ، بل الإنسان : مدير الفرقة المرهق الوفى ، والزوج المخدوع المصفوح ، والمسرحى الذى يخفى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى يواصل حتى الموت حربه على الفقر ، والتعصب ، والخرافة ، والنفاق .

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي

١٦٤٣ - ١٧١٥

١ - جوء الكلاسيكية

لم يكن أوج الأدب الكلاسيكي الفرنسي مواكباً تماماً لعصر لويس الرابع عشر ، بل جاء إبان وزارة مازاران وفي الربيع المشرق لهذا العصر (١٦٦١ - ٦٧) ، قبل أن ينحى مارس (إله الحرب) ربات الفنون إلى المؤخرة . أما أول حافز للتفجر الأدبي فقد انبعث من تشجيع ريشليو للدراما والشعر ، وجاء الثاني من الانتصارات الحربية التي حققها الفرنسيون في روكروا (١٦٤٣) ولنز (١٦٤٨) ، وانساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية في معاهدتي وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩) ، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبلاء والمتنقعات من النساء في الصالونات ، والحنافز الأخير فقط هو الرعاية التي حظى بها الأدب من الملك والحاشية . وكثير من روائع ذلك العهد - كرسائل بسكال (١٦٥٦) وخواطره ، وطرطوف موليير (١٦٦٤) ومسرحية وليمة التمثال الحجري (١٦٦٥) ومبغض البشر (١٦٦٦) ، وأمثال لاروشفوكو (١٦٦٥) وهجائيات بوالو (١٦٦٧) وأندروماك راسين (١٦٦٧) - هذه كلها كتبت قبل ١٦٦٧ بأقلام رجال نموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران .

ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله . فامضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم (١٦٦٢ - ٦٣) - أي قبل هذه الآثار

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها — حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يسكفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أى بلد ممن يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة . ومن هذه القوائم تلتقى خمسة وأربعون فرنسياً وخمسة عشر أجنبياً معاشات ملكية (١) . وأدهش الأديبين الهولنديين هاينسيوس وفوسيوس ، والفزيائى الهولندى كرستيان هويجنس ، والرياضى الفلورنسى فيفيانى ، وكثيراً غيرهم من الأجانب ، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسى أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم . وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات فى العام . فعاش بوالو صميد الشعر غير الرسمى ، على معاشاته كأنه إقطاعى كبير ، وترك لورثته ٢٨٦.٠٠٠ فرنك نقداً ، وتلقى راسين ١٤٥.٠٠٠ فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكى (٢) . ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة فى كسب أرباب الأقلام خارج فرنسا ، أما الهبات فى الداخل فهدفها إخضاع الفكر ، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين . وتحقيق هذا الهدف ، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة ، وأذعن الذهن الفرنسى للإشراف الملكى على تمبيره المطبوع ، باستثناء مقاومة متفرقة ضئيلة . يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقلام المأجورة ستنتفى بمديحه ثراً وشعراً وتختلف للتاريخ صورة مشرقة له . وقد بذلوا فى هذا قصاراهم .

ولم يكتف لويس بصرف المعاشات للأدباء ، بل إنه حماهم واحترمهم ، ورفع مقامهم الاجتماعى ، ورحب بهم فى القصر . قال مرة لبوالو « تذكر أننى سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتى » (٣) . وربما كان ذوقه الأدبى مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية ، خصائص النظام ، والوقار ، وجمال الشكل ؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن فى رأيه معينة على توطيد الحكم فحسب بل على إضفاء النبل على فرنسا . وكان من بعض الوجوه

متقدما على شعبه وبلاطه في أحكامه الأدبية . وقد رأيناه يحكى مولير من غدر النبلاء ورجال الدين ، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين .

وهللا باقتراح آخر من كولير ، وترسما لخطى ريشليو مرة أخرى ، أعلن لويس أنه الراعى الشخصى للأكاديمية الفرنسية ، ورفعها إلى مرتبة المؤسسات الحكومية الكبرى ، ووفر لها الأموال الكافية ، وهيا لها مكانا في اللوفر . وأصبح كولير نفسه عضوا فيها . ولما أمر عضو ، كان إقطاعيا كبيرا في الوقت ذاته ، بأن يوضع له مقعد وثير في الأكاديمية ، أرسل كولير في طلب تسعة وثلاثين مقعدا على شاكلته حفاظا على المساواة في الكرامة قبل الفوارق الطبقية ، وهكذا أصبحت « المقاعد الأربعون » مرادفا للأكاديمية الفرنسية ، وفي ١٦٦٣ نظمت أكاديمية فرعية للنقوش والرسائل لتسجل أحداث العهد .

واستوثق كولير من أن « الخالدين الأربعين » يسكبون رواتبهم بالانتظام في الحضور وبالجهد في تصنيف القاموس . وكان مشروع هذا القاموس الذى بدأ في ١٦٣٨ يتقدم في ببطء شديد ، حتى استطاع إواروير أن يعبر أبجديا عن أمنيته في طول العمر ، « لقد أنفقوا ستة شهور وهم مشغولون بحرف F ، فليت قد رى يمهلى حتى حرف G (٤) » .

كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل ، فقد رأت تتبع كل كلمة مسموح بها طوال تاريخ استعمالها وهجاءاتها ، ويشفع هذا بالكثير من الشواهد التوضيحية ، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء المشروع ، ونشر القاموس لأول مرة (١٦٩٤) . ولقد أسرف في فحص لغة الشعب ، والمهن ، والفنون ، وشذب رابليه ، وآميو ، ومونتيني ، ورفض مئات التعبيرات التى تمين على الحديث الحى . فذات المنطق ، والدقة ، والوضوح الذى جعل من للهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته ، وذات السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولير على الاقتصاد ولبرون على

الفنون ، وذات الوفاة والتأنيق اللذان سيطرا على بلاط الملك ، وذات التشبث الكلاسيكي بالقواعد الذي شكل أسلوب بوسويه ، وفينيلون ، ولا روشفوكو ، وراسين ، وبوالو — كل أولئك أملى قاموس الأكاديمية .

ولقد نقح وأعيد نشره دورياً ، وكافح للاحتفاظ بالنظام في جسم نام حي ، ومما جت قلعتة الكلاسيكية المرة بعد المرة ، وكثيراً ما افتحمتها ، أخطاء الشعب ، ومصطلحات العلوم ، ووطانة الحرفيين ، وعامية الشوارع ، والقاموس ، شأنه شأن التاريخ والحكومة ، مزاج من القوى بين ثقل السكترة وقوة القلة . وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية ، وكسبت الكثير من حيث النقاء ، والدقة ، والأناقة ، والمسكانة . أنها لم تنجب شيكسبيراً هائجاً مانحاً ، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوروبا احتراماً ، وغدت أداة الدبلوماسية ، ولسان الارستقراطيات . وظلت أوروبا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية .

٣ - تذييل لكورني: ١٦٤٣ - ٨٤

بلغت اللغة أوجها في السهولة المرنة التي اتسم بها حوار موليير ، وفي بلاغة كورني الطنانة ، وفي تأنيق راسين الشجي .

أما كورني فكان يبدو في ربيع أدبه - وهو في السابعة والثلاثين - حين اعتلى لويس العرش : وقد بدأ انهد بلهارة « الكذاب » التي رفعت نبرة الملهة الفرنسية كما رفعت « السيد » نبرة المأساة . ثم راح يدفع إلى المسرح بالمساعي كل عام تقريباً بعد ذلك ، رودوجون (١٦٤٤) ، وتيودور (١٦٤٥) ، وهيراقليوس (١٦٤٦) ودن سانشو الأراجونى (١٦٤٩) وأندروميد (١٦٥٠) ويسكوميد (١٦٥١) وبرتاريت (١٦٥٢) . ولقي بعض هذه للتمثيلات استقبالا حسناً ، ولكن حين تعاقبت كل منها سرى ما خلف سابقتها ، وضع أن كورني يتمجّل الإنتاج ، وأن عصارة

عبريته آخذة في النضوب . وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط بحر من الجدل . وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف . قال مولير « إن لصديقي كورني رقيقاً يلهمه أروع شعر في الدنيا . ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شؤونه ، وعندها يتعثر شر تعثر (٥) . » وقد لقيت « بارتاريت » من سوء الاستقبال ما حمل كورني على أن يعزل المسرح ست سنوات (١٦٥٣ — ٥٩) ، وتناول نقاده في سلسلة من « الفصوص » ، وفي ثلاثة أحاديث عن الشعر المسرحي . وقد دلت هذه الأحاديث على صعود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية ، وأصبحت ينبوعاً للنقد الأدبي الحديث ، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة في نثر رائع .

وفي ١٦٥٩ ردت كورني إلى خشبة المسرح لفتة تلقاها من فوكيه . وظهرت مسرحيته « أوديب » ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها ، ولكن المسرحيات التي تلتها — مرتوريوس (١٦٦٢) ، وسوفونيسب (١٦٦٣) ، وأوتون (١٦٦٤) ، وأجيسيلاس (١٦٦٦) وأتيلا (١٦٦٧) — هذه كلها كانت قاصرة قصوراً لم يستطع فوئنتنبل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورني ؛ وقال بوالو في بيت ساخر :

« بعد أجيسيلاس ، وا أسفاه ! ولكن بعد أتيلا ، فف ! » وزادت مدام هنرييتا الطين بلة ، مع أنها كانت عادة آية العطف والرفقة ، حين دعت كلا من كورني وراسين ، بعلم من كل ، إلى أن يكتب تمثيلية في ذات الموضوع — وهو بيرنيس ، الأميرة اليهودية التي وقع في حبها تيطس الإمبراطور القادم . ومثلت بيرنيس التي ألّفها راسين في الأوتيل دبورجون في ٢١ نوفمبر ١٦٧٠ بعد خمسة أشهر تقريباً من موت هنرييتا ، ولقيت نجاحاً كاملاً . أما مسرحية كورني « تيطس وبرنيس » فقد مثلتها فرقة مولير بعد ذلك بأسبوع ، ولم تلق غير استقبال قاتر : وحطم فشلها روح كورني . وجرب حظه ثانية بمسرحيتي « بولشيري » (١٦٧٢) و « سورينا » (١٦٧٤) ،

ولكن الفشل كان نصيبهما أيضا . وأنفق كورني بعد ذلك السنين العشر التي بقيت له من أجله في تقوى هادئة مكتئبة .

وكان متلافا ، مات فقيرا برغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفعه به من هبات ، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات ، فلجأ كورني إلى كولبير ، فأمر برده إليه ، ولسكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير . فلها نعى الأمر إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر ، وعرض أن ينزل عن معاشه لكورني . ولكن الملك بادر بإرسال مائتي جنيهه لشارع العجوز ، الذي مات بعدها بقليل (١٦٨٤) بالغا الثامنة والسبعين وأبنه في الأكاديمية الفرنسية مزاحمه الذي كان قد خلفه ، ورفع المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما ، والتأبين مازال مذكورا لمساخوي من مماحة وبلاغة .

٣ — راسين : ١٦٣٩ - ٩٩

ولد مثل موليير في أسرة متوسطة . وكان أبوه مراقبا لاحتكار الدولة للملح في لافيرتي — ميلون ، على نحو وخمسين ميلا شمال شرقي باريس ، وكانت أمه ابنة محام في فيليه — كوتريه . وقد مات عام ١٦٤١ وجان لم يبلغ الثانية بعد ، وبعد سنة مات أبوه ، فسكن الصبي جده لأبيه . وكان في الأسرة نزوع قوى إلى الجانسانية ، فقد التحقت جدة وعمه لراسين بأخوات البور — رويال ، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى « المدرسة الصغيرة » التي يديرها « المتوحدون » . وقد تلقى عنهم تعليما مركزا في الدين واليونانية — وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته . واستهوته تمثيليات سوفوكليس ويوريبيديس فترجم بعضها بنفسه . ثم تعلم شيئا من الفلسفة ومريدا من الثقافة الكلاسيكية في كلية آركور بباريس ، واكتشف المقاتن الخفية للأنوثة الشابة ، الجديد منها

والمستعمل . وطاش عامين على شاطئ « الجزائر » أوجوستان مع ابن عمه نيكولا فيتار ، الذي كان يتردد بين البور — رويال والمسرح . واستمع راسين إلى عدة تمثيليات ، وكتب تمثيلية ، وعرضها على موليير . ولم تسكن من الجودة بحيث تستحق الأخراج ، ولكن موليير نفحه بمائة جنيه ذهبي ، وشجعه على أن يعيد الكرة . واستقر رأى راسين على اتخاذ الأدب حرفة له .

وهال هذا الجنون أقرباءه ، وراعهم ما نعى إليهم من أبناء غرامياته ، فأرسلوه إلى أوزيس بجنوبي فرنسا (١٦٥٩) مساعداً لعم له كان كاهناً لسكتد رائية ، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قسا . أما الشاعر الشاب ، الذي ما زال باطنه يضطرم بنار باريس ، فقد ظل طاماً يسدل على هذه النار عباءة سوداء ، وقرأ القديس توما الأكويني . وقليلاً من أربوستو ويوربيديس بجانبه . وكتب الآن إلى لافونتين يقول :

« كل النساء رائعات ... لحم غض طرى ، ولكن بما أن أول شيء قيل لي هو أن آخذ حذري ، فليست أريد أن أقول المزيد عنهن . أضف إلى ذلك أنه سيكون امتهاناً لبنت كاهن ذي وقف أعيش فيه أن أخوض في حديث طويل عن هذا الموضوع ، « بيتي بيت الصلاة يدعى » ... لقد قيل لي « كن أصمى » فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية ، فإنى أستطيع على الأقل أن أكون أبكم ... لأن على المرء أن يكون راهباً مع الرهبان ، كما كنت ذئباً معك ومع غيرك من ذئاب قطيعك (٦) » .

ولقى الكاهن شداً وأصبحت الوظيفة الكهنوتية الموعودة أملاً بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسية . فبدل ثوبه ، وطوى كتاب « خلاصة اللاهوت » وعاد إلى باريس (١٦٦٣) .

فلما بلغها نشر نشيداً أنناه بمائة جنيه من جيب الملك . واقترح عليه موليير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيليته الثانية « طيبة » (التباييد) . وأخرجها

موليير في ٢٠ يونيو ١٦٦٤ ، ولكنه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض .
على أنها أحدثت من الضجة ما كفى لسامعها في البور — رويال — دوشان .
وأرسلت إليه صمته من هناك رسالة تستحق أن نوردتها باعتبارها جزءاً من
دراما تعدل في بلاغتها وتأثيرها في النفس أى شيء كتبه راسين :

« حين نبي إلى أنك تنوى الحضور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لي
برؤيتك ولكنني سمعت مؤخراً خبراً أثار في أشجاننا صمقة . واني
أكتب إليك في مرارة قلبي ، وأذرف الدمع الذي أرجوان أسكبه غزيراً
أمام الله لأنال منه خلاصه الذي أتوق إليه أشد بما أتوق لأي شيء آخر في
العالم . فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أي وقت مضى معشراً
اصمهم بحق رجس عند كل من له أي أصيب من تقوى ، ، لأنهم محرومون
من دخول الكنيسة ، أو تناول الأسرار المقدسة . . فانظر الآن يا ابن أخي
إلى أي حال صرت ، لأنك لا بد عليم بما أشعر به نحوك من حنان ، وبأنه
لم يكن لي من سؤال إلا أن تتبع الله في وظيفة شريفة . لذلك أتوسل
إليك يا ابن أخي العزيز أن ترحم نفسك ، وتفحص قلبك ، وتتأمل بمجد أي
هوة تردت فيها . أنني لأرجو ألا يكون صحيحاً ما أثبتت به ، ولكن إذا
كان سوء طالعك قد بلغ مبلغاً يحملك على مواصلة تجارة تشينك أمام الله
والناس ، فعليك ألا تفكر في المجيء لرؤيتنا ، لأنك تفهم جيداً أنني لن
أستطيع في هذه الحالة أن أكلمك لعلى بأنك في حالة مؤسفة جداً ،
مناقضة كل المناقضة للمسيحية . ولن أكف في الوقت نفسه عن التضرع لله
ليرحمك ، فيرحمني برحمته إياك ، لأن خلاصك عزيز على جداً (٧) » .

فها هنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذي تسجله صفحاتنا عادة — عالم
من الإيمان العميق بالمعيدة المسيحية ، والولاء المحب لدستورها الأخلاقي .
ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تسكتب بمثل هذا
الأخلاص في العاطفة ، ولم تخل من العذر لرأيها في المسرحية الفرنسية كما

كانت في شبابها . ولم تبلغ عبارة يسكول العلنية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو ، وكان قد علم راسين في البور — رويال :

« كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب .. تمثيليات للمسرح ... وهذه المهنة في نظر ذوى العقول الراجحة ليست في ذاتها مهنة شريفة جداً ، ولكن إذا نظر إليها في ضوء الدين المسيحي وتعليم المسيح كانت في الحق مهنة رهيبة . فالروائيون نجار صوم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم (١) » .

واجاب كل من كورني وموليير وراسين على هذا الاتهام على حدة ، وكان في جواب راسين من العنف الغاضب ما جعله يندم عاياه اشد الندم في سنوات لاحقة .

وتلا خصامه مع البور — رويال خصام مع موليير بعد قليل . ففي ديسمبر ١٦٦٥ قدمت فرقة موليير تمثيليه راسين الثالثة « الإسكندر » وكان موليير كريماً كماداته ، فهو عليم بأن راسين لم يعجب به ممثلاً تراحيدياً ، وان المؤلف الشاب بهيم بأجل ممثلاته وإن لم تكن أكفأهن ، لذلك اخرج نفسه والميرأتين بيجار من شخصيات المسرحية ، واعطى الدور النسائي الأول لتريز دبارك ، ولم يرض بمال على الأخراج . وقد لقيت استقبالا حسنا ، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل . فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية ، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير واعطائها لهذه الفرقة المنافسة . وأقنع الأنسة دبارك التي أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتنضم إلى الفرقة الأقدم وعرضت المسرحية في مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة في أكثر قليلا من شهرين . ولم تكن من روائع راسين ، ولكنها وطدت مكانته خلفا لسكورني ، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة . فحين قال له راسين منافخراً « اني أنظم شعري في يسر مدهش » أجابه بوالو « أريد أن أعلمك كيف تنظمه في عسر (١) » . ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكي .

ولا علم لنا بمدى العصر الذى نظم به راسين « أندروماك » ، على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسس لموجة الشعرى . وهو يذكر فى إهدائه المسرحية إلى مدام هنرييتا أنه قرأها عليها ، وأنها بسكت . ومع ذلك فهى مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة ، وفيها كل السكارنة المحتومة التى تتوقعها فى إسخيلوس أو سوفوكليس . والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغرامية . فأوريسيت يحب هرميون ، التى تحب بيروس ، الذى يحب أندروماك ، التى تحب هكتور ، الذى مات . وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى فى انتصار اليونان على طرواده : منح أبيروس هيكلة له . وأندروماك (أرملة هكتور) أسيرة له ، وهرميون (ابنة منيلاوس وهيلانه) زوجته له . أما أندروماك فلا تزال شابة جميلة ، وإن لم تسكف عن المكاء ، وهى لا تحيا إلا لتذكر زوجها النبيل ، وتخاف على طفلها أستيانا كس ، الذى ينقذه راسين — باتحراف مسرحى عن القاعدة — من الموت الذى كان يصيبه فى يوريبديدس ليستعمله هنا أداة فى يد القدر . ويفقد أوريسيت — بن كليمنسترا وقتلها — على إبيروس مبعوثا من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم أستيانا كس وموته باعتباره للمنتقم المحتمل لطروادة فى المستقبل . ويرفض بيروس الاقتراح فى فقرة تمتنع موسيقاها على الترجمة . يقول ما معناه :

« إنهم يخشون أن تولد طروادة بهكتور من جديد ، وأن ابنه قد ينزع منى الحياة التى حفظتها عليه . سيبدى ، إن الأفراط فى التدبر يحرق أفراطا فى الحذر . إننى لا أستطيع أن أبصر المكاره من هذا البعد الكبير . وأنا أفسكر فيما كانت عليه هذه المدينة (طروادة) فيما مضى ، جبارة فى حصونها ، شديدة الخسوبة فى أبطالها ، سيدة على آسيا ، ثم أتأمل فى النهاية ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها — فلا أرى غير أبراج غطتها الرماد ، ونهر صبغت مياهه الدماء ، وحقول هجرت ، وطفل مقيد بالأغلال ، واستأظن أن طروادة تقوى على الثأر وهى على هذه الحال . آه ، لو كان ابن

هــكتور قدر عليه الموت ، فلم أبقينا عليه طاما كاملا ؟ ألم نكن قادرين على تقديمه قربانا على صدر يريام ؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى في طرواده ، يومها كان كل شيء مباحا ، وعبثا كانت تحتج الشيوخة والطفولة بضعضهما في الدفاع عن نفسيهما ، فالنصر والقدرة - وهما أشد منا قسوة ، حرضانا على القتل وأفقدانا التمييز في ضرباتنا . إن غضبي على المغلوبين جاوز حد الصرامة ، ولكن يجب أن تبقى قسوتي بعد غضبي ؟ أينبغي أن أغتسل متلبشا في دم طفل برغم ما يتمسكنى من شفقة عليه ؟ لا ياسيدى ، فليبحث اليونان عن فريسة أخرى ، وليلاحقوا ما بقي من طروادة في غير هذا المكان . لقد بلغت نهاية الشوط في عدائي . إن ابيروس ستنقذ ما أبقى عليه طروادة » (١٠) .

هنا مأخذ واحد ، ذلك أن ييروس ، وربما راسين ، لا يدركان مبلغ ما تبدين به شفقة الفاتح لغرامه بألم الطفل — إلى حد عرضه الزواج منها (مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له) ، واتخاذها أستياناكس ولدا ووريثا له . ولكنهما ترفضه ، فهى لا تستطيع أن تنسى هـكتور ، الذى قتله أبى ييروس . وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان ، فيروعها تهديده ، وترضى بالزواج منه ، ولكن هرميون — وهى فى تصور راسين لها تضارع الليدى مكبث قوة — ، تشتعل غضبا لأنها نبذت ، فهى تعزم قتل ييروس رغم أنها لانزال تحبه ، وتقبل ما يعرضه أوريست من حب وولاء ، شريطة أن يقتل ييروس . فيوافق كارها . وفى كل خطوة وكل شخص من شخوص هذه المسرحية صراع فى الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروفة فى الأدب . ويقتحم الجند اليونان الهيكل ويقتلون ييروس عند المذبح الذى يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك وتحتقر هرميون أوريست ، وتجرى إلى المذبح ، وتعمد مدينة فى جسد ييروس الميت ، ثم تطعن نفسها وتموت . هذه أعظم مسرحيات راسين ، وهى خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شيكسبير

١٤ — قصة الحصار

أو يوربيديس : حبسكة متينة البناء ، وشخص كشف عنها في صق ، ومشاعر مدروسة في كل تعقيدها وحدثها (*) ، وشعر فيه من الروعة والتناغم ما لم تسمعه فرنسا منذ رونسار .

واعترف الناس بأن دروماك للتو رائعة من روائع الأدب ، فوطدت مقام راسين خليفة لسكورني ورسمنا متفوقا عليه . ودخل الآن أسعد عقد في عمره ، متنقلا من نصر إلى نصر ، بل متحديا مولير بملهاة من قلمه . والملهاة ، واسمها « المتخاصمون » ، وهي تقليد ساخر (برلسك) للمحاميين الجشعين ، وشهود الزور ، والقضاة الفاسدين — هذه الملهاة كانت صدى لتجربة راسين مع القانون . ذلك أنه التمس دهننا على دحل دير وحصل عليه ، ولسكن راهبا نازعه دعواه ، وتلا ذلك دعوى قضائية امتد بها الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعا فتخلى عنها وثأر لنفسه بكتابة المسرحية . ولم تسر النظارة في أول عرض لها ، ولسكن حين مثلت في البلاط ضحك لويس الرابع عشر من قلبه على نكتها ضحكا جعل الجمهور يغير رأيه ، وأدت هذه الملهاة المتوسطة الجودة دورها في ملء جيب راسين .

على أن نعمة صغيرة قطعت عليه هناءه . ذلك أن خليلته دبارك ماتت في ظروف غامضة — سنفصلها في موضع لاحق — في ١١ ديسمبر سنة ١٦٦٨ . وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى ماري شانسلية . وكان لها زوج يقظ وصوت ساحر ، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر . واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فيندر ، وبعد ذلك اتزعا الكونت دكليرمون — تونير من جذورها (déracinée أي من راسين) كما قال أحدظرفاء .

ومسرحية راسين « بريتايسكوس » (١٦٦٩) في رأيه أكثر أعماله اتقانا ، وكثيرا ما تفضل على اندروماك ، شأنها شأن « فيندر » و « اتالي » .

(٥) انفجر عرق في مونفلوري وهو يهيمها ومات بعد قليل .

على أن القاريء العصري لن يلتذها في أغلب الظن مهما كان غارقاً في تاسيتوس
فمنها أجربين السليطة ، وبريتانيكوس الشكاه وبوروس المتخبط ، ونارسيس
القذر ، ونيرون الممتليء شرّاً — فما من شخص هنا يظهر لنا تعقداً أو تطوراً ،
أو يبدي لنا أثراً من نبل خليق بأن يخفف في موضع ما من أى مأساة
جديرة بقلم شاعر .

وكما أن بريتانيكوس فتشت عن قصتها في « قاعة الفظائع » التي ذكرها
تاسيتوس ، فكذلك أخذت برينيس (١٦٧٠) قصة غرام امبراطور عن
سطر موجز لسويتون يقول فيه « فأرسل لتوه كارها برينيس السكرهة من
المدينة (١٢) » وتفصيل المسرحية أن تيطس الذي كان يحاصر أورشليم (٧٠ م)
كان قد أغرم بالأميرة اليهودية . ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات ،
إلا أنها تتبعه إلى روما خليصة له ، ولكنه حين برث العرش يدرك أن
الإمبراطورية لن تسمح بملكه أجنبية ، فيصرفها بعبارات ملكية متدنية
تتميز بالإدراك السليم . وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت
برضاء الجمهور والملك ، الذي لا يدق استشف بسرور بلاطه وانتصاراته
في وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب :

« أرايت بهاء هذه الليلة ؟ ألا تمتليء عيناك بعظمتها وأبهتها ؟ هذه
المشاعل ، وهذا الخطب ، وهذا الليل ذو اللهب المقدس ، وهاتيك النور ،
وتلك الشعارات ، وهذا الجمع من الناس ، وهذا الجيش ، وذلك الحشد من
الملوك ، هؤلاء القناصل ، وهذا السناتو — أولئك الذين قبسوا نورهم
الساطع من حبيبي ، وهذا الأرجوان والذهب الذي يزداد تألقاً بتجده ،
وهذا الغار الذي مازال يقوم شاهداً على انتصاره ، وهذه العيون التي تراها
قادمة من كل فج لتلتقي فيه وحده نظراتها الملهوفة ؛ هذه الطلعة الجليلة ،
وهذه الحضرة الحلوة . وحق السماء ! بأي اجلال وبأي رضى تؤكد له كل
القلوب سرائقها به ! تسكلم : أيستطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

كما يخاطر لى ، أنه لو كان القدر قضي بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده .
بمجرد النظر إليه (١٣) .

امن العجب إذن ان نرى راسين ، وهو على هذا الحدق فى الرلى ، ينال
الحظوة السريعة عند الملك ؟

ونعز فى احترام ببعض مسرحياته الأقل شأنًا ، وكلها ما يزال يحتل خشبة
المسرح الفرنسى : بايريد (١٦٧٢) ، ومتردات (١٦٧٣) التى فضلها لويس
على كل مسرحياته ، وإفجيني (١٦٧٤) ، التى وضعها فولتير فى صف واحد
مع أتالى باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر (١٤) . وقد عرضت أفجيني
أول مرة فى حدائق فرساي على ضوء الشمعدانات البلورية المعلقة فى أشجار
البرتقال والمان ، وعزف العازفون على السكان وانعظفت قلوب نصف النخبة
للمتفرجة ، وتقدم راسين ليشكر النظارة على أغلى تصفيق لقيه فى حياته .
وحين أخرجت فى باريس امتد عرضها أربعين مرة فى شهور ثلاثة . وكان قد
انتخب أثناء ذلك عضواً فى الأكاديمية الفرنسية (١٦٧٣) . وبدا أن سعادته
قد اكتملت .

على أن السعادة لم تسكتب إلى الآن للشعراء ، إلا أن يكون الجمال
فرحة لا تذهبى ، والثناء لا يقطع صوت ناشز . قال راسين لابنه « لقد طالما
أبهجنى جداً ذلك الاستحسان الذى قوبلت به ، ولكن أقل لوم ناقد . . .
كان يسبب لى دائماً من الضيق قدراً أكبر من السرور الذى يدخله على
المديح (١٥) » . فهو لم يسكن شديد الحساسية لحسب ، كما لم يسكن بد من أن
يسكون ، بل ضيق الخلق ، يرد على كل كلمة نابية . وفى ذروة مجاحه وجد
نصف باريس تنتقده ، لا بل تعمل على إسقاطه . كان كورنبي قد صر فوق
ما ينبغى ، ولكن مريديه تذكروا ما التسمت به مآسيه الأولى من نبرة
بطولية وموضوعات ملحمية ، وما شاع فى بلاغته من نبل ، وذلك المستوى
السامى الذى رفع إليه دواعى الشرف والدولة ، فوق أهواء القلب . واهموا
راسين بتلويث المسأسه بعواطف نصف مجنونة تنفعل بها مخلوقات خسيصة ،

وبادخال مغازلات حب التصور إلى المسرح ، وإغراقه بدموع بطلاته ، فصمدوا على إسقاطه .

فلما عرفت أنه يكتب « فيدر » أفنع فريق من خصومه نيكولا برادون بأن يكتب مسرحية منافسة في الموضوع نفسه . وكان للمسرحيتين نفس العنوان في الأصل — فيدر وهيبوليت — وانبثقتا من أسطورة رواها يوربيديس من قبل بما عهد فيه من قصص كلاسيكي في العاطفة . فيدير ، زوجة تيسوس ، تولع ولما شديداً بهيبوليت بن تيسوس من زوجة سابقة ، ولكنهما تجده بارد العاطفة نحو النساء فتشنق نفسها بعد أن تترك خطاباً اتهامته فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً منه ، وفي تيسوس ابنه البريء ، الذي لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطئ تروزين . ولكن راسين غير ترتيب الأحداث ، فجعل فيدر تنجرع السم بعد معامها بموت هيبوليت . ومثلت مسرحية راسين في الأوتيل دبورجون في أول يناير سنة ١٦٧٧ ، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينيجو . ولقيت التمثيلتان نجاحاً متكاملاً إلى حين ، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان ، في حين تعتبر تمثيلية راسين عادة رائعتة الكبرى ، ودور فيدر تصبو إلى تمثيله كل الممثلات الفرنسيات ، كما يستهوى دور هاملت الممثلين التراجيدين في المسرح الانجليزي* . ولقد بارى راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحتذى في الأسلوب الكلاسيكي ، في عاطفية غرام فيدر ، وجعل هيبوليت يتحرق شوقاً للأميرة أريسيا (وهذا منافي للأسطورة) . وتعلم فيدر بنياً هذا الغرام ، ويعطينا راسين في تفصيل منفصل دراسة للمرأة إذا ازدريت . وهو يختلف من هذه التحليلات الرومانسية بوصف قوى تحليل هيبوليت المذعورة وهي تجرد حتى يلقي حتفه .

وفي المقدمة التي يصدر بها راسين تمثيلته فيدر (إذ بدأ يشتد فيه

(*) هند آدم سميث أن فيدر « ربما كانت أروع مأساة في أي لغة » (١٦) .

الحافظ الدينى كلما ضعف الحافظ الجنىسى) يلوح بغصن الزيتون للبور —
رويال فيول :

« لست أجروء على أنى أؤكد لنفسى أن هذه . . . خير مأسى . . .
ولسكنى وأثق أننى لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة فى ضوء أفضل .
فأثقه الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً ، وبجرد التفكير فى الجريمة ينظر إليه
هنا نظرة الاستهجان التى ينظر بها إلى الجريمة ذاتها ، وعثرات الحب ينظر
إليها هنا كأنها عثرات حقيقية ، والمواطن المشبوبة لا تعرض على الأنظار
إلا لثرى الخلل التى هى السبب فيه ، والذيلة مصورة فى المسرحية كلها بألوان
تتيح لنا أن نراها ونسكده شكلها الشائى . وتلك هى الغاية الصحيحة التى
ينبغي أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب . ولعل هذه أن تكون
وسيلة المصالحة بين الدراما المساوية ، وكثيرين من الأشخاص المعروفين
بتقواهم وتعاليمهم ، والذين أدانوها مؤخراً ، ولكنهم سيحكمون عليها حكماً
أكثر عطفاً لوعنى المؤلفون بتعليم جمهور النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم ،
ولو ترمسوا فى هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة (١٧) » .

ورحب آرنو ، المعروف بتقواه وتعاليمه ، بهذه النعمة الجديدة ، وأعلن
رضاه عن فيدر . ولعل راسين وهو يكتب المقدمة ، وقد بلغ الثامنة
والثلاثين ، كان يتطاع إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة
بدل النساء الكثيرات . وفى أول يونيو سنة ١٦٧٧ تزوج زوجة أنه بامر
كبير . وقد اكتشف ما فى الحياة العائلية من أسباب الراحة ، ووجد من
البهجة فى ابنه البكر أكثر مما وجد فى أكثر مسرحياته توفيقاً . وكانت
غيرة مزاحمية ودسائسهم قد نغرت من المسرح ، فألقى جانباً الخطاط والمذكرات
التي كان قد أعدها لأربع مسرحيات ، واقتصر طوال اثني عشر عاماً على
كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين . لاسيما تأليف تاريخ للبور - رويال
طابعه التبجيل والولاء البنوى .

ونعص عليه هذا الهدوء المثالى حادث مؤسف أليم . ذلك أن الحكمة

الخاصة التي كانت تحقق عام ١٦٧٩ في تهم التسميم للموجهة ضد كاترين موفوازان استملت منها اتهاماً لراسين بأنه مسمم خليلته تريز دبارك . وأدلت «لأفوازان» بتفاصيل الاتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززه . وإذ كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالأعدام ، فأنها لم تكن تخسر شيئاً باتهام غيرها زوراً ، وقد لوحظ أن إحدى زبائنها وصيدقاتها هي الكونتيسة سواسون ، وكانت عضواً في العصبة التي قاومت راسين في «غرام فيدر» (١٨) . ومع ذلك كتب لوفوا في أول يناير سنة ١٦٨٠ إلى المفوض بازان ديزون يقول «إن الأمر الملكي بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه» ولكن حين تقدم التحقيق وبدأ أنه سيورط مدام دمونتسبان ، أمر الملك بحظر نشر مسجن المحاكمة ، ولم يتخذ أي إجراء ضد راسين (١٩) .

وأظهر لويس ثقلته المستمرة في السكاتب المسرحي . وفي سنة ١٦٦٤ رتب له معاشاً ، وفي سنة ١٦٧٤ خلع عليه وظيفة شرفية تغل له ٢٤٠٠ جنيه في العام في إدارة السالية ؛ وفي سنة ١٦٧٧ عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلات ؛ وفي سنة ١٦٩٠ أصبح الشاعر موظفاً دائماً في معية الملك ، فأتته الوظيفة بمورد إضافي قدرة ألفان من الجنيهات . وفي سنة ١٦٩٦ بلغ من الثراء مبلغاً أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك .

وقد أتان اداؤه النشيط لواجباته مؤرخاً ملكياً على مسجبه من المسرح . وكان يرافق الملك في حملاته ليسجل الأحداث تسجيلاً أدق . وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلاً نفسه بتربية ولديه وناته الخمس ، وكان يود أحياناً ، وسط صخبهم وضجيجهم ، لو أنه كان راهباً . وما كان ليكتب أي مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتون لجأت إليه في أن يكتب مسرحية دبلية بريئة . من كل ما يتصل بالغرام ، تمثلها الفتيات اللاتي جمعتن في أكاديمية سان سير . وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل ، ولكن دمانتون الفاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة . ورغبة في ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته «إستير» .

ولم يسكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل ، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة ، وأحاط بكل التاريخ للعقد للدون في العهد القديم . وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن ، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير الملابس الفارسية المطلوبة . فلما أخرجت (٢٥ يناير سنة ١٦٨٩) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة . واشتد الطلب على مشاهدتها ، من الكهنة أولاً ، ثم من الحاشية ، وعرضتها أكاديمية سان - سير اثنتي عشرة مرة أخرى . ولم تصل إستير إلى جماهير المتفرجين إلا سنة ١٧٢١ بعد موت الملك بست سنين ، وعندها (بعد أن فقد الدين الرأية الملكية) لم تلق إلا نجاحاً متوسطاً .

وفي ٥ يناير سنة ١٦٩١ أخرجت سان - سير أحدث مسرحيات راسين وهي « أتالي » . وأتاليا هي الملكة الشريرة التي ظلت ست سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية ، حتى عزلتها ثورة قام بها السكمان (٢٠) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس ، يدق صدورهم الإيمان اليهودي أو المسيحي الأصيل ، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القائمة مشبهة لهم . وبدأ أن التمثيلية صفت لطردها طيور واتهم السكهنوت الكاثوليكي ، ولسكنها من جهة أخرى حوت - - في إنذار رئيس الكهنة الملك الشاب جود - - تنديداً قوياً بالحكم المطلق :

« إنك وقد نشئت بعيداً عن العرش لم تشعر بتمتته السامة ، إنك لا تعرف الانقضاء بالسلطان المطلق ، وسعير المتملقين الجبناء . مما قليل سيقولون لك إن أقدم القوانين ٠٠٠ ينبغي أن تطيع الملك ، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته ، وأنه يجب أن يضحى بكل شيء في سبيل مجده الأعلى . . . وأسفاه ! لقد ضلوا أحكام الملوك (٢١) » .

وقد ظفرت هذه الآيات بالألم تحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر ،

ولعلها حدث بقولتين وغيره (٢٢) إلى اعتبار أنالى أعظم الدرامات الفرنسية.
على أن الأبيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحاج دفاعاً
عن خضوع الملوك للكهنة .

أما لويس ، الذى بز الآن راسين فى تقواه وورعه ، فلم ير بالتمثيلية
بأسا . وواصل استقبال راسين فى انقصر رغم ما عرف عن الشاعر من
تعاطف مع البور — رويال . ولكن فى سنة ١٦٩٨ حجب الملك رضاه .
ذلك أن راسين ، بناء على طلب مدام دمانتنون ، وضع بياناً بألوان العذاب
اللى ابتلى بها الشعب الفرنسى فى أواخر الحكم . وفأجأها الملك وهى تقرأ
الوثيقة ، وأخذها منها ، وانزع منها اسم كاتبها ، وأخذته سورة الغضب
وقال « السكونه شاعراً خلا يحسب أنه يعرف كل شىء ؟ » لأنه شاعر كبير
يريد أن يكون وزيراً أيضاً ؟ » أما دمانتنون فقد أكدت لراسين وهى
تفيض فى الاعتذار له أن الزويدة ستمر سريعاً . ولقد مرت ، وما لبث راسين
أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالاً كريماً ، وإن بدا له أقل حرارة من
ذى قبل (٢٣) * .

أما الذى قتل الشاعر فلم يكن نظرة فاترة من الملك بل خراجاً فى
السكبد . وقد أجريت له جراحة ، وخف ألمه فترة ، واسكنه لم يكن واحداً
حين قال : لقد أرسل الموت لى كشف حسابه (٢٦) وجاء بواله ، وهوليشكو
المرض ، ليلأزم صديقه العليل . وقال راسين « إنى مغتبط لأنه سمح لى أن

(*) يقول ابن راسين : « لقد عاد لى القصر غير مرة ، وكان على الدوام ينشرف
بالهدوء إلى حلاله (٢٤) » أما سان — سيمون فيروى قصة غير هذه : فهو يزعم أن راسين
فقد العظوة لأنه انتقد ملاحى سكارون فى حفرة مدام دمانتنون والملك « وهنا احمر
وجه الأرملة المسكينه ، لا لانيل من سمه الرجل المشلول ، بل لسببها اسمه ينطق به فى
حفرة خلفه . كذلك ارتبك الملك ... وانتهى الأمر بأن صرف الملك راسين زاعماً أنه
ذاهب إلى عمله ... ولم يكلم الملك لا مدام دمانتنون بمداه راسين حق ولا نظراً إليه .
وهذا التعليل لسخط الملك على راسين مرفوض الآن عموماً (٢٥) .

أموت قبلك (٢٧) » وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البور - رويال :

« أود أن تحمل جثتي إلى البور - رويال - دي - شان ، وأن تدفن في مقبرته .. إنني بكل تواضع التمس من الأم الرئيسة والراهبات أن يمنحنني هذا الشرف ، وإن كنت عليماً بأنني لا أستحقه ، سواء لما شاب حياتي الماضية من مخاز ، أو لتقصيري في الاستفادة من ذلك التعليم الممتاز الذي تلقيته من قبل في ذلك الدير ، وما رأيت فيه من مثل رائحة في التقوى والتوبة ... ولكن كلما ازدادت إساءتي لله ازدادت حاجتي لصلوات هذه الجماعة العظيمة الوريع (١٨) » .

ومات في ٢١ إبريل سنة ١٦٩٩ وقد بلغ التاسعة والخمسين . وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبنائه حتى مات آخرهم .

وتضع فرنسا راسين في صف أعظم شعرائها ، لأنه هو وكورنيي يمثلان أرقى ما وصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور . ولقد تقبل - بناء على حض بوالو - تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث : فبلغ بذلك تركيزاً لا يبارى للوجدان والقوة من خلال عمل واحد يقع في مكان واحد ويسكل في يوم واحد . وقد تجنب تطفل الحبكات الثانوية - وكل مزج بين المأساة والملهاة ، وأخرج العامة من مآسيه ، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات . وقد تقي لغته من كل الألفاظ التي قد تعد نابية في الصالونات أو البلاط ، أو تكون محل استنكار في الأكاديمية الفرنسية . وشكا من أنه لا يجزئ على أن يورد في تمثيلاته عملية مبتذلة كعملية تناول الطعام ، وإن حفل بها شعر هو ميروس (٢٩) ، وكان الهدف هو بلوغ أسلوب يعكس في الأدب حديث الأرستقراطية الفرنسية وطاقتها . وقد حدث هذه القيود من مجال راسين . وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير ، على شاكله سابقاتها - وفي كل منها كانت المواطن واحدة .

على أن راسين شارف الرومانسية في طابع المشاعر التي عبر عنها وفي حديثها ، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية ، فكرة العقل يطنى على الحياة ويضبط العاطفة والحديث . وبينما نجد العاطفة في كورنبي تؤكد على الشرف ، والوطنية ، والنبالة ، نجدها في راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة ؛ ونحن نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه ، ومدام دسكويدري ، ومدام دلافايت . وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة ، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس ، الذي تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى أفراط في الحماسة والوجدان . وفي هاملت أو مكبث من القصد في الحديث أكثر مما في أندروماك أو فيدر . وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه في أن « أول قاعدة » للدراما « هي أن تسر وأن تمس القلب » (٣٠) ، وقد فعل هذا بتعامله مع القلب ، وباختياره شخصه الرئيسيين من بين أفراد — كانوا عادة من النساء — مرهفي العاطفة ، وتحويله تمثيلات إلى سيكولوجية العاطفة .

وقد وافق على الحظر الكلاسيكي للحركة العنيفة على المسرح ، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط . وألقى هذا عبئاً ثقيلاً على أسلوبه ، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب ، وكان استرساله في الأبيات السكندرية المتتالية — وهي ذات المقاطع الاثني عشر والقوافي المزدوجة — هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتبة المملة ؛ فنحن نفتقد في راسين وكورنبي ما يظالنا في الشعر الإليزابيثي المرسل من مرونة ، وطبيعية ، وتنوع لا آخر له . وياله من جهد عبقرى ذلك الذي اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تماثله الممل ، بقوة الأسلوب وجماله أن راسين وكورنبي ينبغى ألا يقرأ ، بل يجب أن يسمعا ، وحبذا أن يكون ذلك ليلاً في فناء الأنفاليد أو اللوفر .

والمفاضلة بين راسين وكورنبي هواية قديمة لدى الفرنسيين . أما مدام دسفينيه ، فأنها بعد أن شهدت « بايزيد » وقبل أن تمثل — إفجينى

أو فيدر — انحازت إلى كورني بحماسة للآلوفة • وقد تنبأت في تهور ،
ولكن ربما بحق ، بأن :

« راسين لن يستطيع أبدا أن يتجاوز .. أندروماك ... فتمثلياته مكتوبة
للأنسة شامسليه .. وسوف يتضح حين يكبر ، ويكف عن الحب ، هل
أخطاء الحكم أم أصبت . إذن فليعش صديقنا كورني طويلا ، واستغفر له
الآبيات الرديئة التي تصادفها في شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التي
كثيراً ما تنتشى بها » . . .

وهذا على العموم رأى كل ذى ذوق سليم^(٣١) . ولكن فولتير الذى
اضطلع بنشر أعمال كورني والتعليق عليها ، صدم الأكاديمية الفرنسية بنقده
لأخطاء المسرحى الكبير وفجائاته ولغته الطنانة • كتب يقول « أعترف
أننى بنشرى كورني أصبحت من عباد راسين^(٣٢) » وقد أقر الزم من بهذه
الأخطاء ، واغتفرها لرجل لم يحفظ بما حظى به راسين من ميزة المجيء بعد
كورني . فالارتفاع بالدراما الفرنسية من مستواها السابق إلى مكانة « السيد »
« وبوليوكت » كان إنجازاً أشق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنغوم
الذى نجده فى « أندروماك » « وفيدر • إن كورني وراسين هما
الموضوعان الذكر والأنثى فى شعر القرن العظيم — التعبير القوى عن الشرف
والحب • • • وعلينا أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس باتساع الدراما
الكلاسيكية الفرنسية وقوتها ، تماماً كما يجب أن نأخذ ميكلائخلو ورفائيل
معاً إن أردنا أن نحكم على النهضة الإيطالية ، أو بيتهوفن وموتسارت إن
أردنا أن نفهم الموسيقى الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر .

قال ديفدهيوم ، وكان اسكتلندياً حكيماً ، ضليعاً فى لغة الفرنسيين
وآدابهم ، « فى المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان ، الذين تفوقوا
كثيراً على الإنجليز^(٣٣) » وذلك حكم كان خليقاً بأن يدهش راسين ذاته ،
الذى عبده سوفوكليس باعتباره الكمال مجسداً ، وان جرؤ على منافسة

يوريميديس . وفي هذا نجاح ، وهو ما يستحق عليه الثناء حقاً . فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شيكسبير وكورني ، ولم بدن منه إنسان بعد ذلك سوى جوته .

٤ - لافونتين : ١٦٢١ - ١٦٩٥

في ذلك العصر ، عصر الخصومات الأدبية الصارخة ، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة ، نصف الأسطورية ، بين بوالو ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين — « شلة » الأصدقاء الأربعة .

أما جان دلافونتين فكان العضو المغمور بين الجماعة . ولد كأصحابه لأسرة متوسطة ، ولا غرو فالاستقراطية في شغل بفن الحياة عن الفن . وكان مسقط رأسه شاتو — تيمري في شمبانيا ، وأبوه المدير المحلي للمياه والغابات ، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به ، وعشق الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والأنهار ، وكل ما كمنها ، وتعلم طادات العشرات من أنواع الحيوان ، وتسكن في تعاطف بغاياتها ، وهو مهو بها ، وأفكارها ، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجري الكلام على السنة هؤلاء الفلاسفة متعددي الأرجل ، وأصبح « إيزوباً » آخر مذاًباً بقصصه الخرافية في ذاكرة الملايين .

وكانت نية أبويه أن يعداه للكهانة ، ولكن لم يكن به ميل للخوارق . وحاول أن يمارس القانون ، ولكنه وجد الشعر أسيرهما . وتزوج فتاة غنية (١٦٤٧) وأنجب منها ولداً . ثم اتفق مع زوجته على الانفصال (١٦٥٨) وذهب الى باريس ، وأبهج فوكيه ، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشاقه ألف جنيه ، شريطة أن يتحفه بأشعاره أربع دفعات في السنة . فلما سقط فوكيه وجه لافونتين الى الملك التماساً شجاعاً يرجوه فية الصفيح عن رجل المال . وكانت النتيجة انه لم يصطل قط بعدها في شمس الملك . فلما جرد من

معاشه ولم يكن لديه اى فكرة عن كسب قوته ، آوته واطعمته الدوقة .
دويون التى التقينا بها من قبل فى صفوف الفرونيات ، واصدر وهو مستظل
بجناحها (١٦٦٤) أول كتاب فى « حكاياته » وهو مجموعه من الأقاصيص
الشعرية ، مكشوفة على الطريقة البوكاشية ، ولكنها مروية فى بساطة ساحرة .
مالبت ان جعلت نصف فرنسا ، حتى العذارى الخجولات ، يقرأنها (٥) .

وبعد قليل أسكنته مارجريت اللورينية ، دوقة أورليان الارملة ، قصر
الكسمبورج بوصفه وصيفاً لها . وهناك كتب مزيداً من حكاياته ، ومن
هناك دفع الى المطبعة بالكتب الستة الاولى من قصصه الخرافية (١٦٦٨) .
وقد زعم انها صياغة جديدة لخرافات إيزوب اوفيدروس ، وكذلك كان
بعضها ، وبعضها اخذ عن قصص الهند الاسطورية Bidpai وبعضها من
خرافات فرنسا ، ولكن اكثرها خلق من جديد فى ذلك الغدير الذى
يتدفق فى ذهن لافونتين وشعره . وكانت اول قصة خرافية تاخيصاً غير
مقصود لحياته الخلية الطروب :

« بعد أن أنفقت الجراحة الصيف كله غناء ، ألقت نفسها حين أقبل الشتاء
مملقة لاتملك ذبابه ضئيلة ولادودة حقيرة ، فضت تشكو جوعها لجارتها
النملة وتسالها ان تقرضها شيئاً من الحب تقفاته به حتى يقبل الموسم الجديد .
وقالت « سأرد لك ديني قبل الحصاد ، واقسم على ذلك بدين الحيوان
ومصلحته ومبدئه . اما النملة فلم تسكن ممن يقرضون ، وهذا اقل عيوبها .
لذلك قالت للسائلة « أو ماذا كنت تفعلين فى الصيف ؟ » (٥)

(٥) خذ مثلاً قصة « صانع الأذان » . قالسبر ولیم يذهب لتفضاء مصلحة الى المدينة
ويترك زوجته أليكس حبلى . وينذرهما قريبها أندريه بأنه يستلجج من لون وجهها أن
طفها سيولد ناقصاً أذناً . ومرض عليها أن يسكون جراحاً لها ، ويفهمها أن نوبة غرام
كفيلة بترويد الطفل بالأذن الناقصة . وتقبل الوصفة ، وتتناول منها عدة جرعات ، حتى
ليخطر لها أن الطفل سيكون له من الأذان أكثر من اثنتين . فاذا عاد ولیم صحيح التوازن
الأحلافى باغواء زوجته أندريه (٣٤) .

« كنت أغنى ليل نهار لكل وافد ، فلا يسؤك هذا » . « كنت تغنين : يسمدنى أن أسمع هذا . عليك اذن أن ترقصى الآن » .

كان لافوتتين أحكم من ديكارت ، الذى ظن أن كل الحيوانات كائنات آلية لا تفكر ؛ فقد أحبها الشاعر ، وأحس بتفكيرها ، ووجد فيها كلها دروس الفلسفة العملية . وافتتنت فرنسا بتلقى الحكمة فى جرعات سهلة الهضم كمذه . وأصبح كاتب هذه الخرافات اكثر المؤلفين قراء فى بلاده . واتفق النقاد مرة فى حياتهم مع الشعب ، وأثنوا عليه فيمن أثنوا ؛ ذلك أنه برغم بساطته الخالصة كان عليما بالفرنسية فى لونها الربى ورأى تحتها الترايبية ، وقد خلع على شعره من الرشاقة الطيبة ، وطرق التعبير الحلوة ، والصورة الحية المحركة ، ماجعل كل البورجوازيين مدعى النبيل فى فرنسا يغتبطون لأن حيواناتهم ، بل حشراتهم ، تنطق بالشعر طوال الوقت . قال فوتتين « إنى استخدم الحيوانات لتعليم الناس (٣٥) » .

وفى ١٦٧٣ ماتت مرجريت اللورينزية وألغى الشاعر نفسه غارقا فى الديون ، وهو الذى كان يغنى فى غير تدبير للمستقبل ، ولم يحسن التصرف فى الأجور المتواضعة التى أتت بها كتيبه . على أنه كان اكثر حظا من جرادته ، لأن مدام دلاسا بليير ، المرأة المثقفة المعطوف ، آوته وأطعمته ورعته بحذب الام الرعوم فى بيتها بشارع سانت - أوثرية ، وهناك طاش فى فتاعة هادئة الى أن ماتت فى ١٦٩٣ . يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين : اولهما ينام فيه ، والاخر لا يعمل فيه شيئا . ووصفه لايروبير بأنه رجل يستطيع أن ينطق الحيوان والحجر والحجر بكلام رشيق أنيق ، ولكنه (٣٦) هو نفسه كان « متبلدا ، ثقيلا » ، غبيا فى الحديث (٣٧) . على أن هناك روايات مناقضة زعمت أن فى وسعه أن يسكون محدثا مرحا إذا وجد آذانا تلتئم مزاجه (٣٨) . وقد أذاعت شروذ ذهه عشرات النوادر ، الأسطورية الى حد كبير . من ذلك أنه قال مرة معتذرا عن وصوله الى العشاء متأخرا « عدت لتوى من جنازة

نملة ، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة ، ثم رافقت الأسرة في رجوعها للبيت . (٣٩) »

وقد تأوم لويس الرابع عشر انتخابه عضوا في الأكاديمية بحجة أن حياة الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذي يعتدى ، ثم لانت قناته في النهاية (١٦٨٤) ، وقال ان لافونتين وعد بأن يصلح من سلوكه . ولكن الشاعر الهرم لم يعرف فرقا بين الفضيلة والخطيئة ، انما عرف الفرق بين الطبيعي وغير الطبيعي ، فقد تعلم أخلاقياته في الغابات . وكان كوليير لا يشعر بأي انجذاب للبور — رويال ، هؤلاء « المجادلون البارعون » كما وصفهم ، الذين « تبدو لي دروسهم باعثة على الغم بعض الشيء » (٤٠) . وانضم حيناً إلى « شلة » أحرار الفكر في « التامبل » ، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على الطريق ، لاح له أن قد آن الأوان ليصلح ما بينه وبين الكنيسة ، ومع ذلك فقد تسامح « أكان القديس أوغسطين حكيما حكمة رابليه (٤١) ؟ » ومات في ١٦٩٥ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وكانت مرضته على ثقة من خلاصه الأبدي ، لأنه على حد قولها « كان فيه من البساطة ما يجعل الله يتردد في الحكم عليه بالهلاك » (٤٢) .

٥ - بو الأور : ١٦٣٦ - ١٧١١

في اللقاءات التي جمعت الأصدقاء الأربعة في شارع فيو كولومبييه كان فيقولوا بوالو المسيطر عادة على الحديث ، وهو الذي وضع قواعد الأدب والأخلاق بكل سلطان الدكتور جونسون ووقتته في حانة « رأس التركي » بحى سوهو . وكان كجونسون محدثاً أهم منه مؤلفاً ؛ وخير أعماله شعر وسط ، ولكن أحكامه كان لها في ميدان الأدب أثر أبقي مما كان لأحكام لويس الرابع عشر في السياسة . وقد أعادت صداقته وتقريبه الناقد لموليير ورامسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لها .

كان الطفل الرابع عشر لكاتب في برلمان باريس • وإذ كان منذور
للكهانة فقد درس اللاهوت في السوربون • ولكنه تمرد، ودرس القانون
وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه (١٦٥٧)، غلغلا
ميراثا يكفيه وهو يقرض الشعر • وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه، ثم راح
يصدر أحكامه على زملائه في اثنتي عشرة اهجية (١٦٦٦ وما بعدها) • ذلك
أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجيام^(٤٣) روعه، فهاجمه كأنه جيش من
الجراد، وسمى بعضهم بأسمائهم، فخلق له أعداء بقوافيه • وجر على رأسه
أيضا سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التي كانت السيدتان
سكوديرى ولافايت تضيeman بها ورق فرنسا ووقتها • وقد امتدح القدامى،
وامتدح من بين المحدثين ماليرب وراكان، ومولير وراسين • قال « أحسبه
من حقنا أن نسمى الشعر الرديء رديثادون أن تؤذى الضمير أو الدولة، وأن
يكون لنا مطلق الحق أن نستشعر الضمير من قراءة كتاب غي^(٤٤) » • على
أن هذه الاهجى تضجرت ناهي الأخرى لأن هدفها قد تحقق : فالشعراء الذين
أدانتهم هدموا هدمًا لم يبق على أثرهم في ذاكرتنا أو في اهتمامنا، يضاف
إلى هذا أن أصحاب العقول الغضة منا، لاسيما إذا كنا مؤلفين، يؤثرون
النقاد الذين يرشدوننا إلى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث •
وبعد أن ذهب بوالور في اهاجيه مذهب جوفينال الصارم، خفف من
غلوانه بالتزام مذهب هوراس الأكثر اعتدالا، ووصل إلى أسلوب ألين
في سلسلة من الرسائل (١٦٦٩ - ٩٥) • وهذه الرسائل الشعرية هي التي
أغرت لويس بدعوته إلى البلاط • وسأله الملك ما أفضل شعره في ظنه •
أما بوالوالذي كان يترقب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئا من شعره المنشور،
ولكنه تلا بعض شعره في مدح الملك العظيم، وكان أبياتا لم تطبع بعد قال
عنها إنها أقل شعره رداة • وأجازه لويس بمعاش قدره ألفان من
الجنينيات^(٤٥)، وأصبح شخصا « مرضيا عنه » في البلاط • قال لويس
« أحب بوالوال أنه سوط تأديب ضروري نصلته على ذوق كتاب الدرجة
١٥ — قصة المضارة

الثانية السقيم (٤٦) . وكما أن لويس ساند مولير في حملته على المتعصبين ، كذلك لم يفه بأى احتجاج حين نشر بوالو ملحمة ساخرة سماها « لوتران » (١٦٧٤) ، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين النهمين . وفي ١٦٧٧ عين الشاعر الهجاء مؤرخا رسميا مسع راسين ، وفي ١٦٨٤ قبل نهائيا فى الأكاديمية بأمر صريح من الملك ، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم .

أما القصيدة التى طفت به فوق دوامات الزمن فهى « فن الشعر » (١٦٧٤) التى ضارعت فى تأثيرها النموذج الذى نسجت على منواله ، وهو كتاب هوراس *Arta poetica* ، ويستهل بوالو قصيدته بتنبيه شباب الشعراء الى أن « بارناس » جبل وعز ، فليستوثقوا اذن قبل أن يشرعوا فى ارتقاء جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئا يستحق أن يقال ، شيئا يعزز الحقيقة ويعين على الادراك والذوق السليمين . وهو يقول لهم ناصحا : نوعوا وحديثكم ، فان أسلوبا بالغ التكافؤ شديد التماثل (كآسلوب بوالو) يحملنا على النوم ، و « حبذا الشاعر الذى ينتقل ، بلمسة رقيقة ، من الخطير الى الخفيف ، ومن السار الى العنيف » (٤٧) . « وأرهقوا آذانكم لايقاع ألفاظكم . واتبعوا قواعد ما يرب فى اللغة والأسلوب . وادرسوا القدامى لا المحدثين : هومر وفرجل فى شعر الملاحم ، وسوفوكليس فى المأساة ، وتيرانس فى الملهاة ، وهوراس فى الهجاء ، وتيوقريطس فى شعر الرعاة » . « اسرعوا فى بطاء ، وضعوا انتاجكم على السندان عشرين مرة دون أن يفت ذلك فى عضدكم . . . وأضيفوا اليه قليلا ، واخذفوا منه (٤٨) كثيرا . أحبوا من ينتقدونكم ، وصححوا أخطاءكم دون تدمروا أنتم تنحنون لحكم العقل (٤٩) . واعملوا للمجد ، ولا تجمعوا السكسب الخسيس هدف لجهدكم (٥٠) . فاذا كتبتم درامات فراعوا الوحدات ، واجعلوا الفعل الواحد ، المكتمل فى مكان واحد ويوم واحد ، يبق المسرح ممتلئا بمهوره الى النهاية (٥١) . ادرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة ،

فكلاهما غنى بالنماذج ، ولعل هذا هو السر في الفوز الذي حققه مولير
لفنه (٥٢) .

وانضم بوالو الى مولير في السخرية من « المتحذلقات » واحتقر شعر
الحب المتكلف الذي أضعف الشعر الفرنسي وقابل بين هذه العاطفية الكاذبة
وبين تمجيد ديكارت للعقل وغرس الاداب القديمة لضبط المشاعر . وصاغ
مبادئ « الأسلوب الكلاسيكي » وأجلها في بيتين شهيرين « أحبوا العقل اذن ،
ولتقبس كتاباتكم منه بهاءها وقيمتها (٥٣) » فلازيف في العاطفة ،
ولا انفعال ، ولا كلام طنان ، لا نمحذلق ، لا تسكلف ، ولا غموض التباهي
والغرور . فالمثل الأعلى في الأدب ، كما في الحياة ، هو ضبط رواق للنفس ،
و « لا تزيد أو افراط » .

وقد أحب بوالو مولير ، ولكنه أسف على هبوطه الى درك المسلاة
« الفارص » . وأحب راسين ، ولكن يبدو أنه لم يفتن الى تمجيده
الرومانسي للوجدان ، ولم يلحظ بطلاته المتفجرات بالانفعالات - هرميون ،
وبرنيس ، وفيدر . والمقاتل لابد مبالغ في نصيبه من الحقيقة . ولقد
كان في بوالو من قوة المحارب ما أعجزه عن فهم ما قاله بسكال من أن للقلب
دواعيه التي لا يفهمها الدماغ ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملامسة
الرخام وبرودته . لقد سمح هوراس بالوجدان فقال « إن أردتني أن أبكى »
أي أن أحس مما تكتب ، « فعليك أن تبكى أنت أولا » أي عليك أن
تحس أنت بالأمر . ان فن العصور الوسطى وأدبها ظلا محجوبين
عن عين بوالو .

وكان اثر تعليمه هائلا . فقد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام
قواعده الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة . وشاركت هذه القواعد في تشكيل
أسلوب الأدب الانجليزي في « العصر الأغسطي » الذي قلد شاعره بوب
في صراحة « فن الشعر » في كتابه « مقال في النقد » . وكان تأثير
بوالوضارا ونافعا . فهو باستنكاره الخيال والوجدان ، وضع صماما

على الشعر في فرنسا بعد راسين ، وفي انجلترا بعد درايدن . واتخذ الشعر في أفضل نماذجه شكل النحت بالازميل ، ولكنه فقد دفء التصوير ولونه . ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل الى ساحة الأدب المحض ، فقد كتب الكثير جدا من اللغو عن الحب والرعاة ، واحتاجت أوروبا الى احتقار بوالو الغاضب حتى تظهر ذلك الجو الأدبي ، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية . وربما كان الفضل لبوالو في ارتفاع مولير من « الفارص » الى الفلسفة ، وفي محاولة راسين البلوغ بفنه الى مرتبة الكمال .

وكان مما يتلادم وطبيعة بوالو تماما مسلكه بعد أن اشترى بيتا وحديقة في أنوى بفضل نفقة من نفحات الملك (١٦٨٧) ، فهو لم يذكر شيئا في كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم الا أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم « دسبريو » . هناك عاش أكثر ما بقي له من أجل في هدوء بسيط ، لا يزور البلاط إطلاقا ، ويرحب ترحيبا حارا بأصدقائه . وقد لاحظ الناس ان « له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل انسان (٥٤) » . وكان فيه من الشجاعة ما حمله على الإعراب عن عطفه الى البور رويال ، وعلى أن يخبر يسوعيا بأن رسائل بسكال الاقليمية احدى روائع النثر الفرنسي . وقد صر بعد موت جميع أفراد الجماعة التي كان منظرها المرموق : فولير لقي ربه منذ أمد بعيد ، ثم لحق به لافونتين في ١٦٩٣ ، ثم راسين في ١٦٩٩ ، وتحدث الهجاء العجوز الليل بتأثر عن « الأعراء الذين فقدناهم ، والذين اختفوا كأنهم حلم انسان استيقظ من نومه (٥٥) » . وحين دنت منيته غادر أوتوى وذهب ليموت (١٧١١) في مسكن كاهن اعترافه بصومعة النوتردام ، مؤملا ألا يجرو الشيطان على أن يمسه هناك .

٦ - الاحتجاج الرومانسى

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية — قواعد العقل ، والاعتدال ، وضبط النفس — إقبال كورنى العجوز وراسين الشاب . ذلك أن طامون كان عالم الوجدان والرومانس ، وقد حفزت « زيجات المصلحة » التى كن يعقدنها أو هام الغرام أكثر مما صدتها . ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو — جنباً إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية — حتى تتغضم حجماً وتلقى استحساناً واسعاً وتؤثر تأثيراً دولياً . ولم تكن سيدات المجتمع فى فرنسا ليشبعن من مثل هذه الروايات ، ولا كن يجدنها مفرطة فى الطول ، وآية ذلك أنه حين توقف « جوتييه دلا كالبرونيد » عن المضى فى روايته « كليوباترة » بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء (١٦٥٦) ، رفضت خطيبته أن تزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين (٥٦) .

وقد استرقت الآنسة مادلين دسكوديرى قلوب نصف فرنسا بروايتها « آرتامين أو كورش الكبير » (١٦٤٩ - ٥٣) ، و « كيلي » (١٦٥٤ - ٦٠) وكتاتهما فى عشرة مجلدات . وأشبع غرور المجتمع الفرنسى أن يجد الشخصوس فى هذا الإنتاج الرومانسى العزيز ، تحت أسماء مستعارة ، تصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتحيط اللثام عنهم . وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات ، وتعلموا فنون التهنيد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم ، وأصبحت الآنسة دسكوديرى نفسها تسمى « سافو » ، وكذلك كانت تنادى فى الصالونات إلى نهاية صرها الذى بلغ أربعة وتسعين عاماً . وقد كتبت لتسراً أخاها جورج ، ونشرت كتبها تحت اسمه ؛ وآثرت أن ترماء على أن تزوج . وظل سلطانها على النساء المثقفات والرجال للمعطين إلى أن غيرت مسرحيتها مولير « المتحذلقات اللضحكات » و « النساء العالمات » من اتجاه الأفواق الأدبية ، وهنا حبست مادلين فى شجاعة آخر مجلد من مجلداتها التسعين عن النشر . والذين يشكون

الفرغ قد يجردون إلى اليوم في صفحات « كورش الكبير » الخمس عشرة. ألف ، أو صفحات « كليلى » ، العشرة الآلاف ، فقرات تتميز بركة العاطفة ، أو تنفرد بتحليل الخلق . كذلك تستحق لا سكوديرى أن تتذكرها لما قامت به من جهد فى سبيل النهوض بتعليم النساء فى فرنسا .

وأما « ماري مادلين بيوش دلافيرن » ، التى أصبح اسمها بعد الزواج السكونتيسة لافايت ، فهى شخصية أكثر فتنة ، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب ، بل عاشت أيضاً قصة أشهر . وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة ، ثم ذهبت لتعيش فى أوفرن بعد زواجها (١٦٥٥) . ولسكنها حين وجدت الحياة هناك عملة اتفقت مع زوجها على الانفصال (١٦٥٩) ، وذهبت إلى باريس ، وانضمت إلى الجماعة التى تلتقى فى قصر رامبويه . ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا ، وخلقتها بعد حين فى مذكرات تفيض محبة . وكانت قريبة وصديقة لمدام دسغينييه التى كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً « لم تحجب مماء صداقتنا أقل سحابة ، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها فى نظرى ، فقد كان شذاها على الدوام نضراً جديداً (٥٢) » . وتلك نحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً ، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسى . وسنلتقى بمزيج نادر من الحب والصداقة فى علاقات مدام دلافاييت بلاروشغوكو .

وقد وقمت على الجديد الثورى حين قررت أن تبارز بقلمها الآسنة دسكوديرى . ذلك أنها كتبت رواية فى مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتى صفحة . واعتنقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما فى نصه الأسمى ، فكل جملة تحذف تضيف جنيهاً ذهبياً لقيمة الكتاب ، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً . وبعد أن نشرت أصحالا صغيرة ألفت (١٦٧٢) ونشرت (١٦٧٨) رائعتها للسهم « أميرة كليف » . وحبكة الرواية (إن شئنا أن نخلط بين الاستمارات) هى .

مثلث ذو عمامس . فالآنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن في تواضع يجعل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة . وتنزوجه صملاً بنصيحة أمها ، ولكنها لا تشمر نحوه شعوراً أحر من الاحترام . وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهمج بها لتوه ، وتصده هي في إحساس بالفضيلة ، ولكن الحاحه المحموم يسر قلبها ، وشيئاً فشيئاً تتحول الشفقة فيها حباً . وتعترف بهذا التطور لزوجها ، وتتوسل إليه أن يبعدها عن القصر وعن التجربة ، ولكنها لا يستطيع أن يصدق أنها وفية له ، فيخترمه الهم حتى يقتله ، وكأن قرنيه الوهميين خرقا حلقه . أما الأميرة فتصعد الدوق وضميرها يبكيتها على موت الأمير ، وتسكس ما بقي لها من عمر لأعمال البر . وقد علق « بيل » الشكاك على القصة بقوله : لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت في فرنسا لمشى ألفاً ومائتى ميل . ليراه (٥٨) .

ونشر الكتاب غفلاً من اسم المؤلفة ، ولكن سرعان ما استقر رأى الأوساط الأدبية على أنه إحدى ثمرات علاقة حميمة مشهورة آنذاك . قالت الآنسة سكوديرى : (لقد كتب مسيو دلاروشفوكو ومدام دلافاييت رواية ٠٠٠ قيل لي أنها كتبت على نحوثير الأعجاب (٥٩)) ، ولكنها أضافت « أنهما لم يعودا في سن تسمح لهما بالاشتراك معاً في أى عمل غير هذا (٦٠) » . ولكن كلا المؤلفين المزعومين أسكر تأليف الزواية . وكتبت لاسكوديرى تقول « إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرا منها أبوها وأمها » . أيا كان الأمر ، فقد أجمع الكل على أنها أروع رواية كتبت في فرنسا إلى ذلك الحين . واعترف فونتنيل بأنه قرأها أربع مرات ، وكان رأى بوالو ، عدو الرومانس ، في مدام دلافاييت أنها « ابدع عقل وافضل كاتبة بين نساء فرنسا » . ويقر التاريخ لأميرة كليف بأنها من اول الزوايات السيكلوجية وما زالت من أفضلها . وهى الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التى ما زال فى الإمكان قراءتها دون ما ألم .

٧ - مدام دسفينييه

١٦٢٦ - ٩٦

ولكن بقي من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات — من تأليف امرأة أيضا — في الامكان قراءتها في بهجة مستسمة حتى في نبض زماننا السريع . والمؤلفة ، وهي ماري درابوتان — شانتال ، فقدت أبويها في طفولتها وورثت ثروتهما الكبيرة . وقد شارك في تعليمها نفر من خيرة العقول في فرنسا ، ونشأتها خيرة الأسر في فرنسا على فنون الحياة . فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنري ، مركيز دسفينييه ، ولكن هذا الزير كان يحب مالها اكثر من شخصها ، وبدد بعضه على خليلانه ، وبارز خصما بسبب إحداهن ، وقتل في المبارزة (١٦٥١) . وحاولت ماري أن تنسأ ، ولكنها لم تزوج بعده ، بل فرغت لتربية ابنتها وابنتها . ولعلها كما ألمح ابن عمها الحقود بوسى — رابوتان كانت ذات مزاج بارد ، (٦١) أولعلها تعلمت أن الجلس يستنزف الذات أما الامومة فتحققها . وخطاباتها تفيض سعادة ، كلها تقريبا سعادة الامومة .

ولقد أحبت المجتمع بقدر ما تشككت في الزواج . وكان لها ، وهي الارملة الشابة التي تملك ثروة بلغت ٣٥٠.٠٠٠ جنيه (٦٢) ، خطاب كثيرون من النبلاء — تورين ، وروهان ، وبوسى ... ولم تره حتى اطردم جميعا الا واحدا ، ومع ذلك لم تلوث ممعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة . وكان اصداؤها يحبونها باخلاص أكثر صدا — ومنهم دريتز ، ولا روشفوكو ، ومدام دلافايت ، وفركيه . أما الأول والثاني فقد أقصيا عن القصر لا اشترا كهما في حرب الفروند ، واما الأخير فلثروته التي لم يستطع تعليمها ، ولم تلق مدام دسفينييه ، الوفية وطاء حارا للاربعة على السواء ، ترحيبا في الرحاب الملكية المقدسة وإن نالت كلمات متفضلة من الملك في حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان - سير . اما في خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

تبتهج بصحبتها ، لأنها كانت تملك كل مفاتيح المرأة المنقفة ، كانت تتكلم بنفس الحيوية التي تكتب بها ، وذلك اطراء يناقض اطراء ألفناه أكثر منه ، فطلما يسدى إلينا النصيح ، ربما في غير تبصر ، بأن نكتب كما نتكلم .

وقد بقي من رسائلها أكثر من ألف وخمسمائة ، وجلها موجه لابنتها ، فرنسواز مارجریت . التي تزوجت الكونت دجرينيان (١٦٦٩) ، وسرعان ما رحلت الى بروفانس لتعيش معه ، وكان نائباً لحاكمها . فظلت الأم من ١٦٧١ الى ١٦٩٠ تبث بخطاب مع كل بريد تقريباً — وأحياناً مرتين في اليوم — الى هذه الزوجة الشابة التي فصلتها عنها ارض فرنسا كلها طويلاً . كتبت تقول لها « ان مراسلتى لك هي عافيتى ، ولذة حياتى الوحيدة ، وكل اعتبار آخر يتضاءل بالقياس الى هذا (٦٣) » . ذلك أن الحب الذى لم يجد رجلاً يشبعه أصبح غراماً مشبوحاً بابنة أحست أنها غير جديرة به ، لأن فرنسواز كانت ذات خلق أكثر تحفظاً ، ولم تعرف كيف تمرب عن مشاعرها بحجارة . ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم ، وكانت أحياناً تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج ، ومع ذلك ظلت طوال خمس وعشرين سنة ، إلا في فترات مرضها ، تكتب لأما مرتين في الأسبوع ، لا يفوتها بريد الانادرا ، حتى لقد أطلق لأم المتيمة بها ان تكون قد جارت على وقت ابنتها .

وأبلغ ما فى هذه الرسائل تأثيراً فى النفس ما روى حياة طفلة مدام جرينيان البكر ونهاية هذه الحياة فى الدير . ذلك أنها قدمت باريس لتلد فى كنف أمها . وما لبثت أن أرسلت الى زوجها اعتذاراً لأنها ولدت بنتاً — لا يدم من تربيتها بمجد أليم ، ومهرها بمهر خال ، ثم فقدها ؛ ولما طادت فرنسواز الى بروفانس تركت ماري بلائش الصغيرة حينما مع جدتها التي افتتنت بها . وكتبت مدام دسغنييه للأب تقول « ان كنت تريد ولداً فاصكف على صنعه (٦٤) » كتبت للوالدين اللذين لم يقدر اطفالتهما تفاصيل نشوأة عن العجيبة التي أنجبهاها كارهين :

« ان ابنتكما الصغيرة تغدو محبة للنفس . . . بيضاء كالزاج ، ضاحكة على الدوام . . . ولون بشرتها ، وعنقها ، وجسدها الصغير - كلها عجيب . وهي تقوم بعشرات الحركات الصغيرة - ثرثر ، وتلاطف ، وتضرب ، وترسم علامة الصليب ، وتطلب العفو ، وتنحني ، وتقبل يدها ، وتهز كتفها ، وترقص ، وتمتلك ، وتشد الأذن . . . وأنا ألهوم معها ساعات بطولها (٦٥) » .

وقد ذرفت الجدة دموحا كثيرة لتدع هذه العجيبة الريانة البدن تذهب الى بروفانس ، ودموحا أكثر حين أودعها الأبوان دبرا وهي لم تتجاوز الخامسة . ولم تعد الطفلة بعدها ، ففي الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهبنة واختفت من العالم .

وكان نائب الحاكم رجلا متلافا ، يولم الولاثم فوق ما يسمح به مركزه . وكانت زوجته نبيء أمها بانتظام بما تتوقعه من قرب إفلاسهما ، أما الأم فكانت توبخهما في محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال « كيف ، بحق محبة الله والناس ، يستطيع انسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلى والأثاث وسط الفقر المدقع الذي ابتلى به من يحيط بنا من الفقراء في هذه الأيام (٦٦) » . ورغبة في الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات ، كانت مدام دسفينييه تعنى بتفقد أملاكها في لى روشيه بإقليم بريتنى للتستوثق من أنها تلقى الرعاية الواجبة ، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة . ووجدت سمادة جديدة في الحقول ، والغابات ، وفلاحى بريتنى ، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التى كتبت بها عن المجتمع الباريسى الذى كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها .

وكان ابنهما مشكلة من نوع آخر . فهي شديدة التعلق به لأنه فتى طيب ، يملك كما قالت « معيننا من الذكاء وروح الفكاهة . . . وقد ألف أن يقرأ علينا فصولا من رابلييه بكاد يموت السامع من الضحك عليها » (٦٧) . وكان شارل ابنا مثاليا ، الا اذا استثنينا ترومه خطى أبيه في التنقل من اغراء إلى اغراء ، الى أن - ولكن لندع مدام دسفينييه ، وهي تكتب

لابنتها ، تتحمل تبعة باقى القصة ، فلا شىء أكثر ايضا حال الطابع العصر :
 « بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك . . . فبالأمس أراد أن يقص على
 نبأ حادث مروع وقع له . ذلك أنه صادف لحظة سعيدة ، ولكن حين
 وصل إلى بيت القصيد — كان شيئا عجيبا ! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها
 أحد فى حياتها قط بمثل هذا أما الفارس فقد تقهر بعد أن هزم شرهزيمة ،
 وظن أن سحرا التى عليه ، وألطف ما فى القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد
 ان انبأنى بكارنته . وضحكنا عليه حتى استلقينا ، وقلت له اننى مغتبطة
 جداً لأنه عوقب حيث أنتم لقد كان منظرا يستحق أن يسجله
 مولير (٦٨) » .

وأصيب الفتى بالهرى ، فعنفته ، ولكنها مرضته فى حب . وحاولت
 أن تثبت فيه شيئا من الدين ، ولكنها نصيبها من الدين كان من الضلالة
 بحيث لم تستطع أن تعطيه الكثير منه . وقد تأثرت بمواعظ بوردالو ،
 وخبرت دفقات لحائية من التقوى ، ولكنها كانت تبتسم حين ترى اللواكب
 الدينية التى أبهجت أهل المساكن الفقيرة . وقرأت آرنو ، ونيكول ، وبسكال ،
 وتعاظت مع البور — رويال ، ولكن صدها تركيزهم على تجنب الهلاك
 الأبدى ، ذلك أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بالإيمان بالجحيم (٦٩) . وكانت
 على العموم تحفل من التفكير الجاد ، فمثل هذه الأمور ليست للنساء ، ومن
 شأنها أن تعكر جمال الحياة الوادعة . ومع ذلك كانت ذواقة فى قراءتها —
 تقرأ فيرجل وناسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية ، ومونتيني بالفرنسية ،
 وتعرف مسرحيات كورنيلي وراسين معرفة وثيقة . أما فكاهتها فكانت
 أهمق وأبهج من فكاهة مولير . فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمون
 للتأمل الشارد :

« انقلب برانكا قبل أيام فى مصرف وجد نفسه فيه مرتاحا جداً حتى
 لقد سأل من سارعوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته . وقد كسرت
 نظارته ، ولولا أن حظه كان خيراً من حكمته لكسر رأسه أيضا ، ولكن
 هذا كله لم يقطع تأملاته قط . وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح . . . أثبتته

فيها أنه انقلب وكاد عنقه يندق ، لأننى اعتقدت أنه للشخص الوحيد الذى لم يسمع بالحادث فى باريس (٧٠) .

وهذه الرسائل فى مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كشفًا فى الأدب ، لأن المركيزة تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ . قهنى الأم المحبة ، التى تجدد نفسها على سجيتهما سواء فى صالونات العاصمة أو فى حقول بريتنى ، وهى تكتب لابنتها عن أنفء أحاديث الاستقراطية وقيلها وقالها ، ولكنها تقول ايضا « إن الليل ، والوقواق ، والهازار — كلها بدأت تصدح فى ربيع الغابات » ، وتندر أن تفوه بكلمة سوء عن مئات الأشخاص الذين يرفون خلال صفحاتها الألفين ، وهى على الدوام مستعدة لمديد المعونة للمكرويين ، بمجلة حديثها بالرقيق من التحية والمجاملة ، مذنبه بين الحين والحين بالمرح القسائى (كضحكها على شفق بعض الثمردين الساكنين فى برتنى) ، ولكنها مرهفة الاحساس بالآلم الفقراء ، وهى تغضى عن فساد زمانها وطبقتها ، ولكنها بلا لوم فى سيرتها الشخصية ، إنهاروح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة ، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب ، ولكنها تكتب أفضل فرنسية فى عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق .

ترى هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنشر يوما ما ؟ كانت أحيانا تسترسل فى تخليقات من البلاغة كأنها تشم مداد المطابع ، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل ، وبالمصارحات العاطفية ، والمكاشفات المخرجة التى لا يمكن أن تكون قصدت إذاعتها على القراء . كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها ، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة فى تلك الأيام ، حين كادت الرسالة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة ، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين ، التى منعتها من أن تدخل ديرا كما فعلت شقيقتها بلاش ماري ، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٧٢٦ ، بعد موت المركيزة بثلاثين عاما . وهى اليوم من أغلى هيون الأدب الفرنسى ، وكأنها باقة زهر خفية يزداد عبيرها انتشارا على الأيام .

وازداد تفكيرها في الدين كلما دنت نهايتها ، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب . وبين ضباب بريتنى ومطر باريس أصابها الروماتزم ، فققدت فرحتها بالحياة ، وأدركت أنها بشر فان .

« لقد ولجت الحياة دون رضاي ، ويجب أن أخرج منها ؛ هذه الفكرة تطغى على . . . وكيف أخرج . . . ومتى ؟ . . . انني أدفن نفسي في هذه الأفكار ، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لا بغض الحياة لأنها تغضى بي إلى الموت أكثر من بغضى لها لما يملؤها من أشواك . رستقولين انني أريد أن أحيأ إلى الابد . ليس الأمر كذلك مطلقا ، ولكن لو أخذ رأيي لآثرت أن أموت بين ذراعي مربيتي ، فقد كان هذا خليقا بأن يوفر على اضطرابات الروح ويسكفل لي الجنة في كل يقين ويسر (٧١) » .

وليس صحيحا أنها ابغضت الحياة لأنها تغضى إلى الموت ، إنما هي أبغضت الموت لأنها استمتعت بالحياة استمتاعا شديدا قرابة سبعين عاما . وإذا كانت أمنيتها أن تموت في بيت ابنتها الحبيبة ، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعمائة ميل في رحلة عذاب إلى شاتو جرينيان . فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها ، ووجدت العزاء في تناول الاسرار المقدسة ، وعلت نفسها بالخلود . ولقد وهب لها الخلود حقا .

٨ - لا روشفو كو : ١٦١٣ - ٨٠٠٠

شتان ما بين هذا الروح ، وروح أشهر الكليبيين المحدثين ، وأقصى من مزق القناع عن نقائصنا ، ذلك العليل المكتئب الذي شوه سمعة النساء وافترى على الحب ، والذي أحبطته ثلاث نساء حتى الموت .

كان الببيل السادس المسمى فرانسوا دلا روشفو كو ، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات ، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلى للملكة والوصية ماري دمديتشي .

وكان اسمه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه (١٦٥٠) . وقد تلقى التعليم في اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب والانيكيت . فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه ديفيون ، الابنة الوحيدة والوريثة لبازبارفرنسا الكبير المتوفى . وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان ، وفي السادسة عشرة اشترى رتبة السكولونيل . وكان يختلف إلى صالون مدام درامبويه الذى هذب عاداته وصقل أسلوبه . ومع كل مثالية الشباب وإيثاره للنساء الناضجات نراه يعشق الملكة ، ومامد دشفروز ، والآنسة دهوتفور . وحين تأمرت آن المساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا ، ثم كشف أمره ، وأودع بالاستيل أسبوعا (١٦٣٦) . فلما أفرج عنه سريعا نفي إلى ضيعة أسرته بغير توى . وراض نفسه حينما على العيش مع زوجته ، ولأعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل ، وتعلم أن للريف مباحج لا تستطيع فهمها غير المدينة .

في تلك الأيام لم يكن ممسكنا فصح عرى الزواج الشرعى بين الطبقات العليا الفرنسية ، ولسكن كان من الممكن تجاهلها . وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات في زواج المرأة الواحدة الذى أضجره ، انطلق للمغامرة فى الحب والحرب . وحين استهدفت عيناه مدام دلونجفيل (١٦٤٦) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالى ، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة ، لأنه مما يرفع من قدره أن يغوى زوجة لدوق وأختا لكونديه العظيم . أما هى فلعلها ارتضته لأسباب سياسية ، فقد يكون حليفا نافعا فى التمرد الاستقراطى الذى اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطاً . ولما أخبرته أنها حبلى منه (٧٢) ، منح كل تأييده للفروند . وفى ١٦٥٢ نبذته واتخذت الدوق نيمور عشيقا ، وحاول لاروشفوكوا قناع نفسه بأن ذلك ما كان يصبو إليه ، وكما قال بعد ذلك « حين نحب إنسانا إلى درجة الملل ... فإننا نرهب أشد الترحيب ... بفعل من أفعال الخيانة يبرر تحملنا من ذلك الحب » (٧٣) . فى ذلك العام ، وفيما كان يحارب فى صفوف الفروند فى ضاحية

سأنت أنطوان ، أصابه رش بندقية في عينيه وخلف به صمى جزئيا . فانسكفا
راجعا إلى فيرتوى .

وكان الآن في الأربعين ، يحس بواحد النقرس ، ويشعر للمرارة من كوارث
أكثرها من صنعه . أما مثاليته فسأت في إثر مدام دلو نجفيل ، وفي مؤامرات
الفروند الخداعة والهاية الحقيرة التي انتهت إليها . وقد أزعجى فراغه ودافع
عن سيرته في « مذكرات » (١٦٦٢) دل فيها على عظيم تمسكته من الأسلوب
الكلاسيكى . وفي ١٦٦١ سمح له بالعودة إلى البلاط ، ومنذ ذلك التاريخ
قسم وقته بين زوجته في فيرتوى وأصحابه في صالونات باريس .

وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابليه . هناك كانت هي
وضيوفها يلعبون أحيانا لعبة « العبارات » . يعلق أحدهم بعبارة على الطبيعة
البشرية أو سلوك الإنسان ، فتمتقاذف الجماعة العبارة فيما بينها تأييدا واعتراضا .
وكانت مدام دسابليه جارة وصديقة مخلصنة للبور — رويال — دبارى ،
فاعتنت رأيه في شر الإنسان القطرى وخواء الحياة الدنيوية ، ولعل تشاؤم
لاروشفوكو الناجم عن خيبته في الحب والحرب ، وعن الخيانة السياسية
والألم البدنى ، وعن خدعه غيره وانخداعه بالغير — نقول لعل هذا التشاؤم
وجد مساندة قليلة من جانسنية مضيفته . وكان يجد لذة قائمة في تهذيب
عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل ، وسمح لمدام دسابليه وغيرها من
الاصدقاء بأن يقرءوا هذه الحكم ، وأن يعدلوا فيها أحيانا . وقد نسخها
أحد هؤلاء ، وطبع ناشر لص هولندى ١٧٩ منها ، غفلا من اسم المؤلف ،
حوالى سنة ١٦٦٣ ، وتبين فيهارواد الصالونات حكم لاروشفوكو ، ثم أصدر
المؤلف نفسه طبعة أفضل اضاف إليها ٣١٧ مثلا طام ١٦٦٥ تحت عنوان
« عبارات وأمثال اخلاقية » . وأصبح هذا السكتيب الذى اختزل الناس
اسمه بعد قليل إلى « الأمثال » ، من عيون الأدب للتو تقريبا . ولم يعجب
القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق فحسب ، بل إنهم استمتعوا بما حوى

من فضح لأثرة الغير ، ولم يفتنوا إلى أن القصصة إنما تروى عنهم ،
إلا فيما ندر .

وجهة نظر لاروشفوكو أوردها ثانياً أمثاله : « إن حب الذات هو
حب الإنسان لنفسه ، ولأى شيء آخر لأجله . وحياة الإنسان كلها ليست
إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضاً قويا له ، وليس الغرور إلا شكلاً من
الاشكال الكثيرة التي يتخذها حب الذات ، ولكن حتى هذا الشكل يدخل
في كل فعل وفكر تقريباً وقد تنام شهواتنا أحياناً ، ولكن غرورنا
لا يبدأ أبداً » ان الذي يرفض الثناء أول مرة يرفضه لأنه يريد سماعه
ثانية (٧٤) . « والتلطف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب
والبطولات الواعية . « وكل الناس يستوون كبرياء ، والفرق الوحيد هو
أهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق في إبدائها (٧٥) . « ان الفضائل تضع
في المصلحة الذاتية كما تضع الانهار في البحر (٧٦) . « ولو تأملنا أفكارنا
الخفية لوجدنا في صدورنا بذرة كل الرذائل التي تستنكرها في غيرها »
ولا استطعنا أن نحكم من واقع فسادنا الشخصي على الفساد المتأصل في
الإنسان (٧٧) . وما نحن إلا عبثد شهواتنا ، وإذا قهرت شهوة منها
فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى (٧٨) ، « والعقل يستغله الوجدان
دائماً ، « والناس لا يشتهون شيئاً بلهمة إذا طلبوه انصياعاً لاوامر العقل
فقط (٧٩) ، « « وابسط الناس إذا أمانته العاطفة المشبوبة سينتصر أكثر من
أفصح الناس بدونها (٨٠) .

وفن الحياة يسكن في إخفائنا حب ذواتنا بقدر يسكن في تجنب إغصاب
حب الغير لذواتهم . وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار « إن النفاق ضرب
من الاحترام الذي تقدمه الرذيلة للفضيلة (٨١) . واحتقار الفيلسوف
للمزعم للثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقة في الترويج لبضاعته .
وما الصداقة « إلا تجارة لا يفتأ حب الذات يطلب الكسب من ورائها (٨٢) »
وقد نقيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد في نكبات أصدقائنا شيئاً ليس كله

مسيئاً (٨٣) . ونحن نبادر إلى الصفح عن أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا عن أسأنا إليهم ، أو عن تفضلوا علينا — فأثرونا — بمخدراتهم (٨٤) . والمجتمع حرب بين الفرد والكل . « والحب الصادق أشبه الاشباح — شيء يتحدث عنه كل انسان ولكن نادرا ما رآه أحد (٨٥) » ، و « ما كنا لنقع في الحب قط لولا سماعنا الناس يتكلمون في الحب (٨٦) » . ومع ذلك فالحب إذا كان صادقا تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتي عرثن الحب مرة ضحيقات القدرة على الصداقة ، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى الحب (٨٧) ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريبا إلا وهن في الحب « قد تلقى نساء لم يسبق لهن غرام قط ، ولكن من العسير جدا أن تجد نساء لم يقمن إلا في غرام واحد لا أكثر (٨٨) » . « وأكثر النساء المحصنات كالسكنوز المخفأة ، التي لم تكن في مأمن إلا لأن أحدا لم يفتش عنها (٨٩) » .

وكان هذا السكبي العليل عليا بأن هذه الحكم البارة ليست وصفا منصفيا للبشر . لذلك راح يتجنب الجزم في الكثير منها بألفاظ مثل « تكاد » أو « تقريبا » إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية ، وقد اعترف أنه « أسهل أن يعرف المرء النوع الإنساني عموما من أن يعرف انسانا واحدا بالذات (٩٠) » ، وسلمت المقدمة بأن أمثاله لا تصدق على « المحظوظين القلائل » الذين سرت السماء بأن تحفظهم . . . بنعمة خاصة (٩١) . ولا بد أنه سلك نفسه في زمرة هؤلاء القلائل ، لأنه كتب : « انني أخلص لأصدقائي إخلاصا لا أتردد معه لحظة في التضحية بمصالحى في سبيل مصالحهم (٩٢) » . — ولو أنه كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد في بذل مثل هذه التضحية لذة أكثر مما يجده في منعها . وقد تحدث بين الحين والحين عن « عرفان الجميل ، فضيلة العقول الحكيمة السمحة (٩٣) » ، و « الحب ، النقي الذي لا تشوبه شهوة (إذا وجد إطلاقا) ، الذي يكمن في أعماق قلوبنا (٩٤) » . ومع أنه يمكن القول ، بقدر كبير من الصدق . . . ان الناس لا يفعلون شيئا دون

١٦ — قصة الحضارة

مراعاة لمصلحتهم ، إلا أنه لا يستتبع هذا ان كل ما يفعلونه فاسد ، وأنه لم يبق في الدنيا شيء اسمه العدالة أو الأمانة . فالداس قد يحسكون أنفسهم بوسائل شريفة ، ويختطون (لأنفسهم) مصالح كلها الخير والنبل (٢٠) .

وقد ألأت الشيخوخة جاب لاروشفوكو ، حتى وهي تزیده شجنا على شجن . ففي ١٦٧٠ ماتت زوجته بعد ثلاثة وأربعين عاما من الوفاء الصابر ، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال ، وقامت على تمرضه طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة . وفي ١٦٧٢ ماتت أمه ، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة . وفي تلك السنة جرح اثنان من أبنائه في غزوة هولندية ، ومات أحدهما من جروحه . كذلك سقط في نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعى الذى ولدته له مدام دلوينجفيل ، والذى لم يؤذنه بأن يطالب به ابنا برغم أنه أحبه حبا عميقا . روت مدام دسفينييه « رأيت لاروشفوكو يسكى في حنان جميل أعبدته (١٩٦) . ترى أكان حبه لأمه وأولاده حبا لذاته ؟ أجل ، إذا نظرنا إليهم على أهم جزء من ذاته وامتدادا لها . وهذا هو التصالح بين الإيثار والآثرة — فالإيثار توسيع للذات ، ولحبة الذات ، للأسرة ، أو الأصدقاء ، أو الجماعة . وفي وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمحة الشاملة .

ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكو سطحية قوله « ان فضل القليل من النساء يدوم أطول من جملهن (٢٧) » . لقد كانت أمه وزوجته استثنائين ، ولم يسكن من السكرم تجاهل آلاف النساء اللاتي ضيعن جملهن الجسدى في خدمة الرجل والأطفال . وفي ١٦٦٥ بذلت له امرأة ثالثة معظم حياتها . ولا شك في أن مدام دلافايت أرضت قلبها هي وهي تحاول أن تسرى عنه . فلقد كان يومها في الثمانية والخمسين ، يشكو النقرس ونصف العمى ، أما هي فكانت في الثالثة والثلاثين ، محتفظة بجمالها ، ولكنها عيلة تشكو حمى الملاريا . ولقد روعها ما في امثاله من كلبية ، ولعل فسكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقى والتسرية عنه خالطت رأيها فيه ، فدعته الى بيتها في باريس ،

نجاه محمولا على محفة ، فمصبت قدمه المزعجة ووسدتها ، وأتت بأصحابها ، ومنهم مدام دسفينيه المتدفقة العاطفة ليساعدها في الترويح عنه . وعاد إليها ثانية ، وكثرت زيارته حتى لغطت بها باريس . ولا علم لنا هل دخلت في هذه الزيارات الألفة الجنسية ، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً في علاقة أصبحت تبادلاً بين الأرواح . قالت « لقد اعطاني الفهم ، ولكنني أصلحت قلبي » (٩٨) . ولعله ساعدها في روايتها « أميرة كليف » وان بعدت رقتها وحنانها عن قسوة « أمثاله » بعد السماء عن الأرض .

وبعد أن إماتت مدام داروشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية ضرباً من الزواج الروحي ، وفي الأدب الفرنسي صور كثيرة لهذه المرأة القصيرة الضعيفة الجسد ، تجلس في هدوء إلى جوار الفيلسوف المعجوز الذي أقعده الألم عن الحركة . قالت مدام دسفينيه « لا شيء يمكن أن يقارن بسحر صداقتهم وثقتها » (٩٩) . وقال بعضهم ان المسيحية تبدأ حيث ينتهي لاروشفوكو (١٠٠) ، وقد تبينت صحة القول في هذه الحالة ، ولعل مدام دلافاييت المصادقة الورع أفنعت به أن الدين هو الكفيل بالإجابة عن مشكلات الفلسفة . ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن يناوله الأسرار المقدسة الأخيرة (١٦٨٠) . وقد عمرت صديقته بعده ثلاثة عشر عاماً حامله بالألم .

٩ — لارويير ١٦٤٥ — ٩٦

بعد موت لاروشفوكو بنمانية أعوام أكد جان دلابرويير تحليله الساخر للآدميين من أهل باريس . وكان جان ابن موظف صغير في الحكومة . درس القانون ، واشترى وظيفة حكومية صغيرة ، وأصبح معلماً خاصاً لحفيد كونديه العظيم ، وخدم أسرة كونديه وصيفاً ، وتبعها إلى شافيتي وفرساي . وقد ظل أعزب إلى نهاية حياته .

وقد عذبتة حدة الفوارق الطبقيّة في فرنسا لما فطر عليه من حساسية

وحياة ، ولم يستطع الاستماعة بمظاهر الغرور الطيبة التي ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفي البلاط ، وذلك رغم انتمائه الى الطيفه الوسطى . وقد لاحظ معرض الوحوش الملكى بعين معادية نفاذه ، وانتقم منها بوصفها فى كتاب صب فيه كل عصارته الفكرية تقريبا ، وقد سماه « الاخلاق لتيوفراست مترجمة عن الاغريقية » ، مع اخلاق أو طادات هذا العصر . وأصبح الكتاب حديث باريس . لانه صور تحت أقنعة شفافه أشخاصا مشهورين فى المدينة أو البلاط ، وجعل كلا منهم يحدد المتعة البالغة فى فضح الباقين . ونشرت « مفاتيح » للكتاب تزعم انها تطابق الصور مع اصولها ، واحتج لاىروبير بأن أوجه الشبه طارئة ، ولكن أحدا لم يصدق ، وذاع صيته ، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف فى ١٦٩٦ ، وقد اضاف الى كل طبعة « أخلاق » جديدة تبينت فيها باريس مرآة العصر .

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدولنا مادته هزيلة بعض الشيء ، وأفكاره قديمة مبتذلة ، وروحه يشوبها بعض الحسد ، ومجاؤه سطحيا جدا ، كهجائه لمينا لكاس الرجل الشارد الذهن (١٠١) . ولا يطلب لاىروبير أى تغيير فى دين فرسا أو حكومتها . وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء ، والا لكان الثور على الخدم عسيرا ، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض ، والخوف من الفقر لاغنى عنه لانتاج الثروة (١٠٢) . وكان يسلك بوسويه فى عداد أصدقائه مفاخر بذلك ، وقد أمد فى القسم الأخير من كتابه (« فى أحرار الفكر ») الحجج التى أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم افضل ونثر أرفع ، وردد البراهين التى ساقها ديكارت عن الله والخلود ، واستشهد بشيء من الحذق ، فى رده على اللأدربيين فى زمانه ، بنظام السماوات وجلالها ، وعلامات الهدف المرسوم فى الكائنات الحية ، والاحساس بتقرير المصير فى الارادة وباللامادية فى الذهن . وهاجم غرور النبلاء ، وجشع رجال المال ،

وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون الى لويس لا الى المذبح في كنيسة
فرساي ، ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر يتقى بها
غضبه (١٠٣) . وفي فقرة واحدة على الأقل ازاح الحذر جانبا وتسامى
في جرأة ليصف درك الهيمية الذي تردى فيه ولاحو فرنسا من جراء
حروب الحكم وضرائبه . يقول : « انتشرت في أرجاء الريف حيوانات
ضارية ، ذكور واناث ، سوداء ، ممتعة ، أحرقها الشمس تماما ، والتصقت
بالأرض التي تحفرها وتقلبها في اصرار لا يقر ، ولها ما يشبه الصوت
المنطوق ، فاذا انتصبت على قوائمها بدت في صحنه البشر ، والواقع انها
ناس من الناس (١٠٤) » .

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب في عصر فرنسا الكلاسيكي .

١٠ — مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام ، بعد أن أصابنا الاعياء ، في ملحق هياب
بعض الخالدين الذين بدأوا يموتون ؟

هناك جان شابلان ، الذي أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية ،
واعتبر في زمانه (١٥٩٥ — ١٦٧٤) أشعر شعراء فرنسا . وهناك جان
باتيست روسو ، الذي كتب شعرا ينسى ، ولكنه كتب أيضا إنجازات
مقدعة جرت عليه النفي من فرنسا (١٧١٢) عقابا على تشهيره بالأشخاص .
وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات ، فرأينا
مذكرات دريتر ولا روشفوكو ، وسنرى في موضع لاحق مذكرات
سان — سيمون . ويلى أولئك مرتبه تلك المجلدات الثلاثة التي سجلت
فيها مدام دموتفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها اللتنتين والعشرين التي
قضتها في بلاط آن النمساوية . ونلاحظ أنها وافقت لاروشفوكو على رايه
اذ كتبت « ان تجربتي القاسية في صداقة البشر الواقعة أكرهتنى على
الايمان بأنه ليس في الدنيا شيء أندزم من الأمانة والاستقامة ، أو من

القلب الطيب القادر على عرفان الجليل (١٠٥) . « لقد كانت هي هذا الانسان النادر الوجود .

وقد حقق روجيه درابوتان ، كونت بوسى ، نجاحا فى دليا الفضائح بكتابه « تاريخ غراميات الغاليين » (١٦٦٥) الذى وصف غراميات معاصريه مستخفية وراء قدامى الغاليين . وغضب الملك لكونه سخر فيها من مدام هنرييتا ، فزج به فى الباستيل ، ثم افرج عنه بعد سنة شريطة أن يعتكف فى ضيعة ، وهناك ألف « مذكراته » النابضة بالحياة ، والفيظ يبريه إلى نهاية حياته . وأقل من هذا الكتاب جدارة بالتصديق كتاب « الأناصيص » الذى رسم فيه تالمان دى ريو صورا موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة فى الأدب أو الغرام . وقد جاهد كلود فلورى ، بكتابه الامين « التاريخ الكنسى » (١٦٩١) ، وسباستيان تيلمون بكتابه « تاريخ الأباطرة » (١٦٩٠ وما بعدها) ، وكتابه « مذكرات ينتفع بها فى التاريخ الكنسى للقرون الستة الأولى » (١٦٩٣) ذى الستة عشر مجلدا — هذان جاهدان فى معاناة ، ودون وعى منهما ، ليمهدا الطريق وينقياه لكتاب جييون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦ وما بعدها) .

ثم هناك أخيرا شارل دماركيتيل شريف سات — افريمون الذى كان ألطف تلك « العقول القوية » التى صدمت الكاثوليك والهييجونوت ، واليسوعيين والجائسين على السواء ، بالتشكك فى التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك . وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصا الماريشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقا لفوكيه وناقدا لمازاران . فلما نعى إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندا ، ثم إلى إنجلترا (١٦٦٢) . وقد جعلته عاداته المهدية وذكاؤه الشكك أثيرا فى صالون هورتزى مانشيني بلندن ، وفى بلاط تشارلز الثانى . وكان كالماريشال دو كسكور ، فى واحد من أكثر حواراته مرحا (١٠٦) ، يحب الحرب أولا ، ثم النساء ، ثم الفلسفة . وإذ رشف كل اللباهج التى فى مونتيني ، ودرس أبيقور مع جاسندى ، فقد

خلص مع الاغريق للمغترى عليه إلى أن لذة الحس طيبة ، ولكن لذة السكر
أطيب ، وأنه لا داعى يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها
بنا . وقد بداله الأكل الطيب والكتابة الجيدة مزيجا محقولا . وفي ١٦٦٦
زار هولنده ثانية ، والتقى بسبينوزا وتأثر تأثرا عميقا بالحياة المسيحية التي
كان يحياها اليهودى القائل بوحدة الوجود (١٠٧) . وقد أتاح له معاش أجرته
عليه الحكومة الإنجليزية ، بالإضافة إلى ما استنقذه من فضلات ثروته ،
أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة ، كلها بأسلوب خفيف رشيق
شارك في تكوين فولتير . وقد أعان كتابه « تأملات في مختلف أجناس
الشعب الرومانى » مونتكسكيه ، وشاركت رسائله إلى نيتون دلائسكو بجزء
من ذلك العبير الذى يتضوع خلال الرسائل الفرنسية . ولما بلغ الثامنة
والخمسين ، ودون وعى منه بأنه سيعمر اثنتين وثلاثين سنة أخرى ، وصف
نفسه بأنه مقلقل بصورة لاشفاء له منها . « اننى لولا فلسفة مسيود يكارث
التي تقول أنا أفكر فإذا أنا موجود لما صدقت اننى موجود ، وهذا كل
ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير (١٠٨) » وقد كاد ينافس فونتينيل
في طول عمره ، إذ لم يمض إلا عام ١٧٠٣ بمعد ان بلغ التسعين ،
وقد نال تشريفا ندر ان حظى به فرانسى ، وذلك هو دفنه فى دير
وستمنستر .

كتب فردريك الأكبر إلى فولتير : « بعد قرون سيترجمون الكتاب
المجيدى فى عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركليس
وأوغسطس » . وقبل أن يموت الملك بسنين طويلة شبه الكثيرون من
الفرنسيين فى العصر وأدبه بخير ما أنتج القدماء فى الفنون والآداب . وفى
١٦٨٧ قرأ شارل بيرو (أخو كلود بيرو الذى صمم من قبل واجهة الاوفر
الشرقية) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها « قرن لويس العظيم » رفع
فيها العهد فرق أى حقبة فى تاريخ اليونان أو الرومان . ولكن بوالو
الناقد المجوزابرى للدفاع عن القدامى رغم ان بيرو سلكه فى زمرة المعاصرين

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى ، فقال الأكاديمية ان من العار الاستماع إلى هذا اللغو . وحاول راسين ان يخمّد النار بزعمه أن بيرو كان (١١٠) يمزح ، ولكن بيرو أحس أن لديه موضوعا مجزيا . فماد إلى المعركة في ١٦٨٨ بـكتابه « نظائر القدامى والمحدثين » وهو حوار طويل حتى يؤيد تفوق المحدثين في العمارة والتصوير والخطابة والشعر - وذلك باستثناء الاثبات ، التي هي في رأيه أروع من الالفاظ أو الاوديسة أو أى ملحمة أخرى . وقد ناصره فونتنيل بذكاء وبراعة ، أما لا برويير ولا فونتين وفينيلون فوقفوا في صف بوالو .

لقد كان شجاراً صحياً ، عين نهاية نظرية « الانحطاط » المسيحية الوسيطة ، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة . وكان هناك اتفاق تام على أن العلم قد تقدم متجاوزاً أى مرحلة أدركها اليونان أو الرومان ، وحتى بوالو اعترف بهذا ، وسلم بلات لويس الرابع عشر في غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذي طور به في مارلي وفرساي . ولن نزعج أنشاقنا في هذه المشكلة ، فلنتركها الآن حتى نعرض كل جوانب هذا العصر في أوروبا بأسرها . ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كورني كان متفوقاً على سوفوكليس ، أو راسين على يوربيديس ، أو بوسويه على ديموستينيس ، أو بوالو على هوراس ، وما ينبغي أن نسوى بين الثور والبارثيون ، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس . ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المفاضلات تمبل المناقشة ، وان تلك المخاذج القديمة لا تمتنع على المنافسة .

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه « أكثر العصور التي شهدها العالم استنارة (١١١) » دون ان يتوقع أن عصره هو سيمى « عصر التنوير » . ولكن ينبغي أن نخفف من غلو هذا الاطراء . فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجهما في إلغاء مرسوم نانت الرحيم ، و « التنوير » كان وقفا على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وطبها سرفها الابيقورى أحيانا . والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بعقيدة العصر

الوسيط ، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يسكد أحد بحلم بها ، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة . لقد كان في عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد العبقرية قسطاً كبيراً مما كان في عهد الملك العظيم . إن العصر لم يكن له ضريب في الرقابة الملكية للادب والفن ، وفي خضوعهما للبليغ للملك . وقد بلغ الفن والآداب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة الفوفر ومسرحية اندروماك ، ولكنهما انحدرتا أحياناً إلى المبالغة في الفخامة والابهة كما نرى في قصر فرساي أو في بلاغة كورني في آخر إنتاجه . وكان يشوب المسألة والفنون الكبرى في هذا العهد بعض التكلف والافتعال ، فقد أفرط في الانكسار على النماذج اليونانية أو الرمانية أو نماذج النهضة . واتخذوا موضوعاتهم من عصر قديم دخیل لامن تاريخ فرنسا ودينها وطابعها ، وعبرا عن التعليم الكلاسيكي الذي حظيت به طبقة خاصة لاعتاد حياة الشعب وروحه . ومن ثم نجد مولير ولا فونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق ، لأنهما نسيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا . صحيح ان العصر الكلاسيكي نقي اللغة ، وصقل الادب ، وهذب الحديث ، وعلم العاطفة المشبوبة أن تفكر ، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسي (والإنجليزي) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم .

ومع ذلك كان عهداً عظيماً . فلم يشهد التاريخ من قبل حاكماً مثلاً هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون . لقد اضطلع لويس الرابع عشر الجانسينيين والهييجونوت ، ولكن في عهده كتب بسكال ، ووعظ بوسويه ، وعلم فينيلون . ولقد جند الفن ليعخدم به مآربه ومجده ، ولكن هذا الفن منج فرنسا بفضل تشجيعه روائع في العمارة والنحت والتصوير . ولقد حمى مولير من جيش من الخصوم ، وأزر راسين من مأساة إلى مأساة . ولم تسكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل ، ولا رسائل أفضل ، ولا نثراً أفضل ، مما كتبت في عهده . وهذا أعادت عادات الملك الملهمة ، وضبطه

لنفسه . وصبره ، واحترامه للنساء — أعانت كلها على انتشار الاداب المحببة والمجاملات اللطيفة في البلاط ، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوربا . ولقد أساء استعمال بعض النساء ، ولكن تحت حكمه بلغت النساء في الادب والحياة مقاما اضفى على فرنسا ثقافته ثنائيه الجنس يفوق جاهلها أى ثقافته أخرى في العالم . وبعد كل التحفظات ، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال الكثير لوثته هذه القسوة الكثيرة ، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات الفرنسيين في الأشادة بمصر لويس الرابع عشر بوصفه عمراً يقف على قدم المساواة مع اليونان في أيام بركليس ، والرومان في أيام أوغسطس ، وإيطاليا في أيام النهضة ، وإنجلترا في أيام اليزابيث وجيمس الاول . . . يقف مع هؤلاء جميعا قوة شامخة بين الشوامخ في مسار الإنسانية المتعثر .

الفصل السادس

مأساة في الأراضي المنخفضة

١٦٤٩ - ١٧١٥ *

شهد القرن الممتد من ١٥٥٥ إلى ١٦٤٨ الدفاع البطولي الذي قامت به الأراضي المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية ، أما الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧١٥ فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترا وجيوش فرنسا التي لم يسبق لها مثيل . وفي كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوءا مكاناً مرموقاً في التاريخ . وقد واصلت وسط هذه الأعباء والهجمات تطويرها للتجارة والعلوم والفنون ، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد ، وتحدث نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحدقة بها تحدياً ملهماً .

١ - الأراضي المنخفضة الأسبانية

ظلت الأراضي المنخفضة الجنوبية ، أو الأسبانية ، حتى ١٧١٣ خاضعة للحكم الأسباني وكانت شعوبها المختلفة سلالياً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد آثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التي حل بها الضعف ، إعن أن تخضع للبروتستانت الذين في شمالها ، أو لجارتها فرنسا التي هددت بابتلاعها في أي لحظة . وقد أعطى صلح البرانس (١٦٥٩) معظم أرتوا لفرنسا ، وأعطاهها صلح إكس لا شابل (١٦٦٨) دويه وتورنيه ، واصلح نيميغن (١٦٧٨) فالنسين وموبوج وكبرى وسانت أومير واير . ولم تكن الجمهورية

(*) أرجأنا تاريخ الأراضي المنخفضة السياسي والحربي بعد ١٦٨٨ إلى فصل

تال (الفصل ٢٤) .

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية . وبمقتضى معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) لم تكتف أسبانيا ، في حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا ، لم تكتف بأن تنزل الأقاليم المتحدة عن المناطق التي استولت عليها في فلاندر ، ولجيورج ، وبرابات ، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت في وجه التجارة الأجنبية . فأصاب هذا الإذلال الخائق أنتورب وكل اقتصاد الأراضي المنخفضة الأسبانية بالشال . « إن السياسة لا قلب لها » كما يقولون .

وفي داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التي نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة ، ورحبت باليسوعيين ، وتبعت قيادة لوفان العسكرية . ولما قصف الفرنسيون بروكسل بمدافعهم (١٦٩٥) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا ، ودمر كل المعمار البديع الذي ازدان به الميدان الكبير ، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفييل البديع ، وقد أعيد بناء « الميزون دورا » (الذي كان يقرأ فيه الخطاب الملكي على مجلس الطبقات) بطراز قوطي كثير الزخرف (١٦٩٦) ، وهو والأوتيل دفييل من أجمل العماثر في أوروبا اليوم . وقد أفاض النحاتون من فنهم على تجميل واجهات الكنائس والمباني المدنية ، والمنابر ، ومقاصير الاعتراف ، والمقابر التي بداخل الكنائس . وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع (١) .

واضح للصورير الفلمنكي اضمحلالا حادا بعد روبنز وفانديك ، وكأن حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقرية التصويرية لقرن كامل . واجتذب نهوض الفن في فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين . ولكن فنانا اعظم منه ، وهو دافيد تنييه الابن ، مكث في بلده . وكان أبوه قد تولى تعليمه ، فأصبح « معلما » في طائفة القديس لوقا الحرفية حين بلغ الثالثة والعشرين ، وبعد أربع سنوات (١٦٣٧) ضمن نجاحه بالزواج من آن بنت جان بروجل « المخملي » ،

والقاصر الموضوعة تحت وصاية روبرت ذاته . وفي ١٦٥١ دعاه الارشيدوق ليوبولد ولهم من أتتورب الى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكي ، وترينا احدى لوحات تنبيه الأشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف (٢) . وقد صور في براعة مترددة موضوعات قديمة كالابن الضال (٣) وتجربة القديس انطونيوس (٤) . ولكنه كعاصريه الهولنديين آثر أن يلتقط داخل اطرار صغيرة حياة الفلاحين ، لاهابطاهم الى درك الأنعام كما فعل بيتر بروجل ، بل مشاركايهم في رباضاتهم وأعيادهم . وأظهرت لوحته « داخل كاباريه » المامه بتفاصيل موضوعه (٥) ، ولكنه كان يستطيع أيضا أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التي تغير هيئتها سماء لا تسكف عن التغير . وقد أحب الضوء كما أحب رمبرات الظل ، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفقها رقة .

٢ - الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن في جمهورية عزيزة غافرة أثار غناها ونوسعها عجب جيرانها وحسد هم . فهنا أمة شذت على العرف ، إذ لم يكن لها ملك ، وكانت كل مدينة يحكمها في استقلال تقريبا مجلس من أعيانها ، وكل مجلس بلدى يوفد مندوبين لمجلس اقليمي ، وكل مجلس اقليمي يوفد ممثلين للمجلس التشريعي الذي يهيمن على ما بين الأقاليم من علاقات وعلى شئونها الخارجية . وكانت الى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية . ولكن قوة ارسقراطية واحدة وقفت أمام أولجركيه التجار هذه : ذرية ولهم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو ، الذي قاد البلاد في أحلك ايام كفاحها ضد أسبانيا ، وكان المجلس التشريعي قد كافأه بلقب رئيس الدولة وقيادة جيوشها ، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة ، وكانت الهيمنة على رجال الجيش الآن قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الاولجركية الى ملكية .

ارستقراطية . وفي يوليو ١٦٥٠ حاول وليم الثالث أمير أورنج ، بوصفه رئيسا للدولة وقائدا عاما ، أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب . فقاومه عدة زعماء اقليميين ، واودع وليم وجنده ستة منهم في السجون ، ومنهم يعقوب دى ويت عمدة دوردرشت . ولكن الجدرى هزم وليم في انتصاره ، فمات في ٦ نوفمبر ١٦٥٠ غير متجاوز الرابعة والعشرين : وبعد أسبوع ولدت أرملته ماري ستيوارت (ابنة حفيدة آخر ملكة للاسكتلنديين) الطفل وليم أورنج الثالث ، الذى قدر له أن يحقق فوق ما حلم به أبوه ، اذا أصبح ملكا على انجلترا .

اما الزراع وصيادو الاسماك الأدنى من هذه الطبقات الحاكمة المتناقسة ، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب ، فلم يشاركوا الا في فضلات ثرائها التى لم يعبأ بالتهاهما التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض . واذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طحنا الفلاحين بفقر كاد يقربهم من حياة البهائم ، فقر خففت منه الأعياد وخرده اشراب . وكان الحرفيون في حوائيتهم ، والعمال في مصانع امستردام وهارلم وليدن ، أعلى أجورا من نظرائهم في انجلترا (٦) ، ولكنهم قاموا باضراب عنيف في ١٦٧٢ . واثرى المهاجرون الهيجونوت الوافدون من فرنسا الصناعة الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم . فلم تأت سنة ١٧٠٠ حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الامة الصناعية القائدة في العالم .

اما اعظم الثروات فجاءت بها التجارة مسع أقطار ما وراء البحار وتطورها . ففي ١٦٥٢ استوطن الهولنديون أول مستعمرة لهم في رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينة السكاب . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع ارباحا لمساهميها بلغت نسبتها في المتوسط ١٨ ٪ طوال ١٩٨ عاما (٧) . وكان الوطنيون في المستعمرات الهولندية يبيعون او يشتغلون عبيدا ، أما المستثمرون في أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا الا قليلا ، وأخذوا ارباح أسهمهم بهدوء هولندي . وظلت التجارة

الخارجية الهولندية حتى ١٧٤٠ تفوق تجارة أى أمة أخرى (٨) ، ومن بين عشرين ألف سفينة كانت تنقل تجارة أوربا في ١٦٦٥ ، كانت خمسة عشر ألف هولندية (٩) . وأجمع الناس على أن تجار هولندا وماليها أ كفاً من انجبه ذلك العصر . وكان بنك أمستردام قد استنبط ماليا كل تقنيات المالية العصرية ، وقدرت ودائمه بما يعادل الآن مائة مليون دولار (١٠) ، وكان في الامكان أن تسوى فيه حسابات تصل الى الملايين في ساعة واحدة ، وبلغت الثقة بقدرة الهولنديين المالية وامكان الاعتماد عليهم مبلغا يسر للجمهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أى حكومة أخرى ، وقد تهبط الفائدة أحيانا الى ٤ ٪ (١١) . ولعل أمستردام كانت أكثر مدن أوربا في هذا العصر جمالا وتحضرا . وقد رأينا ثناء ديكارت عليها ، وكذلك تحدث عنها سبينوزا (١٢) . ويمثل هذه الحماسة تحدث بيبس عن لاهاي « مدينة غاية في النظافة من جميع الوجوه ، بيوتها أنظف ما يستطاع في كل أماكنها ومحتوياتها (١٣) » .

ولولا طبيعة البشر لكانت هذه الأقاليم الرخية جنة في الأرض ذلك أن نراها أغرى إنجلترا وفرنسا بالهجوم عليها ، وقد أفضى الصراع على السلطة في الداخل الى مأساة جان دي ويت ، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينية شعبا لطيفا في غير هذا ، وبعثت الخصومات العنيفة . ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حيثما استطاعوا منعها . وفي ١٦٨٢ ، وضع مجمع دورت (الدوردريشت) اعترافا بالكلفنية القديمة . ربما انتقاما من الغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والا طرد ، وعين بيير جوريو وهو هيجونوتي فرنسي سابق — ليرأس محكمة تفتيش كلفنية ، واستدعى المهرطقين ، وحاكمهم ، وحرهم ، واهاب به « الذراع الدينوية » (السلطة الزمنية) أن تزج بهم في السجون . ولكن هرطقة أرمنيوس نمت رغم ذلك ، واجتأرا الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على الكثرة من بني البشر الهلاك في النار .

الأبدية ، ووجدت المذاهب المنشقة — مينوئين ، وكلين (من آوا سبينوزا) ولو سيائيين ، وتقوين ، وحتى التوحيديين — هؤلاء جميعا وجدوا أن في إمكانهم العيش في هولندا بين ثغرات القانون وغفواته . وكان السوسينيون قد انضموا في الأقاليم المتحدة ملاذا من الاضطهاد في هولندا ، ولكن عبادة التوحيديين حرمت بقانون هولندا في ١٦٥٣ . ونشر دانيال زفيكر بأستردام في ١٦٥٨ رساله تشككت في ألوهية المسيح ، وأخضعت الكتاب المقدس لـ « عقل البشرية العام » ؛ ومع ذلك استطاع أن يموت في هدوء وسلام كما يموت الجزالات . على أن رجلا يدعى كيرباج حكم عليه في ١٦٦٨ بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كهذه ، ومات في سجنه . وقد سجن أوريان بيفرلاند لإلماعه الى أن خطيئته آدم وحواء الأصلية كانت الاتصال الجنسي ولم تمت للتفاح بسبب .

وازداد التسامح الديني قرب ختام القرن السابع عشر . ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، ويقتحون موانئهم وسوقهم المالية لتجار يدينون بديانات كثيرة أولاد يدينون بأي دين ، هؤلاء الهولنديون وجدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضربا من التسامح كان ، رغم ما شابه من نقص ، أرحب بكثير منه في أي بلد مسيحي . ومع أن الكلفتيين كانوا الغالبين سياسيا ، إلا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغا جعل قعهم امرا غير ممكن عمليا . أضف الى ذلك أن السيطرة الاجتماعية والسياسية التي كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس — كما قال اسروايم قبل — أقل نفوذا بكثير من الإكليروس في الدول الأخرى . وطالب المهاجرون من أقطار أخرى ، الذين أسهموا بقسط في الاقتصاد أو الثقافة ، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به . وحين استولى كرومويل على السلطة في إنجلترا التمس أنصار الملكية فيها السلامة في هولندا ؛ ولما رد تشارلز الثاني الى العرش ، التجأ الجمهوريون الانجليز الى الجمهورية الهولندية . ولما اضطهد لويس الرابع عشر الهيجواوت فر بعضهم الى الأقاليم

المتحدة ، ولما خشي لوك وكولنز وبيل الاضطهاد في إنجلترا أوفرنسا ، وجدوا الملاذ في هولنده ؛ ولما حرم مجمع أمستردام البرتغالى (اليهودى) سبينوزا ، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون ، ورتب له جان دى ويت معاشا . وأصبحت هولنده الصغيرة « مدرسة أوروبا (١٥) » فى التجارة والمال والعلم والفلسفة .

ولولا ما أتيج لهذه الحضارة من حرية دينية ، ومن علم وأدب وفن ، لأصبحت حضارة مادية الى حد محزن . وسنلتقى فى فصل لاحق بهويجنس وغيره عن العلماء الهولنديين . وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون ، ولكن لغتهم حصدت من شهرتهم . وقد حفلت المدن الهولندية بالكتب والناشرين . وبينما لم يكن فى إنجلترا سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن واكسفورد ، وفى فرنسا باريس وليون ، كان فى الاقاليم المتحدة مراكز فى أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاي ، تطبع الكتب باللاتينية واليونانية والالمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية . وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمئة دار تطبع الكتب وتنشرها وتبيعها (١٦) .

ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى . وطلع ساكنو المدن الهولنديون ، الذين عروا كنائسهم البروتستانتية من الزخرف ، خلعوا على نسائهم وبيوتهم الزينة التى انتزعوها من بيوت الرب . فاسترضوا زوجاتهم بالخمسل والحريز والجواهر ، ونشروا على موائدهم صحاف الذهب والفضة ، وزينوا جدرانهم بالنسيج المرسوم ، ورفوفهم أوصواوينهم بالخزف أو الزجاج المحفور . وفى ديفات كان الخزافون الهولنديون بعد عام ١٦٥٠ ، الذين استوحوا الخزف الصينى واليابانى ، يصنعون فخارا مزججا . أكثره أزرق على قاعدة بيضاء ، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عارية عرى التزمت الصارم . وقل أن وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور

الصغيرة التي جعلت حلم المسكن الهادئ النظيف ، وبهجة الأشجار والأزهار والجداول ، قريبي المنال على جدران البيوت .

٣ - ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولي للتصوير الهولندي قد ولى . فالرأى الحددا أكثر نفرا ولكنهم أقل مالا ، لذلك طلبوا صورا صغيرة تتبجح لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية في خلاصة مقطرة مهيبة ، منفولة بواقعية تبعث لذة التعرف ، أو ملهوسة بعاطفة رقيقة ولكنها مالوفة ، أو مغرية للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة . وقد لبى المصورون الهولنديون هذا الطلب في رهادة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق في حين صغير . وهؤلاء الفنانون معروفون في جميع أرجاء أوروبا وأمريكا ، لأن التنافس اليائس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلا متدفقا سريعا من الصور الصغيرة بضمن رخيص ، وهي صور لا تخلو اليوم منها جدران متحف . ونحن اذ نترك الشهادة على وفرة هؤلاء الرسامين لها مش سريع ^(١) ، نراه لزاما أن ننظر نظرة أكثر تربثا الى جان ستين ، المرح رغم حفظه العائر ، والى أعظم مصوري الحياة اليومية جان فرمير ، والى أعظم مصوري الطبيعة الهولنديين ، يعقوب فان رويسدال .

* نيقولا هيرشيم : الفلمة في الغاية (درسدن) . فريدناند بول : يعقوب أمام فرعون (درسدن) ، جيرارد دو : عجوز في النافذة (فيينا) . بارنت فايرتوس : يعقوب وبينيامين (شيكاغو) . بارتليموس فان در هيلست : عمدة هولندي ، (نيويورك) . بيترمى هوخ : داخل بيت هولندي (لندن) . فيليب دي كونيكنك : منظر طبيعي (فرانكفورت) . نيقولا مايس : عجوز تفزل (امستردام) . جابريل ميثسو : سوق الخضار (لندن) . فرانس فان ميريس الأول : صورة ذاتية مع زوجته (لاهاي) . وليم فان ميريس : التعرف على برسورا (درسدن) . ابرت فان درنر : منظر مقرر (برلين) . جيرار ترپورس : عشاق الموسيقى (لندن) . أدريان فان دوك : المزرعة (برلين) . وليم فان درفلد الثاني . زويدرزى (برلين) . جان فينكس الثاني : منظر صيد (لندن) . أدريان فان درفرف : طرد هاجر (درسدن) . فيليب فان فرمان : وقفة جاهدة سيد (دولفس) .

أما ستين فكان ابن صانع جمعة في ليدن ؛ واشتغل في لاهاي ، وديلفت ، وهارلم ، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة في ليدن ، وخلال هذه الفترات استطاع أن يجمل من نفسه أفضل مصور الأشخاص في الفن الهولندي باستثناء رمبرانت . وحين بلغ الثالثة والعشرين (١٦٤٩) تزوج مارجريت ابنة المصور جان فان جوين ؛ ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها ، ولسكنهما أطفاله بعض الوقت نموذجين ملهمين . وكان ينقد أجرا حقيرا على صوره حتى أن صيدليا حيز (١٦٧٠) على كل الصور التي استطاع أن يجدها في بيت ستين وباعها بالمزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدبنات . وصوره الأولى تسجل لذات السكراء وعقوباته . وصورته « الحياة المنحلة » (١٠) ، وهي مثال ممتاز من صوره ، فيها امرأة نعسانة وأخرى نائمة من الشراب ، وطفل ينهز الفرصة فيسرق من صوان ، وكلب يأكل من المائدة ، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانة في غظة عن خطيئة شرب الروم ، وكل شيء في الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن وانسجامه رغم أنه يصور الفوضى . وموضوع أجل من هذا يبعث الحياة في صورة أخرى له أسيئت تسميتها بـ « معرض الوحوش » (١٨) ، يرى فيها فتاة صغيرة تطعم حملا باللبن ، ودجاج الحديقة يشب هنا وهناك ، وطاووس يدلى ذيله من شجرة ذابله ، والحمام يحط في أعلاها ، ويمامة تحلق قادمة من الطريق . هذا كله لحن رعوى يجعل جميع معضلات الفلسفة تبدو تافهة لاعمى لها . انه الحياة ، وكل جزئه مبرره الكافي الذي يتجاهل المطلقات . وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية ؛ باطن بيوت مبهجة ، ودروس موسيقى ، وحفلات موسيقى ، ومهرجانات ، وأسر سعيدة ، والفنان نفسه ، يدخن في « الصحبة المرحية » (١٩) ، أو يعزف على العود (٢٠) . فلما فتت في عضده الأجور البهيسة التي نقدها على عمله ، عاد الى بيع الجمعة ، وراح يشرب لينسى ، ثم مات في الثالثة والخمسين غلما أربعمائة صورة باثرة .

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا وممها « رأس فتاة » (٢١) تسكشف عن عالم وفن يكادان يناقضان عالم ستين وفنه . وهذه الثؤلثة التي يفوق ثمنها اللالىء بيعت بالمزاد عام ١٨٨٢ بجولدين ونصف ، ويقدر ناقد قدير في أيامنا هذه أنها « واحدة من اثنتى عشرة صورة هى أروع صور العالم (٢٢) » . وواضح أن الفتاة من بيت طيب وأسرة كريمة ، عيشتها خاليتان من الخوف ، لا يغشاهما حتى دهمش الشباب الطبيعي ، فهى سعيدة فى هدوء ، متيقظة لموسيقى الحياة ؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنعة دقيقة فى اللون والخط والضوء تجمل من الفرشاة أداة مدهشة للفهم والتعاطف .

وقد ولد فرمير فى ديلفت عام ١٦٣٢ ؛ وحاش هناك على قدر علمنا طوال حياته ومات فيها (١٦٧٥) بالغاً الثالثة والأربعين ، وكاد يكون معاصراً لسبينوزا تماماً (١٦٣٢ — ٧٧) . تزوج فى العشرين ، وأنجب ثمانية أطفال ، وكان يتقاضى ثمناً طيباً على صورته ، ولكنه عكف عليها فى عناية مستنفدة للوقت ، وأنفق المال الكثير على شراء الصور ، حتى إنه مات مديناً ، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محكمة التعماليس . غير أن الأربع والثلاثين صورة التى بقيت من صورته توحى بحو من رفاهية الطبقة الوسطى . وتظهره إحداها (٧٣) فى مرسمه لابساً طاقية رقيقة خفيفة ، « وجركية » متعددة الألوان ، وجوارب طويلة متجمدة ولكنها حريرية ، وقد اشتفخ ردفاه من النعمة . ولا ريب فى أنه سكن حياً راقياً فى ديلفت ، ربما فى مشارفها حيث استطاع أن يلتقى « نظرة على ديلفت (٢٠) » وفى هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجلم لموطنه . ويبدو أنه راض نفسه على البقاء فى بيته بقناعة أكثر مما نلاحظه فى مصورى زماننا . فخب البيت يتجلى فى أكثر التصوير الهولندى ، ولكن البيت فى فن فرمير يصبح معبداً صغيراً ، والزوجة معترزة بالخدمات التى تؤديها . وفى لوحته « للسبح مع مريم ومرثا » (٢٥) تشارك مرثا مريم فى الجلوس على المنصة . ولم تعد نساؤه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التى نراها أحياناً فى الفن الهولندى ، ففهيْن شىء

من التهذيب والحساسية . بل لقد نجدهن — كما ترى في السيدة الجليلة في صورة « السيدة والخادمة » (٢٦) — فاليات اللباس ، رقيقات القمصان ، مصنفات الشعر في عناية ، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى ، كما في صورة « السيدة الجليلة إلى العذراوية » (٢٧) (آلة موسيقية) . إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحمة ، أو قصيدة غنائية ذات لحظات عائلية بسيطة طبيعية ؛ لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعدد ، بل — في أفضل ما رسم من لوحات — امرأة واحدة فقط ، تقرأ رسالة في هدوء (٢٨) ، أو تكب على خياطتها (٢٩) أو تتحلى بقلادة ، أو تنام على خياطتها (٣٠) ، أو مجرد صبية وابتسامتها (٣١) . لقد سجل فرمير بن كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد . ولكنه أوشك أن يكون نسياً منسياً في القرن الثامن عشر ، ونسبت روايته الصغيرة إلى دى هوخ ، أو تيربورخ ، أو رمبرانت ، ولم يبعث من مثواه إلا في ١٨٥٨ . واليوم لا يعلمو على اسمه غير اسم رمبرانت وهالس في التصوير الهولندي .

بقي شيء واحد تفتقده في هؤلاء المصورين للحياة اليومية — هو حياة الطبيعة التي أحاطت بالمدن المتطفلة عليها . فإيطاليا ، وبوسان في إيطاليا ، كانا قد التقطتا شيئاً من الهواء النقي والحقول الطالقة ، وستكتشفهما إنجلترا في القرن التالي ، أما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنهم النظيف أو المرح ، ووضعوا حواملهم ليقتنصوا سحر الغدران المترفقة ، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة ، والمزارع المزهرة ، والأشجار التي تعجّل تعجلنا المحموم ، والمراكب الغريبة تنهادى في الثغور المزدهرة ، والسحب التي تلون السماء بشتى الأشكال . والعالم كله يعرف لوحة « طريق ميدلهارنس » التي رسمها ماينديرت هويما — وهي منظر يتلاشى في فضاء لانهايه له ، ولكن أجمل منها بكثير لوحته « طاحونة المساء ذات السقف الأحمر الكبير » (٣٢) . وقد وجد ألبرت كوبب الإلهام في الأبقار السمينة تخوض المستنقعات الوافرة الخضرة (٣٣) ، وأخيل تقف ظامئة عند خان ، وفلوع

المراكب تختفي فوق البحر (٣٤) . ومعجب سليمان فان رويسدال من ارتعاش المياه التي تمكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمدينة) (٣٥) ، وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه .

أما ابن أخيه هذا ، واسمه بمقوب فان رويسدال ، فقد ترعرع في هارلم ، وترك لنا « منظرًا لهارلم » (٣٦) لا يقل وقعا في نفس الناظر عن لوحة فرمير « ديلفت » ، وبفضلها نقلا لتمعد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزحمة . ثم انتقل إلى أمستردام وأصبح عضوا في الاخوان المينونيين ، ولعل تصوفهم أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوي للطبيعة التي أحب أن يفنى فيها . وعرف أن تلك الحقول ، والغابات ، والسموات التي تعبد بالسلام ، تستطيع كذلك أن تدمر ، وأن للطبيعة نزوات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونة حتى أعتى الأشجار وأصلبها وتمزقها من جذورها ، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون في الأرض الطيبة ، وأن البرق قد ينفث ناره القاتلة على كل شكل من أشكال الحياة في لامبالاة حابثة . قصورته « مسقط الماء على الجرف » (٣٧) ليست أنشودة رعوية أنما هي ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يحطمها ويفرقها أو يرببها ، ولوحة « العاصفة » (٣٨) هي البحر يلطم عدوه اليابس في غضب ، ولوحة « الشاطئ » (٣٩) « لانصور شاطئًا للهو بل ساحلا كسدرته أمواج عالية تحت سماء مكفهرة ، ولوحة « الشتاء » (٤٠) « لاتعرض مرشح الترحلق ، بل كوخا حقيرا يرتجف تحت غيوم منذرة ، وحفره الرائع « أشجار البلوط » يجرد هامن وقارها ليرى أغصانها شعشاء أوطارية . وسيقانها وقد أنثنها اثر من القاسى بالجروح وشوه شكلها . ولوحة « جبانة اليهود » (٤١) هي ذاتها صورة للموت — أسوار متهدمة ، وشجرة تموت ، ومياه فيضان تجري فوق القبور . وليس مرده هذا كله أن رويسدال كان دائما مكتئبا ، ففي لوحة « حقل القمح » (٤٢) نقل باحساس عميق هدوء طريق ريفي ، وركة المحاصيل الوفيرة ، وفرحة الفضاء المتراعى . ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم ومناخهم قد افترقت عليهما صور رويسدال ، فلم ينقلوه عليها إلا أجرا بخسا .

وتركوا صاحبها يموت في ملجأ للفقراء . واليوم يضعه بعضهم في مكان لا يفضل فيه غير بوسان بين مصوري الطبيعة في جميع المصور (٤٣) .

تروة لا أحد لها في حجرة صغيرة — رمبرانت وهالس ، فرمير ورويسدال ، سبينوزا وهويجنس ، ترومب ودرويتز ، جان دي ويت ووليم الثالث ، كلهم في زمن واحد داخل حدود ضيقة ، يكادحون غير آمنين خلف الكتبان ، يصرون فنون السلم وسط نذر الحرب . تلك هي هولندية في القرن السابع عشر . و « ليست العبرة بكبر الحجم » .

٤ — جان دي ويت : ٦٢٥ - ٧٢

بعد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال والذهب والحرب . كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاء بأنفسهم ، فحاصيل أرضها لا تقيم أكثر من ثمن سكانها ، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات ، وهذان يعتمدان على بحرية قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية . وكان تفوق أسبانيا البحرية قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية ، ونشرت البحرية الإنجليزية التي ازدهاها النصر فلوغها فوق أرجاء مترامية من المحيط . ومالبت التوسع التجاري الإنجليزي أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية في الهند وجزر الهند الشرقية ، وأفريقيا ، وحتى في « استردام الجديدة » التي ستصبح نيويورك . وأحس بعض الإنجليز ، الذين لم تهدأ فيهم بعد حمية هوكنز ودريك ، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغي أن يحل محلهم بريطانياون جبابرة ، وأن هذا ميسور بنصر أو بصيرين بحريين . وقد ذكر إيرل كلارندون في تقرير له « أن التجار ألفوا الحديث عن الفائدة الكبرى التي يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين ، وعن سهولة قهرهم ، وعن حجم للتجارة التي يمكن أن ينقلها الإنجليز بعد ذلك » (٤٤) وراقت صكرومويل الفكرة .

ففي ١٦٥١ أقر البرلمان الانجليزي قانونا للملاحة يحظر على السفن الاجنبية أن تجلب لانجلترا أى بضاعة إلا ما ينتجه بلدها . وكان الهولنديون يشحنون إلى انجلترا حاصلات مستعمراتهم ، فتوقفت الآن هذه التجارة الراححة . وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل في القانون ، فلم يكتب الانجليز برفض الطلب ، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الانجليزية في «المياه الانجليزية» (أى جميع المياه بين انجلترا وفرنسا والأراضى المنخفضة) اعترافاً بسيادة الانجليز على تلك البحار . وعاد المبعوثون الهولنديون بخفي حنين إلى لاهاي . وفي فبراير ١٦٥٢ استولى الانجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدوها في «المياه الانجليزية» . وفي ١٩ مايو انتهى أسطول انجليزي بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندي بقيادة مارتن ترومب ، ورفض ترومب خفض علمه ، فهاجمه بليك ، وانسحب ترومب . وهكذا بدأت «الحرب الهولندية الأولى» .

وأوشكت انفصالية الأقاليم ، المفروض أنها متحدة ، أن تخرج عليها الدمار . ذلك أن الزطامة الحربية الموحدة التي أتاحها لها من قبل أمراء أورنج كانت قد انقطعت ، وأصبح المجلس التشريعي للولايات جمعية للمناقشة والجدل بدلا من أن يصبح دولة . أما الانجليز فكانوا يملكون حكومة قوية ممرزة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل ، وكان لهم بحرية أفضل ، وقد أوتوا جميع الميزات التي حبتهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة . فدمروا أساطيل الصيد الهولندية ، واستولوا على المراكب التجارية الهولندية ، وهزموا أمير البحر الهولندي درويتر تجاه ساحل كنت . وانتصر ترومب على بليك تجاه دنجيميس (٣٠ نوفمبر ١٦٥٢) ، ولكنهما مات في المعركة في يوليو التالي . وكانت نتيجة سنة واحدة من الحرب إثبات تفوق انجلترا بالبرهان الدائم . وكاد حصار الانجليز للساحل الهولندي يشل الحياة الاقتصادية في الأقاليم المتحدة . وأشرف الألوف سكانها على الهلاك جوعا وهددوا بالتمرد .

في هذه المرحلة الحاسمة التمسع اضطلع جان دي ويت بزعامة البلاد، وكان ينتمى إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق في التجارة والسياسة الهولنديتين . وقد انتخب أبوه يعقوب دي ويت عمدة على دوردرشت ست مرات . أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور ، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنييليس ، وانتقى بكرومويل في إنجلترا ، ثم استقر في لاهاي محامياً (١٦٤٧) . وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحداً من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن ولهم الثاني أمير أورنج ، رئيس الدولة ، رعية في توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم . فلما مات ولیم الثاني (١٦٥٠) رفض المجلس التشريعي قبول ابنه الذي ولد عقب وفاته خلفاً له ، ربما متأزراً في ذلك بإقامة إنجلترا حكومة جمهورية فيها (١٦٤٩) بصورة بدا أن التوفيق حالها ، وألغى منصب رئيس الدولة . وأصبحت المسرحية الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التي يمثلها دي ويت ، والروح الأرستقراطية العسكرية التي أزعج أن يحياها بعد قليل الشاب المتحمس ولیم الثالث .

وفي ٢١ ديسمبر ١٦٥٠ ، انتخب جان دي ويت — وهو لا يزال في الخامسة والعشرين — كبيراً لولاية دوردرشت ، وممثلاً لها في المجلس التشريعي للأقاليم المتحدة . وفي فبراير ١٦٥٣ عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية ، وناط به مهمة عسيرة هي مفاوضة إنجلترا المنتصرة على الصلح . وكان كرومويل قاسياً لا يرحم ، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الانجليزية ويحيوا العلم الانجليزي في القنال الانجليزي ، وبأن يسلموا بحق القباطنة الانجليز في تفتيش السفن الهولندية في البحر ، وبأن يؤدوا رسوماً نظير امتياز الصيد في المياه الانجليزية ، وبأن يدفعوا تعويضاً عن قتل الهولنديين الانجليز في أمبوينا عام ١٦٢٣ ، وبأن يندحوا بصفة دائمة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أورنج — الذي قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسيرة ستوارت إلى عرش إنجلترا لما بينه وبينها من مصاهرة . وحذف

دى ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعى وكما تصدق عليها منه (٢٢ أبريل ١٦٥٤) ، ثم أقر المجلس التشريعى لاقليم واحد — هو اقليم هولندة — بقبول المعاهدة بما فيها هذا البند . ولم يغتفر له وللم الثالث فعلته هذه قط .

ثم وطد دى ويت مركزه بالزواج من وينديلا بيكر الغنية ، وأصبح عن طريقها صهرا لأمرأى التجارة فى أمستردام ، وبتأيسدهم شغلهم المناصب فى هولندة هو وأبوه ، وأخوه ، وبنو صومته ، وأصدقائه ، وسرطان ماقيبض على زمام الحكم كله فى الاقليم . وقبالت أقاليم أخرى زعامته على مضض ، لأن هولندة التى أغنتها موانئها كانت تدفع سبعة وخمسين فى المائة من نفقات الاتحاد ، وتقدم معظم الاسطول الهولندى ، ولم يكن محبوبا من جماهير الشعب . ولكن حكمه كان مستنيرا وكفوفا . فقد حد من النفقات الباهظة ، وخفض الفائدة على الدين انقدرالى ، وأجرى خفصا شاملا للأسطول ، وبنى سفنا أفضل ، ودرب عاملين جددا فى البحرية . واذ كان يعكس مشاعر التجار ، فانه كافح فى سبيل السلام . ولكننه استعد للحرب . وفى ١٦٥٨ ، ثم فى ١٦٦٣ ، أعيد انتخابه حاكما اعلى للاقليم المتحدة . وقد وقع من نفوس المراقبين باخلاصه لمهام الحكم ، وببساطة مسلكه وتواضعه ، وبنقاء حياته العائلية . وبسرت له ثروة زوجته العيش فى منزل نفخ يستطيع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب فى جومهييب ، ولكن ذلك المنزل كان مركزا للثقافة الهولندية أكثر منه مركزا للمظاهر المترفة ، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة ، ونوقش العلم والفلسفة ربما ببحرية لاطيقتها ناخبودى ويت السكلفنيون . وحتى سبينوزا ، ذلك المهرطق المرهوب ، وجد صديقا وفياساميا له فى الحاكم الأعلى .

لقد كانت مأساته دائما أنه أحب السلام أكثر من الحرب ، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قواما للقضاء عليها . وفى ١٦٦٠ رد تشارلو

الثانى الى عرش انجلترا ، فأوصى جان دى ويت مشدداً بأن يرضى عن ابن أخته وليم أورنج الثالث ، وبعد قليل طالب بالغاء « قانون الإبعاد » الذى أقصى بمقتضاه وليم عن المناصب ، ووافق دى ويت وهكذا مهد الملك الاستيوارتى لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه . وفى أكتوبر ١٦٦٤ ، استولت حملة انجليزية على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية ، وأطلقت عليها اسماً آخر هو نيو يورك تكريماً لدوق يورك (جيمس الثانى مستقبلاً) وكان يومها قائد البحرية الانجليزية . واحتج المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة ، ولم تعبأ إنجلترا بالاحتجاج ، وفى مارس ١٦٦٥ بدأت الحرب الهولندية الثانية .

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذته دى ويت من استعدادات . ذلك أن ضعف القيادة قد انتقل من المجلس التشريعى إلى حكومة تشارلز الثانى الغافلة العاجزة ، وبينما كان الملك المرح يرافق خليلته ، ظفردى ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلهما لكل نواحى التنظيم الحربى وتفصيله . فقد أبحر غير مرة مع الاسطول ، وعرض نفسه اسكل مخاطر المعركة ، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته . ولم تسكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفواً للبحرية الانجليزية فى السفن أو الرجال أو النظام ، فأوقعت البحرية الانجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية فى أول لقاء كبير فى الحرب (لوفستوفت ، ١٣ يونيو ١٦٦٥) . على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم وولوا عليه رجلاً من أفدر وأجرأ أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ . وفى يونيو ١٦٦٧ قاد هذا الرجل ، وهو ميشيل أدريانسزون درويتر ، ستا وستين سفينة إلى نهر التيمز ، واستولى على قلعه شيرنيس (على نحو أربعين ميلاً شرقى لندن) ، وحطم الحواجز التى تعترض الدخول فى نهر ميدواى (الذى يصب فى التيمز عند شيرنيس) وأخذ ، أو أحرق ، أو أغرق ست عشرة سفينة حربية كانت راسية هناك دون تأهب لمثل هذا الزائر الوقع (١٢ يوليو ١٦٦٧) . وإذ

لم يكن بتشارلز الثاني ولع بالحرب ، فقد أمر دبلوماسيه أن يعرضوا على الهولنديين صلحا مقبولا . وفي ٢١ يوليو ١٦٦٧ وقعت الدولتان معاهدة بريدا ، وبمقتضاها نزل الهولنديون لانجلترا عن نيويورك التي خالوها غيرهامه ، ووافقوا على أن يحيموا العلم الانجليزى فى المياه الانجليزية ، ونزلت انجلترا للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية . وكانت المعاهدة نصراً معتدلاً لدى ويت وبلغت به قوة نجاحه .

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء القاتلة ، فقد زاد من تنفير مؤيدى وليم الثالث بأن أجاز فى المجلس الإقليمى لهولندا (٥ أغسطس ١٦٦٧) « مرسوماً دائماً » يمنع أى حاكم لآى إقليم من تولى قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد . فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلوا من القواد الخسكين . ولسوء الحظ وقع هذا الحدث ، الناجم عن المنافسة بين أسرتين ، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضى المنخفضة الأسبانية ، فهددت بذلك المصالح الحيوية الأقاليم المتحدة . فلو أن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح الشلت للتجارة الأجنبية من جديد ، فإذا انتعشت بذلك أنتورب تحددت السيادة التجارية لأمستردام ، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله فى خطر . ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها ؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة ، ويستولى على مصاب الراين ، لما بقى للبلد فى الواقع وجود ، ولقضى على البروتستنتية الهولندية قضاء مبرماً .

وعرض دى ويت على الملك المعتدى سلسلة من الحلول الوسط ، ولكنه رفضها . فاتفق مع إنجلترا (٢٣ يناير ١٦٦٨) ، ثم مع السويد ، على حلف ثلاثى للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسى . ووافق لويس فى لبافة على إنهاء « حرب الأيلولة » (الوراثة الأسبانية) شريطة أن يستبقى طاقاً من المدن

والحصون التي استولى عليها في فلاندر وإينو . وارتضت هذه الشروط أنجلترة والسويد ، ثم الأقاليم المتحدة ، في معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) . وبدأ أن دبلوماسية دي ويت جنبت البلاد الخطر ، وفي يوليو انتخب للمرة الرابعة ليشغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة خمس سنوات أخرى .

ولكنه أخطأ استقراء سياسات ملكي فرنسا وأنجلترة . ذلك أن لويس لم يغتفر للهولنديين قط تدخلهم في غزوه للأراضي المنخفضة الأسبانية . فأقسم أنه « إن ضايقة هولنده كما ضايقت الأسبان فسيرسل رجاله بالحجاف والمعاول ليقذفوا بها في البحر (٤٥) » ، ربما بفتح الجسور البحرية عليها . كانت تغيظه الجمهورية ، وكان يطمع في الراين ، فمقد النية على تدمير تلك ، والسيطرة على هذا . وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التي نشبت بين الخصمين ؛ فقد فرض كولبير رسوما مانعة على البضائع الهولندية التي تدخل فرنسا ، ورد الهولنديون عليها بمثالها . ولكن الذخيرة الحربية استثنيت استثناء بارعا من هذه القيود ؛ ذلك أن لوفوا ، وزير الحرية الفرنسي ، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقادير هائلة من العتاد الحربي (١٦) ، وفي الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة على الضرائب التي أراد دي ويت فرضها لتزويد الجيش بالأمداد والمؤن . وأثبت السلك الدبلوماسي الفرنسي حذقه ، أو ثراذه ، بهزله أنجلترة والسويد عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة . فوافق تشارلز الثاني في معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) على التخلي عن الحلف الثلاثي والانضمام إلى لويس في حربه مع الهولنديين . أما السويد فقد انسحبت من الحلف في ١٦٧٢ لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا ، ووعدت أسبانيا ، والأمبراطورية ، وبراندنبورج ، الجمهورية بالمساعدة ، ولكن ما كان تحت تصرفها من قوات كان أضال أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

القوات المجنّدة الضخمة التي أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة براً وبحراً . وطاد
دى ويت يعرض التنازلات والحلول الوسط ، فرفضها لويس

وفى ٢٣ مارس ١٦٧٢ بدأت إنجلترا الهجوم على الجمهورية الهولندية ،
وفى ٦ أبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب . وسرطان مازحف نحو ١٣٠.٠٠٠ ر
مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين ، وكونديه ، ولسكسمبور ، وفوفان ،
ولويس نفسه . يقول فولثير « لم يشهد الناس من قبل جيشاً ضخماً كهذا
الجيش (٧) » ، واخترقت القوة الفرنسية الرئيسية ، باستراتيجية بارعة وغير
متوقعة ، الأراضي الألمانية — مهددة نائرة القرى بـ « الهدايا » — لتهاجم
النقط الأضعف تحصيناً . وفى ١٢ يونيو ، وتحت نيران الهولنديين وبصر
الملك ، عبر الفرنسيون الراين ، وهم يسبحون عرض الأقدام الستين التي لم
يسمح لهم عمقها أن يخوضوها ، وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور
والأيقونات الملكية . وزحفت الجيوش الملكية شمالاً إلى قلب الأقاليم
المتحدة ، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة . واستسلمت أوترخت
دون مقاومة ، وأذعن أقلبيا أوفريسيل وجلدرلاند ، ولم يبق بعد قليل غير
أمستردام ولاهاي . ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التي أوقفها درويتر فى ٦
يونيو بالأسطولين الإنجليزى والفرنسى مجتمعين فى خليج ساوثوولد .
وطلب دى ويت الصلح ، فطالب لويس بتعويض ضخّم ، وبسيطرة الفرنسيين
على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية ، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء
الجمهورية . ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية ،
فلجأوا إلى دفاعهم الأخير : وفتحوا الجسور ، وأدخلوا البحر عدوهم القديم
صديقاً منقذاً ، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس ، وتقمقر الفرنسيون
حاجزين أمام هذا الفيضان الذى أخذهم على غرة .

ومع هذا فقد خربت البلاد ، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب
كولونيا ، المتحالفين مع لويس ، تزحف دون طائق على إقليم أوفريسيل ،

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم أنف درويتر ، وأشرقت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار . أما دى ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أى رجل قبله فى تاريخ هولنده — بجمع الأموال ، و تجهز الأسطول وزوده ، ووقف إلى جوار درويتر فى معركة خليج ساوثوولد ، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه . وفى يونيو ١٦٧٢ عرض على لويس أن ينزل له عن ماسترشت واجزاء من برابانت الهولندية ، وأن يدفع كل نفقات الحرب . ولكن لويس ازدرى هذا العرض أيضاً ، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض نددوا به رجلا يبيت استسلام الحياة للويس^(٨) . وألقى عليه الشعب الآن كل تبعة ما أصابهم من نكبات . واتهموه بالنقمة الساذجة المستهتزة فى وعود تشارلز الثانى ولويس الرابع عشر ، ورموه بتعيين أقاربه فى أكثر من عشر وظائف مجزية ، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يغفروا له حرمان بيت اورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التى حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان . ثم لأموه على عجز قواده البورجوازيين وجبنهم . ورماء القساوسة الكلفنيويين بأنه ملحد مقنع ، وتابع لدبكات و صديق لسبينوزا^(٩) . وحتى طبقات التجار التى كانت من قبل سنده الأكبر انقلبت عليه الآن واتهمته بأنه منظم الهزيمة .

وشاركه أخوه كورنيليس فى تلقى بغض الجماهير وشتائمها ، وهو الذى قام به من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها . وفى ٢١ يونيو ١٦٧٢ بدلت محاولة فاشلة لاغتيال جان ، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس . وفى ٢٤ يوليو قبض موظفو لاهاي على كورنيليس بتهمة التآمر على أمير اورنج وفى ٤ أغسطس استقال جان من منصبه حاكما أعلى . وفى ١٩ أغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفى . وشق جان طريقه خلال المدينة الممادية الى سجن الجيفانجيمبورن ليرى أخاه رغم أنه حذر بأنه يعرض حياته للخطر . ومالبت جمع من

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصانغ وحلاق . وكان هناك حارس مدنى كلف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على الأخوين دى ويت ، فلم يبد أى مقاومة حين حطمو أبواب السجن واندفعوا الى داخله . وقبضوا على جان وكورنيليس ، وجروهما الى الليدان ، وضربوهما حتى الموت ، وعلقوا جثتيهما على عمود نور ورأساهما من مكان (٢٠ أغسطس ١٦٧٢) . وماتت الجمهورية الهولندية بموتهما ، وطاد بيت أورنج الى السلطة من جديد .

٥ - وليم أورنج الثالث

نشأت ماري ستيوارت ولدها على لون مسكتتب من ضبط النفس يترقب فى صمت فرصته حتى يأتى التجلد بالنصر ، وذلك بعد أن حطم روحها إعدام أبيها تشارلز الأول (١٦٤٩) ، وموت زوجها الشاب وليم أورنج الثانى (١٦٥٠) ، والغاء منصب رئاسة الدولة ، وإقصاء بيت أورنج عن الوظائف . هذا الصبى الهزيل الجسد ، الذى أحرق به فى نومه الأعداء المكلفون بحراسته ، والذى ورث رغم ذلك عن وليم أورنج لأول شعاره «سأقاوم» - نقول أنه شب فتى عليلا يخفى وراء وجهه الجامد نارا مستعرة من العزيمة والثأر . واذ كان صارما ، مؤدبا . مجاملا فى برود . فقد زهد فى اللهو والمرح ، ومارس الرياضات الخلوية علاجا لصداعه المتكرر ولتعرضه لنوبات الاغماء . لقد كان إناء ضعيفا لتلك الروح التى تستولى على عرش انجلترا وتؤدب ملك فرنسا .

وذهبت أمه الى انجلترا فى ١٦٦٠ ابتهاجا بتتويج أخيها ، وماتت هناك بالجدري فى ليلة عيد الميلاد . وفى ١٦٦٦ أعلنت حكومة افليم هولده الأمير ذا الستة عشر عاما قاصرا تحت وصاية الدولة ، واستبدل جان دى ويت بأوصيائه ومعلميه المحبوبين اشخاصا أكثر استجابة لسياسة المجلس

الاقليمي (٥٠). وكان كرهه ولهم لدى ويت يزداد على الايام . وفي قمة سلطان جان ، أملت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جيواده من لاهاي الى بيرجن أوب - زوم (١٦٦٨) ، ثم استقل زورقا الى زيلنده ، وكانت أكثر الأقاليم ولاء لأجداده . وحياء سكان حاصمتها مدلبورج بمظاهرات كبيرة تعريض حبا واخلاصا . فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة المجلس الاقليمي لزيلنده . فلما عاه الى لاهاي أعلن انه بلغ الآن رشده في عيد ميلاده الثامن عشر (٤ نوفمبر ١٦٦٨) ، وأنه منذ الآن سيستغني عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولنده . ولكن المجلس رفض سحبهم ، فطردهم ، ولكنهم بقوا . وتوقب ولهم فرصته . وقد واثته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية ، واستسلمت الجيوش الهولندية بلدا بعد بلد ، وبدأ أنى لاهاي ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وعين المجلس التشريعي ولهم قائدا عاما للاتحاد (٢٥ فبراير ١٦٧٢) ، مدعنا لمطالب العسكريين ، ومؤملا أن تعود الى الأمة وحدتها ومعنويتها . برد بيت أورانج الى مكان القيادة . وفي ٢ يوليو انتخب مجلس زيلنده ولهم حاكما لاقليمهم ، ضاربا بالمرسوم الدائم عرض الحائط ، وفي ٤ يوليو هذا المجلس هولنده حذوه ، وفي ٨ يوليو عين قائدا أعلى لقوات الاتحاد المسلحة في البر والبحر . وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح نظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين ، وانزول عن مساحات كبيرة لفرنسا ، ومواستر ، وكولونيا ، وقدم عرض سري بالاعتراف بوليم ملسكا على الباقي . واتجه اليه مجلس هولنده يطلب النصيحة فأجاب ، « خير لنا أن نقطع إربا من أن نقبل هذه الشروط (٥١) . » وحين حضر دوق بكنجهام الثاني من انجلترا ليبحث ولهم على الصلح وقال له « الا ترى أن وطنك قد ضاع ؟ » أجاب « ان وطني في خطر عظيم ، ولكن هناك سبيل مؤكدمنعه من الضياع ، وهو الموت في آخر خندق (٥٢) » . ومع ذلك ففي حكمة تستغرب من قتي في الثانية والعشرين ، اثار بالمفاوضات الصابرة المجاملة مع الانجليز ، ولعله رأى آشد أن في التعاون

بين الإنجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا . واتخذ من التناحيث ما يكفل توثيق الروابط بين الأقاليم المتحدة ، والامبراطورية ، ويرايد نبورج . وكانت الخطوط العريضة للحاف الأعظم تتشكل في ذهنه . ومضى الى المقر الرئيسى للجيش ، لذلك كان غائبا عن لاهاي حين قتل الأخوان دى وبث . والظاهر أنه لم يكن ضالعا في تدبير هذه الفعلة ، التي ربما لم يدبرها أحد ، ولكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنيتها ؛ وحمى الرجال الذين قادوا القواء ورتب لهم معاشا (٥٣) . ثم حاول الآن أن يكون قائدا كنفوا ، فلم يوفق قط في محاولته ، غير أن المقاتلين المحنكين الذين انضموا تحت لوائه في حماسة أمادوا تنظيم الجيش والبحرية ، وبدأت الانتصارات ترجح الهزائم ، وتفوق درويتر وكوريليس ترومب (بن مارتن) على الأسطولين الانجليزي والفرنسي في شونفيلت وكيكسدين (١٦٧٣) ، وصعد الغزاة الألمان عند جرونجن ، واستولى ولیم على . غاردن ، وظهرت أقاليم جلدرلاند وأوترخت ، وأوغريسيل ، من العدو . وراح الفرنسيون يتقهقرون في كل مكان تقريبا ، وأنقذت الأقاليم المتحدة ، مؤقتا على الأقل ، فماتت لوليم منقذاتها .

ثم أضاف الى هذه الانتصارات انتصارات دبلوماسية . ففي ١٩ فبراير ١٦٧٤ أوقع إنجلترا بأن تبرم معه صلحا منفردا إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليون فلورين ؛ وفي ٢٢ أبريل و ١١ مايو وقع معاهدتين مع مونستر وكولونيا ، ثم أكد التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة ، وأسبانيا ، ويرايد نبورج ، والدنمرك ، والامبراطورية ، ضد فرنسا التي أصبحت الآن معزولة . وكانت الضربة الأخيرة ظفروه بيد ماري ، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك إنجلترا . وتقاربت الآن الدولتان البروتستانتيتان الكبريان ، وراحت الشبكة تحسك خيوطها حول فرنسا ، ولم يكن أمرا هيئا أن يكون لماري حق في وراثة العرش الانجليزي لا يتقدم عليه غير حق أبيها فيه . ويدرك التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كوليم مثل هذه الخلطة البعيدة النظر ، ولا حقق لها نجاحا كهذا النجاح .

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك ، فاستولوا على إيبروغنت ، وزحفوا نحو الحدود الهولندية . وهزم أسطول فرنسي درويتر نجاح شاطئ صقلية (٢٢ أبريل ١٦٧٦) ، وبعد أسبوع مات درويتر متأزماً بجراحه . وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحدة بشروط مغرية : أن يرد كل الأراضي الهولندية التي استولى عليها الفرنسيون ، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة على احتفاظه بفراش - كونيته والاورين . واحتج الامبراطور ، وبراندينبورج ، والدمرك على هذا الصلح ، وأيدهم وليم ، ولكن المجلس التشريعي الذي غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه ، وتخلي عن حلفائه ، ووقع مع فرنسا صلح نيميغن المنفصل (١٠ أغسطس ١٦٦٧) .

أما وليم فقد نزل إلى الصلح على أنه مجرد هدنة ، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف وكبح انتجار الهولنديون طموحه العسكري ، محتجين بأن الأقاليم المنهكة في حاجة لأن تستريح من النضال ، وأن الرخاء في طريقه إليها . على أن حدثين وقعا عام ١٦٨٥ فاستغلها وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم نانت ، فاحتشد الهيجونوت المضطهدون في الأقاليم المتحدة ، وتزعموا دعوة نشيطة لتوحيد الدول البروتستانتية ضد فرنسا . وفي إنجلترا كشف جيمس الثاني ، بعد أن تولى عرشها ، عن أهله في رد الأمة إلى الكاثوليكية ، فدبر البروتستانت الإنجليز عزله ، وبذلك يحل حق ماري زوجة وليم في العرش . وكان وليم قد عشق إليزابيث فيليبي ، صديقة ماري (٥٤) الحبيبة ، ولكن ماري فغرت له ، ووافقت على طاعة زوجها يومئذ ملكاً أن هي أصبحت ملكة على إنجلترا . وفي ١٦٨٦ أفلح وليم في تنظيم حلف مع الامبراطورية ، وبراندينبورج ، وأسبانيا ، والسويد ، للدفاع المشترك . وفي ٣٠ يونيو ١٦٨٨ دعا الزعماء البروتستانت الإنجليز وليم وماري إلى دخول إنجلترا بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملكهم الكاثوليكي . وتردد وليم ، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش هرمرم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضي المنخفضة أو الامبراطورية . وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا ، فأطلق بذلك يد وليم . وفي ١ نوفمبر ١٦٨٨ أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش إنجلترا .

فهرس

المجزء الأول

من المجموعــــــــــــــــــــلد الثامن

—

الكتاب الأول

فرنسا في أوج عظمتها ١٦٤٣ — ١٧١٧

—

صفحة

الفصل الأول

٧

المهمس تشرق : ١٦٤٣ — ٨٤

٢١ — ٧

١ — مازاران والقرونيد .

٣١ — ٢١

٢ — الملك .

٣٤ — ٣١

٣ — هولاء فوكيه .

١٥ ٣٤

٤ — كرفير يعيد بناء فرنسا .

٥٢ ٤٥

٥ — الآداب والأخلاق .

٥٧ — ٥٢

٦ — بلاط الملك .

٦٨ — ٥٧

٧ — - - نساء الملك .

٧٤ — ٦٩

٨ — الملك يفضى إلى الحرب .

الفصل الثاني

٧٥

وثقة الإيمان ١٦٤٣ . . ١٧١٥

٨١ — ٧٥

١ — الملك والكنيسة .

٨٦ — ٨١

٢ — - - البور - رويال ١٢٠٤ - ١٦٢٦

- ٣ — الجانسيون واليهوعيين ٩٠—٨٦
 ٤ — بسكال . ٩٠
 (أ) بسكال الإنسان . ٩٥—٩٠
 (ب) الرسائل الاقليمية . ٩٧—٩٥
 (ج) في الدفاع عن الإيمان . ٩٧ ١٠٧
 ٥ — البور — رويال . ١٦٥٦ — ١٧١٥ ١٠٧—١١٠
 ٦ — للاك واليهجونوت . ١١٩—١١٩
 ٧ — بوسويه . ١٢٨—١٢٨
 ٨ — فضيلون ١٢٨ . ١٣٥

الفصل الثالث

- للاك والفنون : ١٦٤٣ - ١٧١٥ ١٣٦
 ١ — تنظيم الفنون . ١٤٠—١٣٦
 ٢ — العمارة ١٤٦—١٤٠
 ٣ — الخزفة . ١٤٩ . ١٤٦
 ٤ — التصوير . ١٥٥ ١٤٩
 ٥ — النحت . ١٥٥—١٦١

الفصل الرابع

- موليير : ١٦٢٣ - ٧٣ ١٦٢
 ١ — المسرح الفرنسي . ١٦٤ ٢٦٢
 ٢ — تلمذته ١٦٧ ١٦٤
 ٣ — موليير وسيدات المجتمع ١٧٧—١٦٨
 ٤ — غرام طرطوف ١٨٣ ١٧٧
 ٥ — الملحد العاشق . ١٨٦ ١٨٣

- ٦ — موليير في أوجه . ١٨٦ - ١٩٤
٧ — ستار . ١٩٤ - ١٩٨

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي :

١٦٤٣ - ١٧١٥

- ١ — جو الكلاسيكية . ١٩٩ - ٢٠٢
٢ — تذييل لـ كورني . ٢٠٢ - ٢٠٤
٣ — راسين . ٢٠٤ - ٢٢١
٤ — لافونتين . ٢٢١ - ٢٢٤
٥ — بوالو . ٢٢٤ - ٢٢٨
٦ — الاحتجاج الرومانسي . ٢٢٩ - ٢٣١
٧ — مدام دسفيانييه . ٢٣٢ - ٢٣٧
٨ — لا روشفوكو . ٢٣٧ - ٢٤٣
٩ — لا برويير . ٢٤٣ - ٢٤٥
١٠ — مزيد من الأدباء . ٢٤٥ - ٢٥٠

الفصل السادس

مأساة في الأراضي المنخفضة : ١٦٤٩ - ١٧١٥

- ١ — الأراضي المنخفضة الأسبانية . ٢٥١ - ٢٥٣
٢ — الجمهورية الهولندية . ٢٥٣ - ٢٥٨
٣ — ازدهار صور الحياة اليومية . ٢٥٨ - ٢٦٣
٤ — جان دي ويت . ٢٦٣ - ٢٧٢
• — وليم أوردنج الثالث . ٢٧٢ - ٢٧٦

CHAPTER I

1. Motteville, Mme. de, *Memoirs*, I, 79.
2. Retz, Cardinal de, *Memoirs*, 103.
3. Motteville, I, 81.
4. Retz, 103.
5. Motteville, III, 232.
6. *History Today*, July 1959, p. 461.
7. Bishop, M., *Life and Adventures of La Rochefoucauld*, 149.
8. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 36.
9. Retz, 281.
10. Sainte-Beuve, *Portraits of the Seventeenth Century*, I, 335.
11. Retz, 55, 73.
12. Voltaire, *Louis XIV*, 67.
13. Michelet, *Histoire de France*, IV, 388; Acton, *Lectures on Modern History*, 235.
14. Motteville, III, 237.
15. Palmer, *Molière*, 15.
16. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 361.
17. Sainte-Beuve, I, 422.
18. *Ibid.*, 417.
19. *History Today*, March 1954, p. 149.
20. Voltaire, 256.
21. *Ibid.*, 69.
22. Rea, Lillian, *Countess of La Fayette*, 170.
23. Ferval, *Louise de La Vallière*, 55.
24. Saint-Simon, II, 369.
25. Sainte-Beuve, I, 413.
26. Saint-Simon, II, 361.
27. Sainte-Beuve, I, 423.
28. Louis XIV, *Mémoires*, 35.
29. In Sainte-Beuve, I, 417.
30. Boulenger, *Seventeenth Century*, 178.
31. Motteville, III, 248.
32. Lewis, W. H., *Splendid Century*, 30.
33. Voltaire, 257.
34. Barine, *La Grande Mademoiselle*, 117.
35. Louis XIV, 76.
36. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 63-65; Michelet, IV, 424-27.
37. Guizot, *History of Civilization*, I, 260.
38. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 533.
39. Louis XIV, 96.
40. King, J. E., *Science and Rationalism in the Government of Louis XIV*, 87.
41. Saint-Simon, II, 34.
42. Louis XIV, 68.
43. King, 95.
44. Saint-Simon, II, 106, 370.
45. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 153.
46. Louis XIV, 70.
47. France, Anatole, *Nicolas Fouquet*, 258.
48. Voltaire, 262.
49. Martin, H., I, 23, quoting de Choisi.
50. Louis XIV, 74.
51. Martin, I, 22.
52. See, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 93.
53. Martin, I, 34.
54. *Ibid.*, 33f.; Michelet, IV, 410.
55. Boulenger, 356.
56. Mousnier, R., *Histoire générale des civilisations*, IV, 148.
57. Voltaire, 324; Martin, I, 79.
58. Michelet, IV, 428.
59. Mousnier, IV, 148.
60. Voltaire, 273; Martin, I, 86.
61. Boulenger, 357; Lewis, *Splendid Century*, 81.
62. *History Today*, March 1954, p. 155.
63. Mousnier, IV, 252.
64. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 154.
65. Mousnier, IV, 250; *Cambridge Modern History*, V, 11.
66. Boulenger, 355.
67. Levasseur, *Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789*, I, 394.
68. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 366.
69. In Acton, *Lectures*, 326.
70. Martin, I, 489-90, 496.
71. Voltaire, 323.
72. Martin, I, 558.
73. Barine, 13.
74. Saint-Simon, I, 383; Voltaire, 288.
75. *Encyclopaedia Britannica*, XIII, 778c; Brereton, *Jean Racine*, 245-52.
76. Molière, *Théâtre: École des femmes*, I, 1.
77. Sainte-Beuve, I, 250; Day, Lillian, *Ninon*, 34.
78. Sévigné, Mme. de, *Letters*, I, 98, April 1, 1671.
79. Day, *Ninon*, 141.
80. Parton, *Life of Voltaire*, I, 33.
81. Saint-Simon, I, 344.
82. Sévigné, I, 105, April 8, 1671; Day, *Ninon*, 242.
83. *Ibid.*, 80.
84. Saint-Simon, I, 344.
85. Day, 246.
86. *Ibid.*, 185.
87. Saint-Simon, I, 345.
88. Day, 260.
89. Sainte-Beuve, II, 199.

90. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 109.
91. Michelet, V, 118.
92. Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 74.
93. Boulenger, 349.
94. Bourgeois, 77; Guizot, *History of France*, IV, 587.
95. La Bruyère, *Characters*, chap. "Of the Gifts of Fortune."
96. Voltaire, 278.
97. Saint-Simon, II, 11.
98. Fülöp-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 415.
99. Martin, I, 172.
100. *Ibid.*, 171.
101. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 942.
102. Day, *Ninon*, 163.
103. Cartwright, *Madame; A Life of Henrietta, Duchess of Orleans*, 89.
104. Racine, *Oeuvres: Andromaque*, Dedication.
105. Michelet, IV, 405.
106. *Ibid.*, V, 158.
107. Cartwright, 371; Voltaire, 284; Martin, I, 312.
108. Ferval, *La Vallière*, 67.
109. *Ibid.*, 302.
110. Voltaire, 282.
111. Michelet, IV, 437.
112. Saint-Simon, I, 301.
113. Boulenger, 192.
114. Crutwell, *Mme. de Maintenon*, 29.
115. *Ibid.*, 46.
116. *Ibid.*, 51.
117. Michelet, V, 69; Martin, I, 535.
118. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 46.
119. Crutwell, 89; Martin, I, 530.
120. Boulenger, 195; Michelet, IV, 490; Crutwell, 118-19.
121. Saint-Simon, II, 381.
122. *Ibid.*, III, 15.
123. Acton, 236; Ogg, *Europe in the 17th Century*, 231.
124. Louis XIV, 122-25.
125. Martin, I, 417.
126. Voltaire, 260; Martin, I, 400; *Enc. Brit.*, XII, 682c; Acton, 243.
127. *Camb. Mod. History*, V, 77.
128. Lewis, *Splendid Century*, 239.
8. Ranke, *History of the Popes*, II, 420.
9. Fülöp-Miller, 105.
10. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 74f.
11. *Ibid.*, 83; Beard, Charles, *Port-Royal*, II, 30.
12. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 89.
13. Beard, Charles, I, 30.
14. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 90.
15. *Ibid.*, II, 407n.
16. Beard, C., I, 52.
17. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 94.
18. Pascal, *Provincial Letters*, Introd., 97, and 421n.
19. Voltaire, 419; Beard, C., I, 260.
20. Pascal, *Letters*, Introd., 109.
21. Mesnard, *Pascal*, 12.
22. Mornet, Daniel, *Short History of French Literature*, 75.
23. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 379; Mesnard, 40.
24. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 748.
25. Pascal, *Pensées*, Havet ed. Introd., p. civ.
26. Mesnard, 57.
27. *Ibid.*, 209.
28. Pascal, *Pensées*, Introd., p. cxxiii.
29. Pascal, *Provincial Letters*, 197.
30. *Ibid.*, 417.
31. *Ibid.*, 465; *Pensées*, II, 118.
32. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 235.
33. Mesnard, 92.
34. Voltaire, 424.
35. In Pascal, *Provincial Letters*, 127n.
36. Fülöp-Miller, 195.
37. Voltaire, 424, 358.
38. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 118.
39. Voltaire, 359.
40. Sainte-Beuve, III, 173f.; Beard, C., I, 84.
41. Pascal, *Pensées*, Introd., xxviii; Mesnard, 137-38.
42. Cf. Rabelais, Book III, Ch. xiii.
43. *Pensées*, Introd., p. xxv; text, 17bis.
44. *Ibid.*, text, i, 1.
45. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, 174.
46. *Pensées*, Everyman's Library, No. 82.
47. *Pensées*, Havet ed., Book III, No. 18.
48. Everyman ed., No. 4.
49. Havet ed., XVI, pt 1bis.
50. *Ibid.*, XX, p. 19.
51. *Ibid.*, I, p. 1.
52. Everyman ed., No. 349.
53. *Ibid.*, No. 418.
54. Havet ed., VIII, p. 1.
55. *Ibid.*, II, p. 8.
56. *Ibid.*, VI, p. 51; Everyman ed., No. 461.
57. Havet, IV, p. 1.
58. *Ibid.*, II, pp. 6, 10is, 3.
59. Everyman, No. 402.

CHAPTER II

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 393; Guérard, 186-90.
2. Mesnard, *Pascal*, 99.
3. Campbell, *The Jesuits*, 259; Fülöp-Miller, 195.
4. Voltaire, 430.
5. Saint-Simon, II, 84.
6. *Ibid.*, III, 37.
7. Louis XIV, 119.

60. *Ibid.*, No. 397; Havet, I, p. 3.
 61. Havet, I, p. 6; Everyman, No. 347.
 62. Everyman, No. 277.
 63. Havet, XXIV, p. 51.
 64. *Ibid.*, X, p. 1; Everyman, No. 233.
 65. Everyman, No. 233.
 66. Havet, II, p. 8.
 67. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 508.
 68. Havet, IV, 7.
 69. *Ibid.*, XIV, 1.
 70. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 124.
 71. Owen, 800.
 72. *Ibid.*, 775.
 73. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 320.
 74. Beard, C., II, 75.
 75. *Provincial Letters*, 59.
 76. *Pensées*, Havet, Introd., cxii.
 77. Beard, C., II, 352.
 78. Disraeli, Isaac, *Curiosities of Literature*, I, 97.
 79. Saint-Simon, II, 12.
 80. Boulenger, 284.
 81. Michelet, V, 298.
 82. In Martin, H., I, 131.
 83. Lewis, *Splendid Century*, 108.
 84. Sanders, *Bossuet*, 53.
 85. *Camb. Mod. History*, V, 12.
 86. Martin, I, 529.
 87. *Ibid.*
 88. *Ibid.*, 532.
 89. Michelet, IV, 520.
 90. Guizot, *History of France*, V, 23.
 91. *Camb. Mod. History*, V, 23.
 92. *Ibid.*
 93. Boulenger, 263.
 94. Martin, I, 552.
 95. Ogg, *Seventeenth Century*, 305.
 96. Martin, II, 33.
 97. *Ibid.*, 43.
 98. Buckle, H. T., *History of Civilization*, II, 492n., quoting Benoist, Élie, *Histoire de l'Édit de Nantes* (1695), V, 887f.
 99. Michelet, IV, 507.
 100. Voltaire, 409.
 101. Martin, II, 44.
 102. Robertson, J. M., II, 142.
 103. Saint-Simon, III, 14.
 104. Beard, Miriam, 373.
 105. Bacon, "Of Unity in Religion," in *Essays*.
 106. Sanders, *Bossuet*, 46.
 107. Bossuet, *Oraisons funèbres et sermons*, 69.
 108. *Ibid.*, 108.
 109. Eccles. xviii, 14.
 110. Romans xiii, 1.
 111. Isaiah xiv, 1.
 112. Sanders, 213.
 113. Bossuet, in Ogg, 102.
 114. Sanders, 260.
 115. Buckle, II, 569.
 116. Faguet, *Literary History of France*, 446.
 117. Michelet, IV, 517.
 118. Martin, II, 268.
 119. Sanders, 280; Michelet, IV, 412.
 120. Fénelon, *Télémaque*, end of Book IX.
 121. *Ibid.*, Book XIII.
 122. Faguet, *Literary History*, 446.
 123. Hazard, *The European Mind: The Critical Years*, 108.
 124. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 191.
 125. Bayle, *Philosophical Commentary on . . . "Let Them Come in,"* in Robinson, H., *Bayle the Sceptic*, 73.
 126. Bayle, *Dictionnaire historique et critique*, s.v. "Xénophanes."
 127. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 302.
 128. Morner, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 24.
 129. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 35.
- ### CHAPTER III
1. Pradel, *L'Art au siècle de Louis XIV*, 101.
 2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 376.
 3. *Ibid.*, 325.
 4. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 583.
 5. Pradel, 96.
 6. *Ibid.*, 99.
 7. Boulenger, 365.
 8. Fergusson, *History of the Modern Styles of Architecture*, 236-8.
 9. Saint-Simon, I, 186.
 10. Martin, II, 212; Blomfield, *Three Hundred Years of French Architecture*, 86.
 11. Victoria and Albert Museum, London.
 12. Dillon, *Glass*, 210.
 13. Guizot, *History of France*, IV, 566.
 14. Stranahan, *History of French Painting*, 50.
 15. Louvre.
 16. Dimier, Louis, *Histoire de la peinture française* (Paris, 1927), II, 45.
 17. Versailles.
 18. Benoist, *Coysevox*, 115; the bust is in the Louvre.
 19. Louvre.
 20. Louvre.
 21. Louvre.
 22. Louvre.
 23. Louvre.
- ### CHAPTER IV
1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 258.
 2. Palmer, *Monere*, 46.

3. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, IV, 42.
4. Molière, *Le Misanthrope*, II, v, 711f.
5. Lucretius, *De rerum natura*, IV, 1153f.
6. Martin, I, 190, Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 95-97.
7. Palmer, 59.
8. Voltaire, *Life of Molière*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 628.
9. Palmer, 147.
10. *Les Précieuses ridicules*, scene iv, in Molière, *Plays*, Everyman's Library ed.
11. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 271.
12. Palmer, 145.
13. *Les Précieuses ridicules* (Everyman ed.), scene ix.
14. *L'École des maris* (Everyman), I, i.
15. *L'Impromptu de Versailles* (Everyman), I, i.
16. *L'École des femmes*, I, i.
17. *L'École des femmes* (Everyman) I, i.
18. *Critique de l'École des Femmes*, vi.
19. *Ibid.*
20. Michelet, IV, 419.
21. Molière, *Théâtre*, II, 40.
22. Palmer, 335.
23. *Tartuffe* (Everyman), I, vi.
24. *Ibid.*, III, ii.
25. III, vii.
26. IV, v.
27. *Le Festin de pierre* (Everyman), I, i.
28. *Ibid.*, III, i.
29. IV, ii.
30. Palmer, 380f.
31. As in the Everyman's Library edition.
32. *Le Festin de pierre* (Everyman), III, i.
33. Garrison, *History of Medicine*, 296.
34. *L'Amour médecin* (Everyman), II, v.
35. Palmer, 410.
36. *Le Misanthrope* (Everyman), II, i.
37. *Le Misanthrope*, I, i.
38. *Ibid.*, Classiques Larousse ed., 97-98.
39. In Sainte Beuve, *Seventeenth Century*, II, 126-27.
40. *L'Avare*, II, vi.
41. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), II, iv.
42. Guizot, *History of France*, IV, 560.
43. Michelet, IV, 421.
44. *Le Malade imaginaire* (Everyman), III, iii.
45. Edwards, *Idols of the French Stage*, I, 40.
46. *Ibid.*, 45.
47. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), I, i.
48. *Critique de l'École des femmes* (Everyman), vi.
49. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 140.
50. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 204.

CHAPTER V

1. Martin, I, 142; Boulenger, 360; *Camb. Mod. History*, V, 152; Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 93.
2. Guizot, *History of Civilization*, II, 231; Hauser, *Social History of Art*, I, 470.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au XVIII^e siècle*, III, 404.
4. Van Laun, *History of French Literature*, II, 184.
5. *Enc. Brit.*, VI, 441b.
6. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 293; Brereton, *Racine*, 29.
7. Racine, Louis, *Mémoires sur la vie . . . de Jean Racine*, in Racine, Jean, *Oeuvres*, I, 42.
8. Brereton, 29.
9. Guizot, *History of France*, IV, 539.
10. Racine, *Andromaque*, I, iii.
11. Brereton, 154; Martin, I, 170.
12. Suetonius, *De vita Caesarum: Divus Titus*, vii, 2.
13. Racine, *Bérénice*, I, v.
14. Desnoiresterres, VI, 96.
15. Guizot, *France*, IV, 541.
16. Smith, Adam, *Theory of Moral Sentiments*, I, 255.
17. Racine, *Oeuvres*, I, 765.
18. Brereton, *Racine*, 245-52.
19. *Ibid.*, 19.
20. 2 Kings xi; 2 Chronicles xii.
21. Racine, *Athalie*, IV, iii.
22. Parton, *Voltaire*, I, 591; Mme. du Defand, in Strachey, *Books and Characters*, 99; Guizot, *France*, IV, 546; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 147; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 314.
23. Guizot, *France*, IV, 540.
24. Racine, Louis, *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, p. iii.
25. Saint-Simon, I, 155; Guizot, *France*, IV, 548-49; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 153; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 303.
26. Guizot, IV, 548.
27. *Ibid.*
28. Racine, L., *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, 113.
29. Babbitt, Irving, *The Spanish Character*, 98.
30. Brereton, 143.
31. Sévigné, Mme. de, *Letters*, II, 210 (Mar. 16, 1672).
32. Desnoiresterres, VI, 102, 281.
33. Hume, "Of Civil Liberty," in *Essays*, 52.

34. La Fontaine, *Choix de contes*, 151.
35. *Fables*, Preface.
36. Rea, *Life of . . . Countess of La Fayette*, 230.
37. Guizot, IV, 552.
38. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 148.
39. Guizot, IV, 553.
40. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, V, 24.
41. *Ibid.*
42. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 138.
43. Boileau, *Satire* 1, in *Poètes français*, VII, 21.
44. *Satire* ix.
45. *Poètes français*, VII, 182-85; *Enc. Brit.*, III, 790d.
46. Day, *Ninon*, 211.
47. Boileau, *L'Art poétique*, i, ll. 75-76.
48. *Ibid.*, ll. 171-74.
49. IV, 59-60.
50. IV, 125-26.
51. III, 45-46.
52. III, 391-94.
53. In Fischer, *Descartes and His School*, 511.
54. Guizot, *France*, IV, 551.
55. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 261.
56. Lewis, *Splendid Century*, 268.
57. Guizot, IV, 519.
58. La Fayette, Mme. de, *La Princesse de Clèves*, 104.
59. Rea, *Countess of La Fayette*, 184.
60. Bishop, *La Rochefoucauld*, 266.
61. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 27.
62. Sévigné, *Letters*, I, 170 (June 10, 1671).
63. Letter of Jan. 20, 1672.
64. In Boissier, 145.
65. *Ibid.*, 145-47.
66. *Letters*. Introd., xxxviii.
67. Letter of July 5, 1761.
68. Apr. 8, 1761.
69. Boissier, 201; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 232.
70. Apr. 10, 1671.
71. Guizot, IV, 516.
72. Bishop, *La Rochefoucauld*, 128.
73. *Moral Maxims and Reflections*, 84.
74. *Ibid.*, 150.
75. 84.
76. 122.
77. 178.
78. 11.
79. 471.
80. 9.
81. 119.
82. 82, 465.
83. In Bishop, 68.
84. *Moral Maxims*, 15.
85. *Ibid.*, 77.
86. 138.
87. 140.
88. 74.
89. 307.
90. 436.
91. Preface to the first edition.
92. In Bishop, 244.
93. *Moral Maxims*, 688.
94. *Ibid.*, 70.
95. *Ibid.*, 658-59.
96. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, I, 380.
97. *Moral Maxims*, 476.
98. Rea, *Countess of La Fayette*, 265.
99. Sainte-Beuve, *loc. cit.*
100. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 395.
101. La Bruyère, *Characters*, p. 173. Ch. xii, 7.
102. *Ibid.*, p. 492, Ch. xii, 7.
103. Eg., Ch. xi, 35, and Ch. xvii, 28, in La Bruyère, pp. 267, 469.
104. Guizot, *France*, IV, 528.
105. Motteville, *Memoirs*, I, 150.
106. French text in Fellows and Torrey, *The Age of the Enlightenment*, 35-39.
107. Hazard, *The Critical Years*, 127.
108. Saint-Evremond, Letter to de Créquy, in King, J., *Science and Rationalism*, 26.
109. Frederick II to Voltaire, Sept. 19, 1774, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*.
110. Lewis, *Splendid Century*, 282.
111. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 1.

CHAPTER VI

1. A good example in Metropolitan Museum of Art, New York.
2. Vienna.
3. Dresden.
4. Madrid.
5. Louvre.
6. Wolf, *History of Science . . . in the XVth and XVIIth Centuries*, 626.
7. Beard, Miriam, 305.
8. Day, Clive, *History of Commerce*, 194; Marx, *Capital*, I, 826.
9. *Camb. Mod. History*, V, 12.
10. Adam Smith, in Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 71.
11. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 44.
12. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx.
13. Pepys, *Diary*, May 14, 1660.
14. Hazard, *Critical Years*, 93.
15. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 20.
16. Hazard, 88.
17. Vienna.
18. The Hague.
19. New York.
20. Baron Thyssen Collection.
21. The Hague.
22. Mather, F. J., *Western European Paint-*

- ing of the Renaissance*, 549.
23. Czernin Collection, Vienna.
 24. The Hague.
 25. Edinburgh.
 26. Frick Gallery, New York.
 27. London.
 28. Dresden.
 29. Louvre.
 30. New York.
 31. Washington.
 32. Chicago.
 33. Budapest.
 34. Frick Gallery.
 35. Brussels.
 36. Berlin.
 37. London.
 38. Louvre.
 39. The Hague.
 40. Amsterdam.
 41. Dresden.
 42. New York.
 43. Mather, 590.
 44. In Beard, Miriam, 288.
 45. In Browne, Sir Thomas, *Religio Medici*, 19.
 46. Voltaire, *Agé of Louis XIV*, 94; Martin, *Louis XIV*, I, 333.
 47. Voltaire, 93.
 48. Bowen, Marjorie, *William Prince of Orange*, 196.
 49. Martin, I, 347.
 50. Bowen, 92.
 51. *Camb. Mod. History*, V, 158.
 52. Burnet, Bishop, *History of His Own Times*, 117.
 53. *Camb. Mod. History*, V, 160; Acton, *Lectures*, 228.
 54. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 30.